مع
القرآن الكريم

رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة

العدد الثامن

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

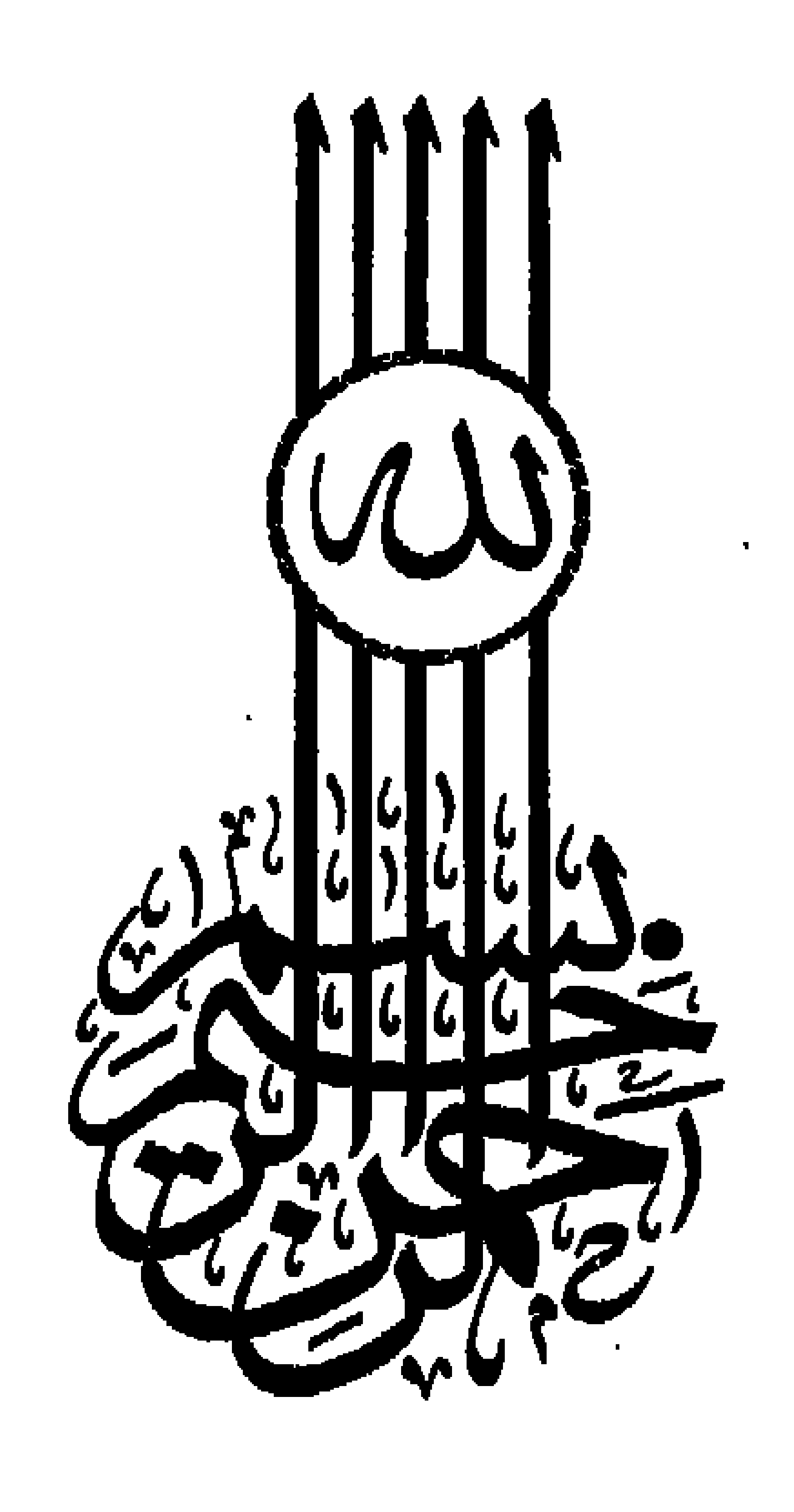
يصدرها سنويًا المركز الثقافي

المقاولون العرب

عثمان أحمد عثمان وشركاه

٣٤ شارع عدلي - القاهرة





مع

القرآن الكريم

رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة

مع
القرآن الكريم

رؤية مستنيرة للحقائق القرآنية
في سيرة أهل البيت
وبنات شعيب والروح والسعادة
والقرن الخامس عشر الهجري في كتاب الله

إعداد : عبد الفتاح عساكر

العدد الثامن

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

يصدرها سنويًا المركز الثقافي

المقاولون العرب

عثمان أحمد عثمان وشركاه

٣٤ شارع عدلي - القاهرة



الكتب التي صدرت عن المركز الثقافي

العدد الأول	الطبعة الأولى	١٢ ربيع الآخر	١٣٩٣
		١٥ مايو	١٩٧٣
	الطبعة الثانية	٢٠ رمضان	١٣٩٤
		٦ أكتوبر	١٩٧٤
	الطبعة الثالثة	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الثاني	الطبعة الأولى	١٢ ربيع أول	١٣٩٤
		١٥ أبريل	١٩٧٤
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الثالث	الطبعة الأولى	١٤ رجب	١٣٩٥
		٢٣ يونيو	١٩٧٥
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الرابع	الطبعة الأولى	٢٥ رجب	١٣٩٦
		٢٣ يوليو	١٩٧٦
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد الخامس	الطبعة الأولى	٦ شعبان	١٣٩٧
		٢٣ يوليو	١٩٧٧
	الطبعة الثانية	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩
العدد السادس	الطبعة الأولى	١٠ رمضان	١٣٩٨
		١٤ أغسطس	١٩٧٨
العدد السابع	الطبعة الأولى	١ رمضان	١٣٩٩
		٢٥ يوليو	١٩٧٩
العدد الثامن	الطبعة الأولى	٢ رمضان	١٤٠٠
		١٤ يوليو	١٩٨٠
العدد الأول لأبناء العاملين	الطبعة الأولى	١٨ شعبان	١٣٩٨
		٢٣ يوليو	١٩٧٨
العدد الثاني لأبناء العاملين	الطبعة الأولى	١ المحرم	١٤٠٠
		٢١ نوفمبر	١٩٧٩

العدد التاسع تحت الطبع

الاهداء الى

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ

ٱللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ
إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

بحوث الأعداد التى صدرت عن المركز الثقافى

المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه

بحوث العدد الأول

- بحوث القرآن الكريم
- القرآن الكريم والتاريخ
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم والجهاد

بحوث العدد الثانى

- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والعلم
- القرآن الكريم وحقوق الإنسان
- القرآن الكريم والحضارة
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والمجتمع

بحوث العدد الثالث

- مع القرآن الكريم حول أسمائه وصفاته
- القرآن الكريم والعلم
- القرآن الكريم والاقتصاد المجتمع
- القرآن الكريم والقومية العربية
- القرآن الكريم والشريعة
- القرآن الكريم والبيان

بحوث العدد الرابع

- القرآن الكريم والإيمان
- القرآن الكريم والدعوة
- القرآن الكريم والأسرة
- القرآن الكريم والعمران
- القرآن الكريم والاقتصاد
- القرآن الكريم واللغة العربية

بحوث العدد الخامس

- القرآن الكريم والتاريخ
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم والتدبر
- القرآن الكريم واللغة العربية
- القرآن الكريم وعلم الغيب
- القرآن الكريم والأمومة

بحوث العدد السادس

- القرآن الكريم وسيرة النبى
- القرآن الكريم وبرهان الإيمان
- القرآن الكريم واللغة العربية
- القرآن الكريم والتدبر
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم وبنو إسرائيل

بحوث العدد السابع

- القرآن الكريم وسيرة إبراهيم
- القرآن الكريم وشهر رمضان
- القرآن الكريم والتفكير
- القرآن الكريم والمجتمع
- القرآن الكريم واللغة العربية

بحوث العدد الثامن

- القرآن الكريم وأهل البيت
- القرآن الكريم وبنات شعيب
- القرآن الكريم والروح
- القرآن الكريم والسعادة
- القرآن الكريم والقرن الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله دائماً وبغير إنقطاع ، ومع كل نبضة قلب .

ومرة أخرى .. هى الثامنة فى حساب العدد ، وبعد تسع سنوات بحساب الزمن — نلتقى كما شاء الله .. وبفضل من الله .. مع القارئ الكريم ، لنقدم له من ثمرات جهد هذا العام — هذا القدر الجديد ، والصحيح إن شاء الله ، من أبحاث الثقافة الإسلامية المستنيرة بكتاب الله ، وسنة رسول الله .. إننا نقدم هذه الأبحاث التى يكتبها لكتبنا « مع القرآن الكريم » صفوة من علماء المسلمين ، فى بلادنا الخصبة بعطاء الله لها ، أرضاً وسماء ، وفكراً .. هؤلاء العلماء الذين هم فى الحقيقة — على قلتهم — أكثر فى تخصصاتهم علماً وصدقاً ، وأصدق فى تدبرهم لكتاب الله بصيرة واجتهاداً ..

وبحوثنا المشرقة بحقائقها فى هذا العدد تشمل البحوث الآتية :

القرآن الكريم وأهل البيت .

القرآن الكريم وبنات شعيب .

القرآن الكريم والروح .

القرآن الكريم والسعادة .

القرآن الكريم والقرن الخامس عشر .

• فى بحوث القسم الأول يتحدث الدكتور السيد رزق الطويل رئيس جماعة دعوة الحق الإسلامية ، و المدرس بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة الأزهر عن نعمة الله التى اختص بها قريشاً وهو يصطفيها — بعد دعاء إبراهيم وإسماعيل — ليكون محمد خاتم النبيين من صفوتها ، ولتكون هى الأسبق بين قبائل العرب إلى تقبل دعوة الرسول الكريم إلى الإسلام ، و إلى صدق الجهاد معه فى سبيل الله .

إن الكاتب الإسلامى يوضح فيما يقدمه ببحوث هذا القسم عن « أهل البيت » هذه العلاقة الوثيقة بين رسالة إبراهيم عليه السلام ورسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم .. ثم يتناول البحث فى نسب الرسول الكريم فى قريش ، التى تهيأت بفضل الله قبل بعثته لتقيم بجوار الكعبة ، حيث تنتهى إليها قيادة القبائل العربية من هذا المقام الكريم ، وحيث أخذت خبراتها تتضاعف ، ولغتها تسمو ببيانها وترتقى ، حتى كانت بعثته عليه الصلاة والسلام ، وأهبة قريش لمناصرته ، بعد عناد من بعض شيوخها لم يستغرق غير سنوات معدودة .. وبعدها دخل الجميع فى دين الله أفواجاً . .

وبعد أن يتناول الكاتب بالكثير من الشرح سبق قريش إلى الإسلام ، فى ضوء هذا الحوار القرآنى المباشر معها ، يتحدث بوضوح كبير عما وراء حكمة الله من أن الذين اصطفاهم من أنبيائه منذ آدم إلى محمد ، عليهم الصلاة والسلام — كانوا « ذرية بعضها من بعض » .. شارحاً فى ضوء هذه الحكمة هذه الرابطة المتكاملة بين هؤلاء الرسل

الصادقين من « قربى النسب الطاهر » ومن « رابطة الدين الحق » ..
ثم ينتهى به هذا الشرح إلى بيان المعنى اللغوى ، والدينى ، فى أن إبراهيم عليه السلام هو وجميع أهله كانوا من « أهل البيت » وذلك فى قوله تعالى على لسان الملائكة إلى زوجته السيدة أم إسحاق : « قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » ..
ثم يخلص الكاتب من هذا إلى إيضاح معنى كلمة « أهل البيت » فى القرآن الكريم ، وأنها تشمل جميع من كانوا ينتمون من قريش إلى مكة بجوار «بيت الله » حتى بعد هجرتهم ، وإقامتهم للجهاد مع رسول الله فى بناء المجتمع الإسلامى من مركزه الذى استقر فيه الرسول الكريم بعد الهجرة أى فى المدينة ..

* وفى بحوث القسم الثانى ، وهو عن « بنات شعيب » يقدم لنا فضيلة الدكتور الشيخ عبد الرحمن النجار مدير عام إدارة المساجد بوزارة الأوقاف ، هذه الدراسة الجديدة والصحيحة حول هذه الحكمة التى من أجلها قضى الله بخروج موسى من مصر شرقاً باتجاه مدين فى شمال الحجاز . وهو بهذه الدراسة التى يقدم حجتها وبرهانها من القرآن الكريم يزيل هذا اللبس الوارد فى أكثر كتب التفسير حول توهم لقاء موسى بشعيب فى هذه الرحلة التاريخية ، وحول الزعم القائل بزواج موسى من إحدى بنات شعيب ، بينما الحقيقة أن الزمن متباعد كثيراً بين موسى وشعيب ، وأن موسى لم يتزوج إلا من ابنة الرجل الصالح الشيخ الكبير الذى التقى به فى مدين ..

وهنا نسجل ما ورد فى كتـــاب « فى ظلال القرآن » للمرحوم الشيخ سيد قطب ملاحظة هامة للكاتب الكبير حول تفسيره للآية رقم ٢٦ وما بعدها من سورة القصص . هذه الملاحظة الهامة فى صفحة ٢٦٨٧ المجلد الخامس من كتاب « فى ظلال القرآن » فى هامش الصفحة :

« سبق أن قلت مرة فى الظلال : إن هذا الرجل هو شعيب ، وقلت مرة : إنه قد يكون النبى شعيباً أولا يكون .. وأنا الآن أميل إلى ترجيح أنه ليس هو ، وإنما هو شيخ آخر من مدين ، والذى يحمل على هذا الترجيح أن هذا الرجل شيخ كبير وشعيب شهد مهلك قومه ، المكذبين له ، ولم يبق معه إلا المؤمنون به . فلو كان هو شعيب –النبى– بين بقية قومه المؤمنين ، ما سقوا قبل بنتى نبيهم الشيخ الكبير . فليس هذا سلوك قوم مؤمنين ، ولا معاملتهم لنبيهم وبناته من أول جيل !

كذلك فإن فضيلة الكاتب الإسلامى الدكتور عبدالرحمن النجار لا يفوته أن يقدم زاداً حقيقياً من الثقافة الدينية التاريخية ، فى دراسته هذه ، بينما هو يتناول القصة من أولها فى رحلة موسى إلى مدين ، متحدثاً عن همومه ، وعن استجابات الله لدعائه ، ثم عن هذا المقام الكريم الذى بلغه موسى . فى رحلة عودته بأهله من مدين إلى مصر – عندما أوحى الله إليه قبل خروجه من مدين ، وعند شاطئ الوادى الأيمن على مقربة من الطور ، وقد ناداه ليسمع لكلامه من وراء الغيب ، فيبعث به رسولا منه إلى فرعون ، ليؤدى إليه بنى إسرائيل ، وليحررهم بالخروج من مصر من فرعون وعذابه.. وهذا ما تم على يد موسى من نعمة الله على بنى إسرائيل .

يضاف إلى هذا أن القرآن لم يذكر شيئاً عن تعليمه لموسى صهره ، ولو كان شعيب النبي هو صهره لكان ذكره فى القرآن محققاً .

وورد فى تفسير ابن كثير لنفس الآية رقم ٢٦ من سورة القصص وما بعدها الآتى عن الشيخ الكبير صهر موسى :

« وقال آخرون بل كان ابن أخي شعيب وقيل إنه رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه : (وما قوم لوط منكم ببعيد) . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل إن شعيباً عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح سنده .

* وفى بحوث القسم الثالث وهو عن « الروح » يقدم لنا الكاتب الإسلامي الأستاذ أحمد موسى سالم – كما تعودنا منه – هذه الدراسة الأولى فى مجال الثقافة الإسلامية السائدة حول النفس والروح ، بعد أن اختلط معناهما فى كتب التراث ، وعلى ألسنة المعاصرين من بعض علماء الدين والمثقفين ، لكي يؤكد فى ضوء القرآن الكريم وبالبرهان العلمي ، وأدلة الواقع ، كيف أن « الروح » من أمر الله الذى كان منه هذه الحياة التى قضاها فى الإنسان بقوله تعالى : « كن فيكون » .. وأن هذا

الأمر بالخلق لم يقع به أى ازدواج فى بناء الإنسان بين الروح والنفس ، ذلك أن الله خلق الإنسان « من نفس واحدة » . . وأنه جعل التكليف بطاعته لهذه « النفس » المحركة لبدنه ، والتى ألهمها سبحانه طريق الخير والشر فى قوله تعالى عنها وحدها : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » ..

فى هذه الدراسة الجديدة ، والمحددة ، تناول الكاتب بالإيضاح جذور هذا اللبس الذى اعترى المفهوم السائد عن هذا « الازدواج » بتصور وجود « روح ونفس » معاً فى جسم الإنسان ، وقد رد جذور هذا الوهم إلى تسرب الكثير من الفكر الهندى ، الذى تسرب بدوره إلى الفكر الأوروبى — حاملا إلى المتأثرين بهذا الفكر من المسلمين صورة من معتقدات « البراهمة » الهنود ، الذين يرون إلى اليوم أن إلاههم « برهمن » أو « الروح الأعلى » قد حل فى أجسام جميع الكائنات ، حتى الحشرات السامة ، ولذلك وجب عندهم الامتناع عن قتلها .. !! . . فهل تطبيق هذا المفهوم الهندى الوثنى على مفهوم « النفس » ودلالتها فى القرآن الكريم .. جائز ؟ !

وكذلك يمضى الكاتب الإسلامى فى دراسته الفاصلة هذه فيتناول بالشرح تفنيد بدعة « تحضير الأرواح » .. متحدثاً أيضاً عن دوافعها .. ومقدماً بالبرهان العلمى ، والحسى ، فى واقعنا المشهود ، حجته على أن هذا التحضير المزعوم لأرواح الموتى — ليس إلا نوعاً من التجارة ، أو اللهو ، أو العزاء لبعض المرضى ، والثكالى ، والضائعين .. !!

• وأما بحوث القسم الرابع وهو عن « السعادة » فيقدم لنا فيه الدكتور عبد الفتاح محمد عثمان المدرس بقسم البلاغة بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ــ هذه الدراسة عن السعادة بمفهومها الصحيح فى كتاب الله .. فالسعادة .. ونقيضها من الشقاء .. لم يردا فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة ، للإشارة إلى ما كان من نصيب أهل الجنة ، الذين أطاعوا الله واتقوه فى الدنيا فاستحقوا هذه السعادة .. وإلى ما كان من نصيب من عصوه وشاقوه فى الدنيا ، من هذا الشقاء فى الآخرة ..

فى مجال هذه الدراسة الفاصلة فى معنى السعادة بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ترتبط حقيقة السعادة بمعناها فى القرآن الكريم ــ بهذا الفوز برضى الله فى أعمال الدنيا ، وبهذا الإخلاص الذى يوفق الله إليه المؤمنين فى عبورهم مشقات هذا الابتلاء فى دنياهم ، مستمسكين بطريق الله الحق ، ومعتصمين بحبله المتين .. هذا الاستمساك بالهدى ، والاعتصام بالحق ، اللذين جعلهما الله فى طاقة عباده الصالحين ، وهو ينعم عليهم بالأمن والسكينة ، وبالصبر والإخلاص ، وبالرضى والاستبشار ، على هذا الطريق الرحب ، والمشرق ، والممتد بالحق واليقين نحو سعادة الآخرة .. أى نحو الجنة التى وعد الله المتقين .. خالدين فيها إلى ما شاء الله .. ورضوان الله فيها أكبر .

وأخيراً نصل إلى بحوث القسم الخامس ، وهو « القرآن الكريم والقرن الخامس عشر » وفيه نلتقى مرة أخرى بالكاتب الإسلامى الأستاذ

أحمد موسى سالم ، حيث يقدم لنا اجتهاده فى الجواب الصحيح ، والمناسب لصحوة المسلمين الإسلامية بهذه المناسبة الجليلة ، على الوجه التالى :

إنه أولا يعرض علينا هذا الاختيار الراشد للكثير من وجوه الاحتفال الهادف ، كما ينبغى أن يجمع عليه جميع المسلمين فى الوطن العربى ، والعالم الإسلامى . ومن ذلك هذا الهدف الذى يتأصل به السلام الواجب بين جميع المنتمين إلى الإسلام ، وهو « التقريب الجاد والممكن بين المسلمين بشتى مذاهبهم » .. أى التقريب على مفهوم التآخى حول ما لا خلاف عليه بينهم من مصادر الإسلام وأركانه .. ومنها أيضاً : « المبادرة بتطبيق الشريعة الإسلامية » ومنها تحقيق « الأمن الدينى » للأجيال بإعادة التعريف بحقائق الإسلام فى مقومات عقيدته ، وفضائل أخلاقه ، سواء فى حياة الأسرة أو فى مناهج وبرامج التربية والتعليم ، أو فى أهداف وقوانين المجتمع .. هذا فضلا عن « المسابقات التذكارية » ثم محاولة التعريف بهذا الدين الحق خارج نطاق الدائرة التى يعيش فيها ويتحرك بداخلها المسلمون ..

وهو ثانياً يتحدث بالبيان الكافى عن هذا الواجب الذى أشار إليه ، الذى يلازم حياة المسلمين بجماعاتهم وأفرادهم ، ويعنى به واجب قيام المسلمين فى هذا العصر بجهد ظاهر للتعريف بالإسلام الحق ، متوسعين فى مجال هذا التعريف ليشملوا به — بالكتب والدعاة ووسائل الإعلام الأخرى — مواطن التأثير فى أوروبا وأمريكا ، وبخاصة بعد أن تزايد

نشاط التيارات الإلحادية فى حركة المذاهب الشيوعية ، والعنصرية ، والعلمانية .. ومع توفر مجالات هذا النشاط الإعلامى عن الإسلام الحق ، وعن صحوة المسلمين العلمية والحضارية به فى هذا العصر — بهذا العدد الكبير من المسلمين ذوى النشاط الدينى ، والعلمى ، والصناعى ، داخل أوروبا وأمريكا فى العصر الحاضر .. ومع توفر الظروف الملائمة بين جميع الأطراف لهذا التعريف الأمين ، والمثمر .. لجميع الأطراف ..

وهو ثالثاً .. وبعد هذا البيان عن المبادرة بالتعريف بهذا الدين الحق ، الذى حافظ المسلمون على اعتناقه ، واجتهدوا رغم غفواتهم المتعددة فى مواصلة الصحوة به ، والالتزام بغاياته — يقدم لنا الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم مثالا من أمثلة المخاطبة المؤثرة على فكر ومشاعر الأوروبيين ، بامتدادهم فى أوروبا حتى الساحل الغربى لأمريكا .. وهذا فى رسالة يكتبها بعنوان عام إلى « الأوروبى المعاصر » كما يجدها القارئ فى خاتمة أبحاث ودراسات هذا الجزء الثامن .. أملا فى تحقيق هذا « التواصل الإنسانى والحضارى » بين المسلمين ومواطنى العالم المتقدم .. وبالاتجاه مع هذا الأمل إلى تحقيق هذا القدر اللازم من « الوفاق المنشود » بين الأوروبيين والمسلمين ، حول صورة جلية ومشرقة لهذا الإسلام الحق ، الذى عرف به المسلمون فى حضارتهم الطويلة المدى ، والتى لا ينساها ولا يجهل آثارها جميع الأوروبيين .. عرفوا به « حقوق الإنسان » التى تعاملوا بها مع جميع الشعوب ، وجميع الأقليات .. وعرفوا « المنهج العلمى » الذى نقلوه

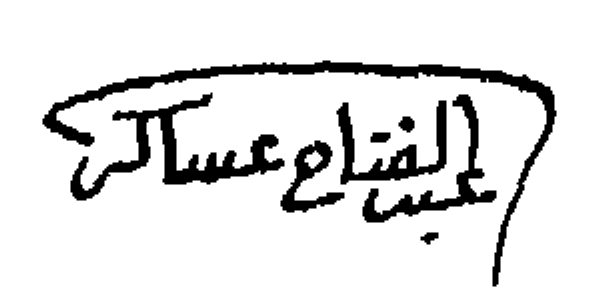
إلى أوروبا لكى تقيم عليه نهضتها بعد ظلام العصور الوسطى .. وعرفوا كذلك نعمة السلام العادل ، الذى مارسوا بسببه فضائل الصفح ، ومواجهة السيئة بالحسنة ، وإيثار العطاء والموادعة ، ما لم يكن هناك ظلم أو عدوان لا يستقر معهما هذا السلام العادل المنشود ..

وهكذا تمضى هذه الرسالة النموذجية ، من اجتهاد الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم ، وهى تتوجه على الكثير من مساحات التاريخ ، والثقافة ، والفكر ، إلى هذا الإنسان العام فى أوروبا .. الإنسان المتقبل فى هذه الأيام أكثر من غيره لأن يقرأ بعقل مفتوح مثل هذه الرسالة « إلى الإنسان الأوروبى المعاصر عن جوهر ومستقبل الإسلام » ..

ثم اكتفى بهذا القدر من التعريف بهذا العدد الثامن ، وبما اجتمع فى أقسامه ، وبحوثه ، وصفحاته ، من هذه الإضافات الحقيقية والمشرقة فى مجال الثقافة الدينية المستنيرة ، من مصادرها الدائمة الإشراق فى كتاب الله ، وسنة رسول الله ، ونعمة العقل الذى هو على طريق العلم والإيمان أعظم نعم الله ، وأفضل عطاياه ..

إننى أكتفى بذلك .. وأنا أشهد الله تعالى أننا قد ابتغينا وجه الله الكريم فى كل ما بذلناه من الجهد ، وما اعتصمنا به من الصدق ، وما حرصنا عليه فى كل ما أصدرناه من هذه الكتب « مع القرآن الكريم » من « أمانة الاجتهاد » فى كل ما كتبه العلماء المخلصون المجتهدون .. وعلى الله قصد السبيل .. وإليه يرجع الأمر كله .. والحمد لله رب العالمين .

القاهرة فى رمضان ١٤٠٠ هـ
١٤ يوليو ١٩٨٠ م



بحوث القمم الأول

القرآن الكريم وأهل البيت

يجيب عنه :

الدكتور السيد رزق الطويل

رئيس جماعة دعوة الحق الإسلامية
والمدرس بجامعة الأزهر



يصدرها
المركز الثقافي
المقاولون العرب

السؤال الأول :

بعث الله سبحانه وتعالى خاتم النبيين محمداً عليه الصلاة والسلام من قريش وقد ظلت الدعوة موجهة إليها فى مكة ، وعند بيت الله بالطريق المباشر فى جهاد النبي ووحى القرآن حتى إذا ما أسلمت قريش بعد الفتح ، دخل العرب بعدها فى الإسلام جميعاً .

* يقول الله تعالى عن قريش ، وعن نعمته الموجبة لإسلامها :

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ». (سورة قريش)

* لماذا اختص الله قريشاً بفضل اصطفاء خاتم النبيين من صفوتها ، وتوجيه الدعوة إلى إخلاص الإسلام إلى الله بالطريق المباشر فى جهاد النبي ، ووحى القرآن إليها ؟

الإجـــابة :

نقدم للإجابة بالحديث عن رسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، وجذورها التاريخية فنقول :

لقد سبق اصطفاء النبي محمد عليه الصلاة والسلام للرسالة الخاتمة هذا الاصطفاء للأمة العربية التى خرج منها . وكل الأحداث التاريخية التى وقعت فى مسيرة الدعوة الإسلامية من قديم كانت مهيئة لظهور الرسالة الخاتمة ، ورسولها المصطفى ، بدءاً من هجرة إبراهيم عليه السلام ، ثم قيامه

ـ كما أوحى الله له ـ ببناء الكعبة مع إبنه اسماعيل ، ثم تحرك قبائل عربية من الجنوب للاقامة حول البيت ، فظهر ذلك بجلاء فى دعوة إبراهيم وهو يبنى البيت ؛ وقال كما قص لنا القرآن الكريم :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِم رَسُولًا مِنْهُمْ ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(البقرة : ١٢٩)

وهذا يؤكد أن الرسالة الخاتمة مهد لها إبراهيم عليه السلام ، وهيأ الأفئدة لتكون مستعدة لاستقبالها ؛ إذ بها يتم تقويم مسيرة العرب على طريق الإسلام . يقول تبارك وتعالى :

« ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين » .

(النحل : ١٢٣)

وبهذا تكشف لنا الآية عن علاقة وثيقة بين رسالة إبراهيم عليه السلام ، ورسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

وقد حسد اليهود العرب على هذا الانتساب الصريح لإبراهيم ، ومضوا يزعمون أن إبراهيم لهم وحدهم ، فكشف القرآن الكريم وجه الحق فى الأمر وقال :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ، ولٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ

اتَّبَعُوه ، وَهَذَا النَّبِيُّ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِين » .

(آل عمران : ٦٧ ، ٦٨)

فحسمت القضية ، وواجهت الآية العرب ، معلمة إياهم بأنهم وقد تبعوا النبي محمداً عليه الصلاة والسلام ، فقد صاروا أولى الناس بالانتساب لإبراهيم عليه السلام .

كما يؤكد هذا الارتباط صيغة التشهد الأخير فى الصلاة إذ نجمع بين محمد وإبراهيم فى قولنا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . . . . » .

ولقد أكد القرآن الكريم هذا النسب بين الرسالتين : رسالة الأب والحفيد بوضوح لا لبس فيه ؟ إذ يقول تعالى :

« وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَج ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيم ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِين مِنْ قَبْلُ وَفِى هَذَا » . (الحج : ٧٨)

قريش والرسالة الخاتمة :

بعد هذه المقدمة نأتى إلى قريش لنقول إن أصلهم من العرب المستعربة ، أى من ولد إسماعيل من إبراهيم عليه السلام ، ويبدأ نسبهم إلى أبناء إسماعيل من فهر ، بن مالك ، بن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ابن إلياس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان .

أما فهر الذى هو رأس قريش ، فقد ولد له غالب ، وقد ولد لغالب لؤى ، وولد للؤى كعب ، وولد لكعب مرة ، وولد لمرة كلاب ، وولد لكلاب قصى ، الذى استقر بأبنائه عبد مناف ، وعبد العزى وعبد الدار بمكة بعد أن نجح فى إجلاء بقية خزاعة عن الاستقرار بها ، وكان ذلك سنة ٤٠٠م ، حيث بزغ من قصى نجم قريش بجوار بيت الله، وحيث فى حكمة الله زاد نشاطها فى التجارة لحسابها ، وفى حمل التجارة ، وحماية قوافلها على خطوطها العالمية بين الشام واليمن ، عبر صحراء الحجاز ، وفى ظلال رعايتها ، والذكر الحسن لشيوخها باتساع الجزيرة العربية عبر وفود الحجيج إلى بيت الله من كل صوب ، فكان من فضل الله عليهم بكل ذلك ما أعدهم لمجد الدهر ؛ إذ يكون منهم الرسول المصطفى لخاتمة الرسالات ، وأبقاها أثراً ، وأكثرها شروقاً فى الأرض ، استجابة للدعاء الذى تردد عند بيت الله بلسان إبراهيم وإسماعيل «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ » . (البقرة : ١٢٩)

لقد بدأت هذه الاستجابة بظهور خير الرسل من صفوة قومه ، وسبقتها بشائر تؤذن بشروقها ، ممثلة فيما حققه قصى بتمكين قريش وهم من ولد اسماعيل من مفاتيح الكعبة ، ومن الاستقرار فى جوار بيت الله ، ومثابة الحج والأمن ، وذلك بعد أن استرد أمر مكة ، والإمارة عليها من خزاعة ، فأتيح لقريش أن تتحرك للتجارة ، وأن تنطلق قوافلها صيفاً إلى الشام ، وشتاء إلى اليمن ، كما أصبح لها فى رعاية البيت من مناصب الشرف هذه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، كما

تقسمت بعد ذلك فى أبناء قصى وحفدته من بنى عبد مناف وبنى هاشم .

نسب الرسول فى قريش:

وإذا كان الله تعالى قد اصطفى قريشاً من بنى مالك بن النضر بن كنانة ، فإنه قد اصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى محمداً من بنى هاشم ، حيث تلقى القرآن الكريم من لدن حكيم خبير .

ونسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى فهر أخذ هذا المسار فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصى ، ابن كلاب ، بن مرة ، بن كعب ، ابن لؤى ، بن غالب ، بن فهر .

ولو نظرت إلى هؤلاء الآباء لوجدتهم جميعاً كراماً ، قد بذوا إخوانهم من آبائهم فضلا ومكانة ، وسبقاً إلى معالى الأمور ، فما من أحد منهم إلا وله مكرمة ، أو مأثرة على امتداد تاريخ قريش العريق .

فقصى هو الذى أسس دار الندوة ؛ لتكون منتدى القوم ، يتشاورون فيها ، ويتبادلون الرأى فيما يعرض لهم من أحداث .

وكان بنو عبد مناف أصحاب طموح ، وسعى ، وحركة دائبة ، لايقعدون فى ديارهم ، فكانوا دائماً على سفر ، ومات أكثرهم فى غير بلده ، فمات هاشم بغزة بالشام ، ومات المطلب بالقرب من أرض اليمن ، ومات نوفل بسلمان بالعراق .

وكان بنو هاشم أصحاب رئاسة ، عرفوا بالبذل والكرم ، والهمة ، والوفاء ، وكان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة ، فبذل طعامه لكل نازل

بمكة ، أو وارد عليها ،وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ، ودعوته الجياع إلى قصاعه المشبعة ثريداً ولحما ، قال الشاعر :

عَمْرو! الذى هَشَم الثَّرِيد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتُون عجاف

وكان هاشم فيما يخبرون عنه أول من سن الرحلتين لقريش فى الشتاء والصيف ، وكان اسمه عمراً ، وما سمى هاشماً إلا بهشمه الثريد لحجاج البيت .

وتولى عبد المطلب بن هاشم الرفادة ، والسقاية بعد موت عمه المطلب بأرض اليمن ، وسار فى قومه سيرة حسنة ، فأحبه قومه ، وعلت منزلته فيهم.وهو الذى حفر زمزم ، وتصدى لعدوان أبرهة ، الذى لم يلبث حين رآه أن قام من مجلسه ، ورحب به ، وأفسح له ، إجلالا لمكانته ، وتأثراً بهيبته .

هكذا عرفنا وضع قريش ، ومكانتها الكريمة بين العرب ، وما لها من نسب عريق ، كما تبينت لنا منزلة النبى محمد صلى الله عليه وسلم فيهم، ونسبه النقى بينهم ، وأنه كما شاء الله له قد تنقل بين الأصلاب النقية ، والأرحام الطاهرة من قومه حتى كان مولده عام الفيل ، ثم مضى فى تتبع عوامل الاصطفاء لقريش بين العرب ، ولرسول الله من قريش .

قريش والكعبة :

كان بناء الكعبة فى واد غير ذى زرع من أرض الحجاز بيد إبراهيم عليه السلام ، وابنه اسماعيل هو اللبنة الأولى لقيام مكة المشرقة ، ولبناء الأمة العربية المسلمة التى تعمر البيت ، وتستمسك بالمبادىء التى أنشىء

لأجلها ، وفى هذا يقول ربنا تبارك وتعالى وهو يعهد لإبراهيم وإسماعيل بقوله :

« وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » (البقرة : ١٢٥)

لقد تجمع العرب حول البيت ، وأول من جاء منهم جرهم ، المهاجرون من اليمن ، وكانوا أصهار إسماعيل ، فتولوا أمر البيت ، ولم ينازعهم ولد إسماعيل لخؤولتهم ، وقرابتهم .

وأفسدت جرهم ، وأساءت ، وأكلت مال الكعبة ، فانبرى لهم بنو بكر بن عبد مناف ، ابن كنانه ، فأخرجوهم ، ونفوهم من مكة ، وكانت مكة قبل الإسلام ، لا تقر فيها ظلماً ، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته ، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه* .

ثم استأثرت خزاعة بالبيت ، وليسوا من ولد اسماعيل . وعمرو بن لحى الخزاعى منهم هو المسئول عن دخول الأصنام حول البيت .

وكان القرشيون إذ ذاك متفرقين فى قومهم من بنى كنانة حتى جاء قصى بن كلاب ، وكان ذا مجد وشرف كما أسلفنا ، فجمع بطون قريش ، واسترد البيت الذى أصبح فى رعاية هؤلاء الخلص من أبناء إسماعيل .

وأخذت قريش من جوار البيت تقود قبائل الجزيرة العربية ، وتمسك

(*) سيرة ابن هشام ج ١ .

بزمام التوجيه فيها ، وهي تتحرك بقوافلها التجارية إلى الشمال وإلى الجنوب ، تذرع الجزيرة جيئة وذهاباً ، بينما تأتي إليهم وفود العرب في موسم الحج ، فتجد منهم العون والرعاية ، حيث كانت بيوتهم من حولها ، ومجالسهم في ظلها .

لقد كانت منزلة قريش بين قبائل العرب في قلب كل عربي ولسانه ، وليس أدل على هذا من موقف أبي بكر رضي الله عنه من القوم المتنازعين في سقيفة بني ساعدة ، حول اختيار الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد تحدث الأنصار (الأوس والخزرج) ، فقالوا ما يفيد أنهم أصحاب الحق ، ولكنهم عندما يسمعون أبا بكر رضي الله عنه ، يقول : « لاتدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء » نجدهم عندئذ يقرونه على قوله ، ويبايعونه .

إن وجود قريش حول الكعبة ، وارتباطهم بها ، وتعهدهم أمر الحجيج ورعايتهم ، على نحو ما رأينا في تاريخ أجداد الرسول عليه الصلاة والسلام ، كل ذلك كان بمثابة إعداد ، وتهيئة لهذه القبيلة المصطفاة من بين ولد إسماعيل ، لأن يخرج المصطفى من أصلابهم ، وهو الرسول الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام .

خبرات قريش :

وقد تميزت قريش من بين سائر العرب بخبرات لم تتوافر في غيرهم ، فأكثر القبائل العربية كانت تسود بينهم حرفة الرعي ، أو الصيد ،

ومنهم من اتخذ منهج الصعلكة ، وهى حركة احتجاج مسلح تهدف إلى أخذ الأموال من الأغنياء البخلاء بالقوة ، لتوزيعها على الفقراء . أما قريش وهم أهل أمن ، وحراس الأمن حول البيت ، فقد آثروا التجارة وأمنوا طريقها ، كما وفرت لهم القبائل هذا الأمن . ، بجانب أنهم أهل الأمن ؛ إذ ألفوا ألا يروعوا فى جوار البيت طيرا ، ولا يقتلعوا شجراً ، وكانت لهم بجانب هذا أعمال قنص وصيد ، رياضة لذوى اليسار منهم ، كما كان منهم من يرعى الغنم .

هذه التجارة العالمية أمدتهم بخبرات لم تتح لغيرهم من العرب ، فركبوا البحر ، وخبروه ، أى أنهم عرفوا سفينة الماء ، كما عرفوا سفينة الصحراء ، وكانوا على دراية تامة بالشعوب المجاورة ، كأهل الشام ، وأهل مصر ، وأهل العراق ، وأهل اليمن .

ولأجل هذا عندما قادوا حركة الدعوة الإسلامية تحركوا عن خبرة ، وتصرفوا عن بصيرة . فاتجه سعد بن أبى وقاص لتحرير أرض العراق من حكم كسرى عن دراية ، كما قاد أبو عبيدة عامر ابن الجراح ، وخالد بن الوليد حرب الروم بالشام عن معرفة ، وكما كانت خبرة عمرو بن العاص بالمصريين ، وبمعالم مصر جعلته يلح على عمر بن الخطاب فى تحرير مصر من الروم ، ولم يزل به حتى أذن له .

إن صلة قريش بالبيت ، وكونهم أهله ، وتنافسهم فى خدمته يسر

لهم خبرات كثيرة وكانوا بهذه وتلك أحق مجتمع لاستنبات البذور الطيبة للرسالة الخاتمة * .

أخلاق قريش :

كانت الحياة العربية قبل ظهور الإسلام حافلة بالكثير من الأخلاق الحسنة ، والسجايا النبيلة ، عرفوها من صلتهم الوثيقة بالحنيفية ملة إبراهيم ، ومن طبيعة الصحراء وحيـاة البادية ، وبساطة العيش ، ووضوح الآيات أمام الأعين البصيرة فى السموات وفى الأرض .

وقد تميزت قريش بأخلاق كريمة عرفت بها ، كما برئت من هنات خلقية ، ظهرت فى غيرها من القبائل .

فبجانب ما عرف عنهم من رفادة ، وسقاية ، وشجاعة نادرة ، واعتزاز بأنفسهم فقد ظهر فيهم وفاء عظيم ، يحركه وازع كريم ، ولا أدل على ذلك من موقف عبد المطلب الذى سبق له أن نذر أن يذبح العاشر من أبنائه إذا مارزقه الله بعشرة بنين ، وكان ذلك فى وقت أحس فيه أن قومه تكاثروا عليه ، فلما أن رزقه الله بما

(*) لم نشأ أن نتوسع هنا فى ذكر ما للعرب ولقريش من علوم ، ومعارف شتى قبل الاسلام ، مثل الطب والفلك ، والنجوم ، ومثـل الفراسة ، والقيافة ، وخصائص الارض ، وجغرافيا الجو ، وطبـاع الحيوان ، ونباتات الصحراء ، ونحو هذا ، لأن له مجالا آخر ، ونحن نذكر ما نذكر هنا لمجرد الاستشهاد على أن قريشـا ، كانت مؤهلة لاصطفاء الله لها لتلقى رسالة الاسلام الأخيرة .

طلب أقدم على الوفاء بنذره ، وكأنه يسير فى هذا سيرة جده إبراهيم ، ولكنه بمشورة حكماء القوم قبل أن يتحول النذر إلى مائة من الإبل ، كما تضاف هنا لعبد المطلب مكرمة جديدة ، وهى سنة الدية بين العرب التى أصبحت مائة من الإبل عن القتل الخطأ ، أو عند العفو من أولياء الدم .

والعفة عن الحرام صفة برزت فى قريش ، ونذكر من ذلك ما سجله التاريخ من مكارمهم ، وذلك عندما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة ، وإعادة بنائها ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت ، فأخذوا خشبها ، وأعدوه لتسقيف الكعبة. وكان بمكة رجل قبطى نجار ، فأعد لهم شيئاً من خشب السفينة ؛ ليستعينوا به فى ذلك ، فقام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد ، ابن عمران من بنى مخزوم فقال : « يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيه من مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس » (*)

إلى هذا المدى الذى صورته عبارة أبى وهب بن عمرو كانت عفة قريش ، وتنزهها عن الحرام ، فتأبى إدخاله فى تعمير البيت الطاهر ، الذى هم أهله ، وأحرص الناس عليه ، وأحفظهم له .

وكانوا يرفضون أن يظلموا كما يرفضون أن يظلموا ، أو أن يحل الظلم على غيرهم .

(*) سيرة ابن هشام ج ١ .

وتحدثنا كتب السيرة عن اجتماع بطون قريش فى بيت عبد الله بن جدعان حيث عقدوا « حلف الفضول » لنصرة المظلوم ، وللوقوف فى وجه الباغى ؛ إذ أنه مما يروع السلام أن يظلم أحد فى الحرم الآمن أو فى جواره ، وقد شهد محمد بن عبد الله هذا الحلف فى مطلع شبابه، وقال عنه صلى الله عليه وسلم « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » .

وتنفيذاً لهذا الحلف قامت حرب الفجـار بكسر الفاء ، وفتح الجيم ، بين قريش ، ومن معهم من كنانة ، ضد قيس عيلان لفجورهم وبغيهم ، وقد شهدها النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره ، مشاركاً أعمامه ؛ إذ يقول : « كنت أنبل لأعمامى أى يناولهم النبال » ..

ولعل هذا الإباء فيهم لكل بغى هو الذى دفع بعضهم إلى التصدى لعمرو بن هشام (أبو جهل) والإصرار على تمزيق صحيفة المقاطعة للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه حين رأوا ظلماً واضحاً ، يقع على بنى أبيهم من بنى هاشم دون جريرة .

وكأن قريشاً قد تقاسمت الفضائل ، فاختص كل بطن بفضيلة ، واجتمع فيهم ما تفرق بين العرب ، بل أربوا عليها بما أسلفنا .

فإذا أخذ بنو هاشم السقاية ، والرفادة ، وأخذ بنو أمية اللواء ، وأخذ بنو عبد الدار الحجابة ، وأخذ بنو تيم العلم بالأنساب ، وأخذ

بنو عدى السفارة ، فإنهم بجانب هذا — كما قلنا فى غير هذا الموضع — برئوا من هنات تورطت فيها قبائل العرب الأخرى .

لسان قريش :

من أهم ما تميزت به قريش عن سائر العرب لغتها الفصحى ، ولسانها القويم ، وهو فى حكمة الله محك اصطفائها للرسالة ، ولأن ينزل القرآن الكريم بلسانها ، وليس هذا أمر عفوياً ؛ لأن القرآن الكريم وهو الآية الكبرى بلسانه وبيانه ، ومعانيه ، والذى سيظل كذلك إلى أن تقوم الساعة . لابد أن يعد له — بتقدير العزيز العليم — هذا اللسان الذى يسعه ، ويستوعب أخباره ، وأن يستبين ما فيه من حكمة وأحكام .

وكان ذلك اللسان المصطفى هو لسان قريش ، الذى أتيح له فى مواسم الحج أن يظهر ، وأن يمتزج بألسنة القبائل الأخرى فى هذه المواسم ، وفى الأسواق التى كان لها الأثر الفعال فى ترقية الفصحى ، إذ لم تكن مجرد ميادين للبيع والشراء ، والمقايضة ، وإنما كانت بجانب ذلك ندوات ومجتمعات أدبية ، يتوافد إليها الشعراء من جميع القبائل بأحسن ماقالوا من شعر ، على أمل أن يحظوا بالجائزة التى كان يحكم بها أمثال النابغة الذبيانى قاضى الشعراء — للسابقين منهم ، فيكون فى هذا شرف لهم ولقبيلتهم . وفى تلك المسابقات كانت فرصة الفوز أكبر للشاعر الذى يتحرى لسان قريش ، وبذلك كانت القوافل تسير بقصائد الفائزين مسيرة الضحى فى أرجاء الجزيرة ؛ لتصبح من مأثور القبائل ، ومحفوظ الرواة ، ومن المعلقات على الكعبة .

وعندما تمتزج الألسنة يحدث انتخاب واختيار ، وتكون السيادة والظهور لأقوى الألسنة واللهجات والكلمات بيانا ، وأيسرها أداء ، وأبلغها أثرا ، وأجملها إيقاعاً ، وأطوعها لعلم الإنسان وحكمته ، وفطرته .

وهكذا كان أثر لسان قريش ، وكانت سيادته ، بسبب ما أتيح له من فرصة اختيار الأفضل فى موسم الحج ، حيث يلتقى الحجيج حول البيت ، وتقوم أسواق عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز تباعاً فى موسم الحج ابتداء من أول ذى القعدة .

وبمرور السنين على هـذا النحو كان لسان قريش قد تأهل تماماً لتلقى القرآن الكريم ، فاكتسب بذلك حيوية دافقة ، ضمنت له الحياة ما بقى البشر .

الدعوة الإسلامية وقريش :

لهذه الخصائص السابقة اختار الله قريشاً ، واختار من أكرم بيوتها رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام .

* واتجهت الدعوة أول ما اتجهت إلى قريش .
* وكانوا هم محور المواجهة ، والمجادلة مع الوحى .
* وهم أول من كلف بالنظر والسير والتعقل ، والبحث فى التاريخ.
* وهم أول من ألزموا بالآية اللغوية ، والبيانية فى القرآن .
* وهم الذين حذرهم الله من مغبة جحود النعم الكثيرة التى أنعم بها عليهم ، وهو يجتبيهم للدين الحق والرسالة الخاتمة .

ولكن كيف كان هذا ؟

كانت بداية الدعوة تكليفاً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام بالقراءة والعلم ، إذ كانت الآيات الأولى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

(العلق ١ : ٥)

وكانت الآيات التالية تكليفاً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام بالنهوض والاستعداد للدعوة والإنذار . فقال تعالى :

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » (المدثر : ١ ـ ٥)

واتجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى قريش بالدعوة ، فهم عشيرته الأقربون . وأواصر القربى تحتم عليه البر بهم ، ومن أعظم البر الهداية إلى الخير ، وقد قال تبارك وتعالى :

«قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى» .

(الشورى : ٢٣)

وبدأ النبي عليه الصلاة والسلام حسبما تفرضه حكمة الدعوة بعشيرته الأقربين ، وقال لهم فى حكمة وأناة :

« إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ماكذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ..» .

ثم أخذ يدعو أصدقاءه ومن لهم به صلة .

ثم اتسع نطاق الدعوة فى قريش على المستوى الفردى ، والمعرفة الشخصية .

وظل النبى عليه الصلاة والسلام ثلاث سنوات على هذا النحو يدعو ، ويدعو معه من أسلم فى غير جهر أو إعلان . إلى أن أمره الله بالجهر بالدعوة ، وإعلانها ، قائلا له :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » (الحجر : ٩٤)

وهنا قام النبى عليه الصلاة والسلام ، فنادى فى أعلى جبل بمكة قائلا : يا معشر قريش .

فلما اجتمعوا إليه ، وانتبهوا ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا !!

قال : فإنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة .

فسقط فى أيدى كبرائهم أمام إلزام لا يستطيعون الفكاك منه ، وأنقذهم أبو لهب بعبارته الحمقاء : تبا لك ألهذا جمعتنا !! وكان بهذا جديراً أن يكون القرشى الوحيد ، الذى يرد اسمه فى القرآن مقروناً بالوبال والنكال ، فى سورة خاصة به .

وظلت الدعوة الإسلامية تتجه لقريش ، تذكيرا ، وتحذيرا ،



ونصحاً مدة ثلاثة عشر عاما . ثم هاجرت الدعوة والداعى ، وهاجر معها من سارعوا إلى الهداية من قريش .

واستبدت نعرة الجاهلية بأشراف قريش ، يستوى فى ذلك القريب والبعيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المسلمين ، وأعلنوها حربا ، وكانت مساجلات أخذت تندحر فيها جاهلية الأشراف تباعا ، حتى عقدوا صلحاً مع نبيهم الذى شرفوا به ، وأخرجوه من ديارهم .

ثم كان فتح مكة فأسلموا جميعاً ، وعفا أخوهم النبى عن مسيئهم ، وما كان يستطيع أن يفعل غير العفو ، وهم أهله وذوو عشيرته ، اجتمعوا له حول البيت الذى هم أهله ، والذى هو المثابة والأمن بهم ، فلا عجب أن يقول فى هذا الموقف : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » !!

إن غاية ما كان يرجوه الرسول أن تسلم قريش ، وقد أسلمت !!

لقد كان يؤلمه كفرهم ، وبغيهم ، وكان يقول : ويل قريش !! ماذا لو خلوا بينى وبين العرب ، فإن ظهروا على تحقق ما أرادوا ، وإن ظهرت عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ؟!

إنه قول لا يصدر إلا عن قلب ملىء حبا ورحمة . انظر إليه وهو مشفق عليهم أن اختاروا فى مقاومته أسلوباً كان الأفضل لهم غيره ، وهو يرشدهم إلى هذا الأفضل .

وكان إذا اشتد به الحزن لتكذيبهم ينزل عليه القرآن الكريم مواسياً ومعزياً :

«فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ» .

(يس : ٧٦)

ويقول تبارك وتعالى :

«طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى» .

(طه ١ : ٣)

وكأن هذه الآية ، وآيات أخرى من القرآن الكريم تبين له أن مهمته التذكير وليس مسئولا عن الهداية ، فيقول تعالى :

«فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ». (الغاشية : ٢١، ٢٢)

ويقول تعالى :

«إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» .

(القصص : ٥٦)

كما يقول جل شأنه :

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» .

(البقرة : ٢٧٢)

قريش والقرآن :

خاطب القرآن الكريم قريشاً على أساس أنهم أهل اللسان ، فهو يخاطبهم بما هم أقدر على فهمه ، وأنهم أهل البيت فهم أجدر بالحفاظ على ما ارتبط بالبيت من عقيدة صحيحة ، ودين قويم ، وقد أحلهم

الله محلا كريماً بين قومهم العرب ، مما يحملهم مسئولية الشكر والعرفان :

لقد استبد بقريش أول الأمر الغرور ، وظنوا مخطئين أن ما جاء فى القرآن الكريم من توجيهات سامية ، فيه تهديد لمكانتهم :

«وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا» (القصص : ٥٧)

مع أنهم كانوا فى أعماق فطرتهم التى حجبها بغى الجاهلية يرجون كتاباً من عند الله ، يسبقون به غيرهم من الأمم فى الهداية :

«وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا» .

(فاطر : ٤٢)

ومن هنا أقدموا — ظالمين — على الشك فيه ، فقالوا : إنه قول شاعر أو ساحر ، وقالوا : إنه أساطير الأولين .

وفى قسم إلهى حاسم يرد القرآن الكريم على ما لهم من افتراءات بشأن القرآن الكريم فيقول تعالى :

«فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» . (الحاقة : ٣٨ — ٤٣)

وأما توقع رؤسائهم ضياع المجد والعزة لو اتبعوا القرآن الكريم ،

فيرد عليه القرآن بأن الأمن الذى نعموا فى ظله ، أساسه البيت الحرام ، وموروثات الإسلام ، وفى مقدمتها الكعبة البيت الحرام ، فيقول تعالى :

« أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) . (القصص : ٥٧)

ونعمة البيت الذى وفر لقريش ، ولأهل مكة الأمن كانت دائماً محور الخطاب القرآنى لقريش عندما يعاتبهم الله ، أو يذكرهم ، أو يحذرهم ، فهم أهل البيت ، وهم جديرون بأهليتهم له ، وقد تقاسموا بطونا وعشائر شرف خدمته ، والقيام عليه ، فأحرى بهم أن يكونوا أول من يستجيب للقرآن ، ويتبع النبى الكريم الذى اصطفاه الله منهم .

من ذلك قوله تعالى :

«لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ. إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

(سورة قريش)

ويقول الله تعالى :

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ، وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ» ؟ (العنكبوت : ٦٧)

القرآن الكريم واللسان العربى :

كانت أبرز حجة هز بها القرآن الكريم ضمير قريش ، وكفكف بها غلواء المكذبين منهم ، عروبة القرآن الكريم ، فيقول تعالى :

«وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» . (طه : ١١٣)

وهناك آية أخرى تشهد بلسان قريش العربى ، وما فيه من حكمة عسى أن تفيق العقول من تكذيبها ؟ وتثوب إلى الاهتداء بكتاب جاء بلسانها ، فيقول تعالى :

« وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا» . (الرعد : ٣٧)

ويقول تعالى : «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» . (الشعراء : ١٩٥)

كما يقول تعالى : «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ» . (مريم : ٩٧)

كما تسخر الآيات من مقال عجيب ردده بعضهم ، ومقتضاه أن رجلا ما من الأعاجم يمد محمدا عليه الصلاة والسلام بهذا القول الحكيم ، المحكم ، والعجمة لا إبانة فيها ، ولا إحكام لها . يقول تعالى :

«وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ، لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ، قُلْ : هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ» . (فصلت : ٤٤)

ولأنهم واجهوا بالبغى كتاباً محكماً بألسنتهم ، استهوتهم بلاغته ،

وأخذت بألبابهم فصاحته ، لذا وقف القرآن الكريم موقف الإلزام والإفحام . ووضعهم وجهاً لوجه أمام الآية القرآنية التى وقفوا منها موقف الريب ، فقال لهم :

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» .

(البقرة : ٢٣)

ويقول تعالى :

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» .

(هود : ١٣)

وكانت فواتح السور : ألم ـ ألمص ـ ألر ـ ألمر ـ ق ـ ن ـ ص ونحوها إنما يراد بها مواجهة الفصحاء ، البلغاء فى أمة العرب بعامة ، وفى قريش بخاصة بأساليب يحسنون فهمها ، ويدركون سموها ، وينبهرون بتأثيرها ، ولا قبل لهم بالإتيان بمثلها . إنه تأكيد لمعنى الآية فى القرآن ، يدفعهم لمراجعة حسابهم فى قضية رسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

الحوار القرآنى مع قريش :

استأثر أئمة قريش بجانب أكبر من حوار القرآن الكريم ، ما بين نقد وعتاب ، وتذكير بالنعم وتحذير من العقاب .

ففى أبى لهب وموقفه العدائى من ابن عمه الرسول نزلت سورة باسمه ..

وفى الوليد بن المغيرة نزل عدد من الآيات من سورة المدثر ، تتحدث عن نعم الله عليه وتفتح قلبه للإيمان لحظة ، ثم ارتكاسه فى حمأة الجاهلية مرة أخرى ، بقوله تعالى :

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا » . (المدثر : ١١ ـ ١٦)

وفى الوليد أيضا ، وقيل فى أبى جهل ، نزلت هذه الآيات من سورة القلم :

« وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هماز مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ » . (القلم : ١٠ ـ ١٣)

وفى الصد الباغى للمكذبين لدعوة النبى عليه الصلاة والسلام جاء قوله تعالى :

« وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا . إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ،

وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

(الفرقان : ٤١ ، ٤٢)

وقوله تعالى :

«وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ » .

(ص : ٦ – ٨)

إن حوار القرآن الكريم مع قريش استوعب الجانب الأكبر من السور المكية وهذا أمر له دلالته ؟ لأن استنزال المكذبين منهم من ترفعهم الباغى كان ضرورة لابد منها لحركة الرسالة فى المستقبل ، فهم قادتها وحملتها فيما بعد . وإذا كان بنو إسرائيل قد وجهت إليهم القوارع الكونية ، ليكفوا عن البغى ، فحسب هذه الأمة المصطفاة حول البيت أن يوجه الله إليها القوارع البيانية التى ستثمر عن قريب . . يقول تعالى :

«بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ . وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . قُلْ : نَعَمْ

وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ » .

(الصافات : ١٢ ــ ١٩)

وحاورهم القرآن الكريم فى تحكيمهم مقاييسهم الباطلة فى اختيار الرسول ، وأنه فى تصورهم لا ينبغى أن يكونوا بشراً ، وإن كان فلا ينبغى أن يكون فقيراً ، ومن لوازم الرسالة فى تقديرهم الآيات الكونية الخارقة للنواميس المعتادة ، يقول تعالى :

« وَقَالُوا : مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ، وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا . انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » .

(الفرقان : ٧ ــ ٩)

وحسبى ما قدمت من نماذج قرآنية ، كاشفة عن دعائم الحوار مع قريش فى القرآن الكريم ، وهو يعطى انطباعاً بمكانتهم التى تبوءوها بين الناس بانتسابهم لإبراهيم ، وبين العرب بأهليتهم للبيت وإقامتهم حوله .

التحذير من جحود النعم :

كذلك فى حديث القرآن الكريم عن قريش ، ومعها ، نراه يحذرهم من عاقبة الجحود ، ومغبة الكفران ؛ إذ لا يليق بهم ذلك ،

وقد أولاهم الله فضله العظيم ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ، واصطفاهم لرسالته ، وارتضاهم أهلا لبيته ، فيقول تعالى :

«وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ ، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ» . (النحل : ١١٢ ، ١١٣)

كما ساق الله لهم هذا التحذير إذ يقول تعالى :

«وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَت مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» .

(القصص : ٥٨)

وحديث النعم فى القرآن الكريم يتجه كثيرا لقريش ، يحمل طابع التحذير والإنذار ، فبعد آيات كثيرة من سورة النحل ، تعدد نعم الله على القوم . يقول تعالى :

«وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ، وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ» . (النحل : ٧١، ٧٢)

دعوة قريش للسير فى الأرض :

دعا القرآن الكريم قريشاً فى آيات كثيرة إلى السير فى الأرض ، والنظر فى تاريخ السابقين ، ليستلهموا العبرة ، ويستمدوا الموعظة من بقايا أخبار من سبقهم من الأقوام فوق أرضهم .وأما بقية العرب فقد آمنوا وأسلموا لله جميعاً بإسلام قريش ، أبناء إسماعيل وإبراهيم ، وأهل بيته المحرم ، بما لم تسبق إليه أمة من أقوام الرسل من قبل .

* * *

وفى حدود مشاهدات قريش فى رحلاتها التجارية على امتداد الجزيرة العربية من الشام إلى اليمن مضى القرآن الكريم يذكرهم بهؤلاء السابقين ومصائرهم ، إنه يذكرهم بما شاهدوه من بقايا مساكن قوم لوط ، فيقول تعالى :

«وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ، بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُورًا » . (الفرقان : ٤٠)

كما يقول تعالى :

«وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» .

(الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨)

ثم يقدم لهم القرآن الكريم مصائر الباغين ، ومصارع الظالمين ، ليؤكد لهم أنه لامبدل لكلمات الله ، وحتى لا يكون لهم حجة بعد قوة البرهان ، وعروبة اللسان وتأثير البيان ، فيقول تعالى :

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» .

(الفجر : ٦ ـ ١٤)

ثم تتأكد الحقيقة :

وأخيراً بعد هذا الحديث عن القرآن الكريم وقريش بأسبابه المتعددة ، ومناحيه المختلفة ، يبقى سؤال يفرض نفسه :

ما سر هذا الذكر الدائب لقريش فى القرآن الكريم ؟

لقد عرفنا جانبا من الإجابة عن السؤال فيما قدمنا من حديث عن اصطفاء الله لقريش ، وأسبابه ، ونضيف لذلك أن قريشاً بحكم قيادتهم للعرب ، ومكانتهم الاقتصادية والدينية فيهم قد تعلق نجاح الدعوة للإسلام باقتناعهم ، واستنزال قادتهم من بغيهم ، وتحطيم حواجز الهوى والتعصب التى كانت تحول بينهم وبين الإسلام . ولذا ظلت الرسالة بين أظهرهم ثلاثة عشر عاماً ، يدعون فيكذبون بأساليب شتى ، ثم خرجت الدعوة من مكة إلى المدينة ، لتصطدم بها قريش فى حروب شتى ، ثم وادعتها ، وانتهت الموادعة بالفتح ، واستقبلت مكة ابنها الرسول مستسلمة لدعوته فى كبرياء واعتداد ناشىء عن

شعور البقية الباقية من قريش فى مكة بأنهم وإن انصاعوا فقد انصاعوا لأخيهم الكريم .

وعندما أسلم زعماء مكة يوم الفتح ألقت العرب جميعاً السلم ، ودخلوا فى السلم كافة .

وهكذا تأكدت الحقيقة التى أشرق بها الوحى ، وهى أن إسلام قريش كان المفتاح لإسلام العرب .

كذلك فإنه مما يلفت النظر ، ويثير العجب ، أن دعوات الرسل السابقين رفضها كبار أقوامهم ، وعظماؤهم ، وأصروا على عنادهم . أما رسالة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد انتهى فيها العرب جميعاً إلى كلمة سواء ، لا يعبدون إلا الله ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . يستوى فى ذلك الأغنياء والفقراء ، والمستضعفون والزعماء . ولقد آمنوا وأسلموا لله جميعاً بإسلام قريش ، أبناء إسماعيل وإبراهيم ، أهل بيته المحرم بما لم تسبق إليه أمة من أقوام الرسل من قبل ، وبما لا يزال الأسوة والأمل لجميع الشعوب العربية والإسلامية فى صحة إيمانهم بالله وإسلامهم إليه ، عبر كل الأزمان والعصور .

* * *

السؤال الثانى :

يقول الله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤)

*** لماذا كان هؤلاء الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالاته من أول آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام « ذرية بعضها من بعض » .**

*** ومن هم كما تراهم آل إبراهيم ؟**

*** ولماذا فى خطاب موجه بالوحى إلى إبراهيم والسيدة أم إسحاق عندما بشرتها الملائكة بإسحاق يقول تعالى لها : (أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) (هود : ٧٢) وما المقصود هنا بأهل البيت ؟**

الإجابة :

نتناول فى الإجابة عن هذا السؤال الموضوعات الآتية :

* الأواصر التى تربط بين الرسل .

* من هم آل إبراهيم ؟

* البيت فى القرآن الكريم .

* المقصود بأهل البيت .

الأواصر بين الرسل :

فى حديث القرآن الكريم عن نوح عليه السلام ، يقول الله تعالى :

« وإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

(الصافات : ٨٣ ، ٨٤)

وشيعة الإنسان ذوو قرابته الذين تربطهم به رابطة الدم والنسب ، فإن التقوا على رأى واحد ، وعقيدة واحدة كانت العلاقة بينهم أقوى وآكد ، ولأجل هذا عللت الآية الثانية ماورد فى الآية الأولى من كون إبراهيم من شيعة نوح بأنه قد أسلم قلبه لله ، وأتى ربه بقلب عامر بالإيمان . فهناك إذن أواصر قوية ، ووشائج وثيقة تربط بين الأنبياء والرسل على اختلاف أزمانهم ، وأماكنهم ، فى مقدمتها رابطة النسب والقرابة ، والتقاؤهم فى ظل الاستصفاء من النسب الكريم على الإسلام لله ، ودعوة الناس إلى أن يكونوا مسلمين له .

ويبدو هذا واضحاً فى آية الاصطفاء من سورة آل عمران ، إذ يقول تعالى :

« إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

(آل عمران : ٣٣ ، ٣٤)

فهؤلاء أربع مصطفون على امتداد التاريخ البشرى ، يربط بينهم

نسب عريق تمتد جذوره إلى آدم عليه السلام ، وتعزز الرابطة بينهم بجانب الأنساب النقية اختيارهم للرسالة ، وليكونوا أئمة يهدون بأمر الله .

أولهم : آدم أبو البشر جميعاً ، وذريته انتشرت على الكوكب الأرضى ، واستعمرته وكان يعلم أبناءه أصول الدين الذى علمه الله إياه .

ثانيهم : نوح عليه السلام ، اصطفاه الله من بنى آدم ، ليجدد الدعوة إلى الإسلام فى بنى أبيه الذين ملأوا الجزء المعروف من الأرض ، قال تعالى :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِى وَتَذْكِيرِى بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ اقْضُوا إِلَىَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ . فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . (يونس : ٧١ ، ٧٢)

ثالثهم : آل إبراهيم وسنتحدث عنهم فيما بعد . .

رابعهم : آل عمران . أسرة مسلمة من بنى إسرائيل ، اصطفاهم الله ، ومنها مريم القانتة ، المصطفاة ، الطاهرة ، أم عيسى التى حركت بصلاحها بواعث الشوق إلى الولد فى « زكريا » فقال :



«رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» .

(آل عمران : ٣٨)

ومنهم عيسى ابن مريم آية الله وكلمته .

وأما أنهم « ذرية بعضها من بعض » فالمراد بذلك أنهم يرتبطون برباط وثيق من النسب والقربى ، عززه اصطفاء الله لهم دعاة إلى دينه الإسلام ، فهناك إذن أمران كان بهما هذا الارتباط القوى بين هذه الأسر الأربع المصطفاة ، واستحقت به هذا الوصف :

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ» ، وهذان الأمران هما :

١ — رابطة النسب النقى .

٢ — رابطة الدين الحق ؟

ويضعف شأن الأولى إذا ذهبت الثانية .

ويؤيد هذا أمور :

أولها : حدثنا ربنا تبارك وتعالى عن إسراء عبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعن كتاب موسى الذى أنزله الله هاديا لبنى إسرائيل ، ثم قال جل شأنه :

«ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا» .

(الإسراء : ٣)

ولاشك أن الذين حملوا مع نوح ، هم القلة المؤمنة التى قال فيها رب العالمين :

« إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ.
وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » .

(هود : ٤٠ ، ٤١)

ومن أصلاب هذه القلة المؤمنة انحدرت هذه الأسر المصطفاة جيلا بعد جيل ، يصطفيهم العليم الخبير من أكرم الأصول وأصفى الأنساب .

ثانيها : فى حديث القرآن الكريم عن نوح عليه السلام ، طلب نوح من ربه الصفح عن ابنه الذى مات كافراً ، لما بينه وبين ابنه من أقوى أواصر الدم ، فقال :

« رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ .
قالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

(هود : ٤٥ ، ٤٦)

وفى هذا تأكيد لما تحتمه خصائص النسب الطيب من التزام بالدين الحق ، وأن الخروج عن نهج الإيمان ممن هو صاحب نسب يؤمل معه الإيمان يزرى بصاحبه أشد زراية ، ويعرضه للعقوبة ، بحيث لاتقبل فيه شفاعة ، ولو كانت من والده النبى .

فالتمسك بالدين الحق ، والالتزام بالإيمان الصحيح دلالة على أن الوراثة الطيبة والنسب النقى قد أثمرا ، وأعطيا أكلهما ، وإذا تخلف الإيمان عن ذوى الأحساب والأنساب فليس لهم عند الله ميزان ، بل

إنهم شر مثوبة عند الله بقدر ما أهدروا من نعمة الله بالأصالة والثواب .
يقول تبارك وتعالى :

« فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » .

(المؤمنون : ١٠١)

ويؤكد النبي عليه الصلاة والسلام هذه الحقيقة ، فيقول لعشيرته من قريش : « اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئاً » كما قال : « ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

ثالثها : تحدث النبي عليه الصلاة والسلام عن إخوته الرسل فى مواضع شتى مؤكدا فضلهم ، متحدثاً عن جهادهم ، مشيرا إلى مكانتهم ، محذرا أصحابه من الخوض فيهم ، مجاراة لما كان يتورط فيه جيرانهم من اليهود .

ثم عن الروابط بينه وبينهم يقول : « والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » رواه البخارى فلذا يصور النبي عليه الصلاة والسلام الأنبياء والروابط بينهم ، بصورة الأخوة لأب . أى أن الأصل والمنزع واحد ، والاختلاف فى بعض الشرائع الفرعية . وفى هذا التشبيه تأكيد لما أخبرت به الآية من أنهم ذرية بعضها من بعض ، وازدادت بالرسالة قوة وارتباطاً .

وفى حديث آخر يصف النبي عليه الصلاة والسلام ، روابط الأنبياء بأنهم جماعة تعاونوا فى إرساء صرح شامخ هو دين الله ، كل واحد منهم أرسى لبنة فيه ، حتى اكتمل البناء برسالة النبي محمد عليه الصلاة

والسلام . ويشاء الله أن يكتمل البناء فى رحاب أمة العرب التى اجتباها الله ، واصطفاها فى جوار البيت الحرام . يقول صلى الله عليه وسلم : « إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتاً ، فأكمله وزينه إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فقال الناس : ما أحسن هذا البيت وما أجمله ! ! لولا هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين » (رواه البخارى)

آل إبراهيم :

قد يكون فى هذا الحديث السابق عن محور العلاقة بين الأنبياء الذين جعلهم الله ذرية بعضها من بعض ما يلقى بعض الضوء على المراد من آل إبراهيم . وفى تقديرى أن الآل غير الأهل ، وأن لفظ الأهل يراد به روابط النسب والقرابة ، حيث تأهلوا ونموا فى ظلال أسرة واحدة ، وبيت واحد ، وأما الآل فهم الذين يؤولون إلى الإنسان فى منهجه وتفكيره ، أوفى رأيه ومذهبه .

ولأجل هذا فى صلاتنا على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى أبيه إبراهيم الخليل نقول : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم .

وبناء على هذا يكون آل إبراهيم هم من ساروا على نهجه من أبنائه وذريته ، فاستمسكوا بملته الحنيفية ، و بعدوا عن الشرك ، وحافظوا على لواء التوحيد ، أو من نهجوا هذا النهج من غير ذريته . وكان إبراهيم عليه السلام بارا ببنيه ، يود أن تستمر الإمامة فيهم ، ولذا عندما

اختاره الله إماماً بعد أن ابتلاه بكلمات أتمها ، ونهض بمضمونها طلب من ربه هذا الطلب ، وهو الإمامة الهادية فى ذريته فقال له :

« لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » . (البقرة : ١٢٤)

ومعنى هذا أن الظالمين من ذريته ليس من حقهم الانتساب إليه ، فقد ذكر القرآن الكريم جانباً من ذريته الصالحة ، فقال :

« وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » . (الأنعام : ٨٤ ـ ٩٠)

ونلحظ أن هذه الآيات تشير إلى اجتباء الله لهم ، واصطفائه إياهم ، وأن الشرك يذهب عنهم ما عملوه من الصالحات ، كما نرى فى العبارة الأخيرة من الآية أمراً للنبى محمد صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهؤلاء الأنبياء من آل إبراهيم الذين جاء محمد فى ختامهم مجدداً لدين أبيهم إبراهيم وحنيفيته .

وقد أشرنا إلى أن اليهود عارضوا نسبة العرب لإبراهيم ، زاعمين أن إبراهيم لا علاقة له بالإسلام ، الذى جاء به محمد ، وما هو إلا رائد لليهودية ، والنصرانية ، ويرد القرآن الكريم عليهم هذا الزعم الباطل ، ويقول :-

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فى إِبْرَاهِيمَ ، وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » . (آل عمران : ٦٥)

ويسخر من فكرهم الساذج فيقول :

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ، وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . (آل عمران : ٦٧)

ثم يفسر المقصود من آل إبراهيم ، فيقول :

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ، وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا » . (آل عمران :٦٨)

البيت وأهله فى القرآن :

وردت كلمة البيت فى القرآن الكريم فى مواضع شتى معرفة ونكرة ، ومفردة وجمعاً ، لكنها عندما تجىء نكرة ، أو بصيغة الجمع (بيت — بيوت) فالمراد بها مكان البيات والاستقرار للإنسان .

وإذا وردت معرفة بأل وبصيغة الإفراد فالمراد بها « الكعبة البيت الحرام » التى بناها إبراهيم عليه السلام بواد غير ذى زرع بين جبال مكة ، وأقام حولها العرب المستعربة أبناء إسماعيل عليه السلام ،

وأحفاده حتى انتهى أمر البيت إلى قريش على النحو الذى أشرنا إليه .

وورد البيت الحرام مرة واحدة فى القرآن الكريم نكرة مضافاً إلى لفظ أول ؛ فقال تعالى :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ »

(آل عمران : ٩٦)

وقد تحدث القرآن الكريم عن البيت الحرام فى عشرة مواضع ، تحدث فى بعضها عن بنائه ، ومن الذى بناه ، وتحدث فى بعضها عن حرمته وخصائصه ، ومنها آيات تحدثت عن الحج إليه ، وهذا بخلاف الموضع الواحد الذى جاءت فيه منكرة ، فيكون المجموع أحد عشر موضعا .

ونثبت هذه الآيات فيما يلى :

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا » . (البقرة : ١٢٥)

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا »

(البقرة : ١٢٧)

« فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا » .

(البقرة : ١٥٨)

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ »

(آل عمران : ٩٦)

«وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» .

(آل عمران : ٩٧)

«وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا» .

(المائدة : ٢)

«جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ» . (المائدة : ٩٧)

«وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً» .

(الأنفال : ٢٥)

«رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» .

(هود : ٧٣)

«وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا» .

(الحج : ٢٦)

«إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ» .

(الأحزاب : ٣٣)

أهل البيت من هم :

أهل البيت .. هذا اللفظ منذ أوائل العصر الأموى حمل مفهوماً معينا ، حيث ظهرت الفرق ، وبدأ الصراع السياسى حول الخلافة يشغل المجتمع الإسلامى ، وكانت هذه العبارة عند الشيعة تعنى أهل

بيت النبي عليه الصلاة والسلام الذين هم فى رأيهم أحق بالخلافة ، وعندما يسألون : من هم أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام ؟ يجيبون : هم أبناء على بن أبى طالب من فاطمة !!

ومن الشيعة من يراهم أبناء الحسين فقط .

وهذا التفسير لا يستند إلى دلالة لغوية سديدة ، ولا إلى عرف صحيح ، أو واقع سليم ، فهى إلى الشعار السياسى أقرب منها إلى الاصطلاح العلمي . وقد يسوق القوم عدداً من الأحاديث تحمل توصية النبي عليه الصلاة والسلام بأهل بيته ، لكن لم يصح منها شيء فى مقاييس علماء الحديث . وقد يلوون عنق بعض الآيات ، ليدعموا فكرهم السياسى ، مثل :

« قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلاَّ الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَىَ » .

(الشورى : ٢٣)

وكأنهم يريدون أن يفسروا الآية بأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يريد أجراً على رسالته إلا بالمودة إلى أقاربه ، مع أن المعنى الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يريد أى أجر على الرسالة ، وإنما يلح فى الدعوة بدافع البر بهم ، لأنهم ذوو قرباه .

وأهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام هم زوجاته ، وأبناؤه ، وبناته مادمن فى كنفه ، وأولاد البنت لا يعـــدون من أهل بيت الإنسان ، لأنهم فى ظلال نسب آخر ، ومن حكمة الله تبارك وتعالى أن يتوفى الذكور من أبناء النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يتزوجوا ،

ويتناسلوا ، وذلك لكى يكون الانتساب إليه من حق كل مسلم ، يحافظ على سنته ويلتزم بشريعته .

وإذا كان أبناء البنت يعدون من أهل البيت ، فلم لم يعد من أهل البيت جميع أحفاد النبي عليه الصلاة والسلام من بناته ومنهم أمويون ؟!

ولسنا بهذا ننفى عن على وفاطمة وأبنائهما رضى الله عنهم جميعاً أنهم من أهل البيت ، ولكننا نؤكد ذلك ، غير أننا نتنبه إلى أن البيت هو الكعبة ، وأن أهله قريش بخاصة والعرب عامة ، فهذا هو الحق الجلى فى القرآن الكريم .

القرآن وأهل البيت :

إننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم ، نستعين به فى تفهم المقصود بأهل البيت فسنجد أن عبارة « أهل البيت » وردت فى موضعين من الكتاب العزيز .

الموضع الأول فى سورة هود .

يقول تبارك وتعالى :

« أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » . (هود : ٧٣)

والموضع الثانى فى سورة الأحزاب ، وسنتحدث عنه مع الإجابة عن السؤال الثالث .

والآية فى الموضع الأول يتجه الخطاب فيها إلى أم إسحاق عندما

بشرتها الملائكة بإسحاق ، ثم يعم الخطاب إبراهيم وزوجتيه وابنه إسماعيل جميعاً . إذ يقول تعالى :

«رَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» .

فما البيت هنا الذى نسبت إليه أسرة إبراهيم عليه السلام ؟ أهو بيتهم الذى يأوون إليه ، ويسكنون فيه ؟ أم إنه الكعبة المشرفة التى بناها إبراهيم بعد أن هاجر إلى الأرض التى بنيت عليها ، وابتلى فى جوارها فصبر ، وكانت المكافأة هى البشرى بإسحاق ؟!!

والذى أراه كما تشير النصوص ، وليسير الأسلوب القرآنى سيرته المعهودة فى البيان بلا تكلف أن البيت هنا هو الكعبة ، وأن إبراهيم عليه السلام فى مقدمة أهله ، فهو الذى بنى البيت ، ورفع قواعده هو وابنه إسماعيل ، وإليه ترجع الأبوة لهذه الأمة التى قامت من حوله ، والتى كان وجودها تلبية من الرحمن الرحيم لدعواته التى ضرع بها إلى الله عند بنائه .

وإذا كانت زوجته أم إسحاق بعيدة عن البيت الكريم فلا يمنع ذلك من نسبتها إليه ، واعتبارها من أهله ، لأن رابطة أهل البيت مبادىء وقيم كما هى حسب ونسب ، وأم إسحاق لها مع زوجها إبراهيم — مع رابطة الزواج الوثيقة — قربى ونسب .

لقد جاءت مخاطبتهم بعبارة أهل البيت بعد أن بنى إبراهيم الكعبة وابتلى فى جوارها بالأمر بذبح وحيده الغلام الحليم إسماعيل ، فهم إذن أهل هذا البيت الذى بنى منطلقاً للتوحيد الحق ، ومصدر إشعاع

للحنيفية السمحة ، ومثابة للناس وأمنا ، ومركز التقاء للأمة المرجوة ، وميداناً لرسالة الرسول الخاتم ، والحنيفية السمحة التى أقيم لأجلها البيت ، وتنعقد حولها قلوب هذه الأسرة المسلمة جميعاً : إبراهيم وابناه وزوجتاه ، رضى الله عنهم جميعاً .

وبناء على هذا ، كيف نحدد المقصود بأهل البيت على ضوء هذه الآية ؟

أهل البيت هم الذين جمعهم نسب واحد يردهم إلى إسماعيل عليه السلام ، وارتبطوا بالبيت ولاء له ، وإيماناً برسالته من طواف وركوع وسجود ، وطواف ، ويمكن أن نتدرج بترتيبهم التاريخى فيما يلى :

إبراهيم عليه السلام وابناه وزوجتاه .

إسماعيل عليه السلام ، وأصهاره من جرهم .

قريش من أبناء إسماعيل بصفة خاصة .

العرب جميعاً الذين جمعهم ولاء للبيت ، فأتوا إليه حجاجاً من أنحاء الجزيرة بصفة عامة .

ومن هنا أعود إلى تأكيد ما أشرت إليه وهو أننا لو أطلقنا على أحفاد الرسول عليه الصلاة والسلام وذرياتهم اسم أهل البيت ، فذلك لأنهم فى ظلال الكعبة نشأوا وعاشوا ويدينون بالولاء لرسالة جدهم التى أشرقت من حولها ، أما إذا جعلنا هذا اللفظ مقصوراً عليهم وحدهم ، فهو تخصيص بلا مخصص ، أو تحريف للكلم عن مواضعه .

السؤال الثالث :

يقول تعالى بعد حديث إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم يوصيهن فيه بخير الوصية ، وخير العمل ، فهن أمهات المؤمنين ، ولسن كأحد غيرهن من النساء :

« إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » . (الأحزاب : ٣٣)

ما المقصود هنا بأهل البيت ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مقيما بزوجاته في المدينة ، مركز مجتمع المؤمنين ، ودولة الإسلام الناشئة ؟

الإجابة :

إن الموضع الثاني والأخير في القرآن الكريم الذى وردت فيه عبارة « أهل البيت » هو قوله تعالى في سورة الأحزاب :

« إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » . (الأحزاب : ٣٣)

أمومة المؤمنين :

أطلق القرآن الكريم على زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمهات المؤمنين فقال تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . (الأحزاب : ٦)

وهذه الأمومة للمجتمع المؤمن ، كما وصفهن الله تبارك وتعالى بها تكشف عما لهن من منزلة كبيرة ، كما تفرض عليهن أعباء ثقيلة .

فحياتهن فى بيت النبوة تعنى علمهن بالكثير من هدى النبوة ، وخصائصها ، مما لم يعلمه غيرهن من النساء أو الرجال . وهن شريكات صاحب الدعوة فى حياته ، حملن معه جانباً من مسئوليات الدعوة وهمومها ، وكن مقصداً للمؤمنين والمؤمنات يلتمسون منهن العبرة ، ويتخذون منهن القدوة ، وبيوتهن لا تخلو من سائل أو مستفهم ، ويجد المسلمون منهن حنانا وبرا ، وعطفاً ورحمة ، وحرصاً على الخير والهداية ، كما كن يجدن من المسلمين توقيرا ، وتعظيما ، وإكبارا ، دونه إكبار الأبناء للأمهات .

وكل زوجة من زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وراء تزويجها منه عبرة ، وتاريخ يسمو بها ، ويرفع من شأن الغاية التى وراء التزوج منها ، والتى كانت فى حقيقتها أبعد عن المتاع ، وأدنى إلى أعباء الرسالة وما تفرضه من أواصر وحقوق . وما من واحدة من هؤلاء الزوجات المكرمات إلا وكان لها شأن فى قومها ، ومكانة فى أسرتها التى نبتت فى ظلها .

وأما الأعباء التى تفرضها هذه الأمومة للمؤمنين ، فمنها أنه لابد من توافر القدوة الصالحة فيهن ، والتنزه عما يقع فيه غيرهن من

النساء من تورط فى بعض المخالفات لشريعة رب العالمين ، فيقول تعالى :

«يَأَيُّهَا النَّبِيُّ ، قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ، وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا» . (الأحزاب : ٥٩)

الخير منهن مضاعف الحسنات ، والسيئة منهن مضاعفة الأوزار كذلك يقول تعالى :

«يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لها الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يسِيرًا» . (الأحزاب : ٣٠)

ويقول تعالى :

«وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ للهِ وَرَسُولِهِ ، وتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ، وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا» . (الأحزاب : ٣١)

وهذه الأمومة الرفيعة للمؤمنين فرضت عليهن مجموعة من الآداب، يحتم وقار الأمومة التمسك بها ، وأى أمومة ؟! إنها أمومة شريفة نبيلة ، ناشئة من التزوج بالرسول الكريم ، وداعية الإسلام العظيم . يقول تعالى :

« يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ، فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذِى فى قَلْبِهِ مَرَضٌ ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا . وَقَرْنَ

فى بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ ، وَآتِينَ الزَّكَاةَ ، وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ » . (الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣)

إن الآيات تطالبهن :

• بالحديث الجاد الذى لا ليونة فيه ، شأن الأمومة الحازمة التى تقطع الطريق على ضعاف النفوس ، ومرضى القلوب .

• بالقول المعروف الذى يصلح الفاسد ، ويقوم المعوج ، ويهدى الضال .

• بالاستقرار فى بيوت النبى هاديات مرشدات للمسلمين بأمومتهن ، وصدق القول عن رسول الله إليهم ؛ إذ لا يليق بهن كثرة الخروج التى يترتب عليها الابتذال الذى تفتقد معه معنى القدوة ، كما دعاهن الله إلى : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله .

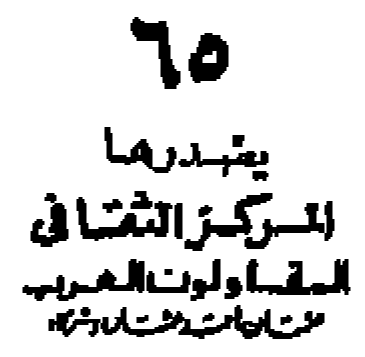
وهذه التوجيهات الإلهية هى للارتفاع بهن عن الشبهات ، والتسامى عن الرجس والاستمساك بأهداف الفضيلة والطهر .

ثم ماذا ؟

هن أهل البيت ، لأنهن جميعاً من قريش ومن حولها ، ما عدا مارية القبطية ، وصفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير .

وهاك بيانهن :

خديجة بنت خويلد قرشية ، أم أمهات المؤمنين ، وأم أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعرق سيدة عاشت فى ظلال البيت .





عائشة بنت أبى بكر قرشية .

حفصة بنت عمر بن الخطاب قرشية .

رملة بنت أبى سفيان قرشية .

سودة بنت زمعة ، ينتهى نسبها فى قريش من عبد شمس .

زينب بنت جحش الأسدية من ذوى قربى الرسول ، وتنتمى إلى بنى أسد من القبائل العدنانية التى تتفرع عليها قريش .

وجويرية بنت الحارث من خزاعة .

وزينب بنت أمية بن الحارث من عامر بن صعصعة .

وأم سلمة بنت أبى أميه بن المغيرة .

فما المقصود بأهل البيت .. إذن ؟ أهن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وحدهن فقط من أهل البيت ولسن كل أهله ؟!

وللإجابة عن هذا نقول : كانت المدينة فى مجتمعها المؤمن تقوم على المهاجرين الذين هم « أهل البيت » وعلى الأنصار من الأوس والخزرج من العرب القحطانية ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام رأس أهل البيت ، ورسول الله إلى المهاجرين والأنصار جميعاً ، فالنسبة له ولأزواجه فى قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » تعود إلى « بيت الله » فى مكة الذى هم أهله .

والذى يدل على أن المراد بأهل البيت رسول الله ، وصحابته من

المهاجرين وزوجاته أيضاً أن الآيات التي وجهت النصائح لزوجات الرسول التزمت في كل نصيحة بنون النسوة ، وعندما حركت فيهن نزعة الانتساب إلى البيت كان الخطاب بضمير جماعة الذكور ، مما يدل على أنهن داخلات في أهل البيت ، فغلب عليهن الذكور ، ولسن كل أهل البيت حتى تقول الآية مثلا : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركن تطهيراً .

ومن غير شك فنساء النبي القرشيات داخلات في أهل البيت ولاريب ، وقد أشرنا إليهن ، ومن لم تكن منهن مكية نعمت بجوار البيت ، فهي عربية يمتلىء قلبها بالولاء له مثل ميمونة بنت الحارث ، وجويرية بنت الحارث الخزاعية وزينب بنت خزيمة .. وبمثل هذا المعنى من الولاء والاستقبال لبيت الله يدخل الأنصار من الأوس والخزرج في أهل البيت .

حتى مارية المصرية ، وصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير تعلمتا في جوار النبوة احترام البيت الذي بناه إبراهيم ، وورثتا هذا الاحترام من قديم .

والحديث عن البيت بالإشارة إلى أهله في مقام النصح لأمهات المؤمنين كان بمثابة الباعث لهن على الاستمساك بما دعاهن إليه الله تعالى من أدب وسلوك ؛ بمعنى أن الانتماء للبيت يلزمكن يا أطهر النساء بشرف القدوة ، وسمو الأسوة .

فنساء النبي عليه الصلاة والسلام بما لأكثرهن من نسب يربطهن

بالبيت ، ولأنهن جميعاً عشن فى بيت النبوة الذى ينمى المبادىء المرتبطة بالبيت يدخلن فى أهل البيت .

والقول بأن البيت هو بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قول غير صحيح ؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام مات أولاده الذكور صغاراً ، وآل بيت الرجل أبناؤه وحفدته من أبنائه ، كما قال الشاعر العربى :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ولقد عاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم موت بنيه صغاراً ، ووصفوه بأنه أبتر ، فرد عليهم ربنا تبارك وتعالى بأنه أعطى نبيه ما هو أكثر وأسمى من الولد وذلكم قوله تعالى :

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » . (سورة الكوثر)

ومن غير شك فإن على بن أبى طالب ، وزوجته فاطمة بنت رسول الله ، والحسن والحسين وأولاده جميعاً بما لهم من نسب لقريش وللكعبة المشرفة هم من خاصة أهل بيت الله .. رضى الله عنهم جميعاً .

* * *

بحوث القسم الثاني

القرآن الكريم

وبنات شعيب

يجيب عنه :

الدكتور عبد الرحمن النجار

مدير عام إدارة المساجد

بوزارة الأوقاف

السؤال الأول :

« ماهى الحكمة التى من أجلهــا قضى الله بخروج موسى من مصر شرقا ، وباتجاه مدين فى شمال الحجاز » ، بعد أن قتل فى مصر نفسا بغير حق ، فاستغفر ربه منيبا إليه فغفر له ، وذلك حيث يقول تعالى :

« فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » .

(القصص : ٢١ ، ٢٢)

الإجابة :

كان مما قضت به مشيئة الله فى حكمته ، وبعد أن قطع موسى شوطاً كبيراً فى سياسة وسيادة قومه ، ليخرج بهم من نير فرعون وسلطانه وملئه — أن يعجل الغضب بموسى فيقتل مصرياً بغير حق بعد أن استغاثه أحد شيعته عليه . فمن هذه البداية ينفرج الطريق المغلق أو المبهم أمام موسى ليخرج خروجه الأول إلى مدين .. وكانت الخطوة الأولى أن تعجله صحوته إلى جريرته فيستغفر الله صادقاً فى استغفاره ، وينيب إليه مخبتا فى إنابته ، حتى يغفر الله له ..

وتتوالى بعد هذه الخطوة الأولى ما بعدها من الخطوات المتسارعة التى تقوده إلى أول الطريق إلى مدين ، وذلك كما يتحدد وصف ذلك فى قول الله تعالى بعد نعمته على موسى بالغفران :

« قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ . فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » .

(القصص : ١٧ ــ ٢٠)

هذه الأحداث المتسارعة كما يقصها القرآن الكريم ببلاغة إيجازه تصل بموسى إلى أول الطريق باتجاه مدين .. وحيث مضى وهو يخرج من مصر فى اتجاهها « خائفاً يترقب » كما جاء فى الآية الكريمة التى أوردها السؤال ــ يقول كما أورده الله على لسانه بها :

« قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » . (القصص : ٢١ ، ٢٢)

ولكن .. ومع هذا السؤال .. لماذا كانت حكمة الله .. وبقدر مايمكن أن نتبعها .. كان خروج موسى الأول شرقاً إلى مدين .. فى شمال الحجاز ؟ .. لنبدأ إذن القصة ، ومع الإيجاز .. من أولها .

القصة من أولها :

كان فرعون على عهد موسى متجبراً ، وقد بلغ به الكبر والاستعلاء ذروته ، حتى إنه كان يقول :

« مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى » . (القصص : ٣٨)

وحينما كان ينصحه أحد المخلصين — وما أقلهم حول الحكام المغرورين — كان يجيبه بقوله :

« أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ، وَهٰذِهِ الْأَنْهارُ تجْرِى مِنْ تحْتِى ، أَفلَا تُبْصِرُونَ » (الزخرف : ٥١)

وذات يوم أخبره الكاهن بأنه سيولد على أرض مصر مولود يذهب ملكك على يده ! . . فطار صوابه ، وأصدر أمراً بأن يذبح كل ذكر يولد ، وأن يستبقوا البنات ..

وشاء الله أن يولد موسى ، الذى على يده سيكون ذهاب ملك فرعون ، فأوحى الله إلى أمه أن تضعه فى التابوت ، وأن تقذف به فى النهر ، ليذهب الماء به إلى قصر فرعون عدوه وعدو الله فيتبناه.

وتمضى رعاية الله له فيعود به إلى أمه لتتولى رضاعته . حتى إذا ما بلغ أشده واكتمل عوده ، كرس ماوهبه الله من القوة فى دفع مظالم فرعون عن المقهورين به . وفى طريق دفع هذا الظلم ضرب موسى رجلا من جماعة فرعون ضربة عنيفة قضت عليه ، ولم يعرف أحد من القاتل . ثم وقعت مشادة ثانية بين واحد من جماعة فرعون

وبين هذا الذى هو من شيعته والذى جاء يستصرخه بعد أن استنصره بالأمس ..!

واندفع موسى إلى مظاهرة صاحبه حتى إذا ما أوشك أن يبطش بالذى هو عدو لهما تقدم الفرعونى إلى موسى مسترحماً إياه قائلا :

« يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ »

(القصص : ١٩)

حينئذ عرف قوم فرعون أن قتيلهم الذى قتل بالأمس إنما قتله موسى ، فدبروا أمراً وهو أن يقتلوه ..وساق الله لموسى من أخبره بما استقر عليه القوم من أمر قتله ، ونصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يجد الأمن .. وإلى حيث تتبعه نعمة الله ، وتقوده رعاية الله .

إلى أين يتجه ؟ وإلى أى مكان يقصد ؟ إنه يريد أن يكون بعيداً عن مصر أولا بعد أن ندم على ما فعل وتاب .

اللجوء والأمن :

والآن فى مواجهتنا الإجابة عن السؤال ، لنتدبر ونستقصى هذه الحكمة التى من أجلها قضى الله بخروج موسى من مصر شرقاً باتجاه مدين نقول :

لقد خرج موسى بعد الخطى ، وهو يدعو الله ويستهديه سواء السبيل ، على أول هذا الطريق الذى يعرف الكثير عنه باتجاه الحدود ..

حدود مصر .. وهدفه الأول — كما ساقه الله إليه — أن يلجأ لمن يأمن فى جوارهم من تعقب فرعون وعقابه . . وأن يجد وقتاً متاحاً لتدبر أمره ..

لقد كان عليه أن يعبر سيناء المصرية ، متخذاً طريق القوافل قرب ساحل البحر الأحمر على شاطىء خليج السويس وخليج العقبة ، مجتهداً أن لا يمر بأية حامية من حاميات جند فرعون ، حتى إذا ما تجاوز بعد الجهد موضع أيلة على رأس خليج العقبة استروح الأمان ، ومضى يغذ السير شرقاً ، فوق الأرض التى أحبها لأول رؤيتها ، وهو يسأل عن أقرب الأحياء والمخيمات ، وأقرب الماء والعمران ، حتى ورد ماء مدين . وسمع حول بئره ضوضاء الرعاة بأبلهم وأغنامهم يسقون ، فمضى إلى « الماء » ليروى ظمأه ، وليتعرف على بداية الطريق فى أيام غربته ..

عند هذا الملتقى بماء مدين شمالى الحجاز يقص الله من قصة خروج موسى الأول فيقول سبحانه :

« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » (القصص ٢٣ ، ٢٤)

حقاً .. لقد أبلغه الله مأمنه وهو يستجيب لدعائه ، وها هى مدين

مهيأة ليجد فيها الأمن السابغ ، والجوار المحفوظ .. ولكن ماذا بعد من فضل الله المتتابع عليه ؟ .. ماذا .. وهو يريد أن يتبين فى حكمة الله من مجيروه ؟! .. وما العمل الذى سيكفيه الحاجة .. ويمتلىء به فراغ الغربة ؟!

ويأتيه الجواب العاجل على دعائه .. يأتيه فضل الله بالمأمن ، والملجأ ، والجار الصالح .. وما هو أكثر من نعمة الله ، وذلك حيث يقول تعالى من قصة موسى فى حكمة خروجه إلى مدين :

«فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» .

(القصص : ٢٥ ـ ٢٨)

نعم .. هكذا ظهرت وتجلت بدايات حكمة الله فيما قضى به من نعمه على موسى بخروجه من مصر شرقاً باتجاه مدين شمال الحجاز..

حيث وجد بعد نعمة النجاة من تعقب وعقاب فرعون — نعمة اللجوء الكريم ، والأمن السابغ ، والجوار الصالح .. كما وجد نعمة السكن إلى صالحة يتزوجها ، ويجد أنس غربته فى صحبتها ..

أخلاق موسى :

تلك كانت معاملة موسى لابنتى الرجل الصالح شعيب . وهى معاملة تدل على مكارم الأخلاق . هذه الصفة التى أدب الله بها أنبياءه الكرام . إنه لم يبعث نبياً فيه قساوة قلب . ولا حدة طبع ، ولا جفوة فى تعامله مع الآخرين . وكيف يتأتى له ذلك ، وقد أعده الله للرسالة ليسوس وليقود شعباً بأسره . فإذا لم يحلم على جاهلهم فمن الذى يحلم عليه ؟ وإذا لم يسارع إلى نجدة المحتاج فمن الذى يسارع إلى نجدته ؟ وإذا لم يعف عن المسىء فمن الذى يعفو . ولقد قال هو فى شأن موسى : « واصطنعتك لنفسى » يعنى إن الله قد اختاره من قومه ، ولذلك فقد جعله فى رعايته ، كما رعى الرسل من قبله ، لينهض قوياً وأميناً بما عهد الله به إليه ، وهكذا كانت أخلاقه رغم شدته شريفة ، لا يهتز بها أمام الشدائد ، ولا يتأثر بتوالى الأحداث .. ولا يتخلى عن مكرمة من المكارم. وفى هذا المعنى ما أعظم هذا الوصف الذى وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم — حيث قال فى شأنه :

« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » (القلم : ٤)

الإعداد للرسالة :

ومن ثم على الأرض الطيبة فى مدين .. الأرض التى أشرقت على قممها ووديانها بعض رسالات الله .. ومر على ترابها قبل بضع مئات من السنين خليل الرحمن إبراهيم فى طريقه من أرض القدس ليقيم بيت الله فى مكة .. على هذه الأرض الطيبة عاش موسى يتقبل وراء المرعى ، وبين حركة الآفاق ، نعمة الله بإعداده للرسالة ، وهو يتفكر فى خلق السماوات والأرض ، ويتيقن فى كل ما حوله من برهان الله عليه ..

إنه هناك ، فوق مثل هذه الأرض التى تستقى بالغيث ، وتتجمع القبائل بها حول العيون والآبار ، يكون رعى الإبل والأغنام الصابرة والأليفة عملا يدر الخير على أصحابها . الذين يبحثون لها دائماً عن الراعى الأمين ، المتبصر ، الذى يجد رزقه وافراً من الأجر المعلوم على رعايتها ، والسعى وراء المرعى الخصب بها ، راضياً به ، كما رضى موسى وهو يتتلمذ بهذا الاتفاق مع الشيخ الصالح فى مدرسة الأنبياء .. مدرسة السير فى الأرض ورعى الغنم ..كما ورد فى الأثر : « ما من نبى إلا ورعى الغنم » .

وهكذا خلال هذه السنوات التى رعى فيها موسى غنم حميه كان يتدرب على أعباء الرسالة القادمة من قيادة قومه ، وهداية الشارد من عشيرته ، حتى يعود الجميع إلى حظيرة الجماعة ، وحتى تسير القافلة بقيادته آمنة بالهدى ، مهتدية إلى الطريق .

وفى نفس الوقت كان موسى يتفكر وراء غنمه راحلا ومقيما « فى خلق السموات والأرض » ليرى برهان ربه ويشهد نوره فى كل شىء .

إنه يراه فى القطرة الهاطلة ، والنبتة الطالعة ، يراه فى النسيم إذا سرى وفى الماء إذا جرى ، يراه فى الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ، يراه فى الفجر مع النور ، والليالى مع حلكة الظلام ، يراه فى الضحى والليل إذا سجى .. وبذلك يتيقن من واسع رحمة الله بعباده ، وليتهيأ لما أعده الله من رسالته إلى فرعون للنجاة بقومه ، وحتى يبلغ بهم بقوة آيات الله أرض امتحانهم بالشكر على عظيم نعمته . فيزيدهم منها فى حال شكرهم « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ». (إبراهيم : ٧)

وينتزعها منهم إن جحدوا « وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

(إبراهيم : ٧)

الله يتكلم :

وأخيراً .. لا يكاد ينقضى الأجل بتمامه بين موسى وحميه الرجل الصالح حتى يودعه ليسير بأهله .. أى بزوجته باتجاه العودة إلى مصر ، بعد أن تحقق له الكثير من فضل الله العظيم عليه ، كما شاء الله من حكمة خروجه إلى مدين واغترابه عشر حجج ، وهى حكمة الإنعام عليه من الله تعالى منذ خروجه الأول من مصر بهذه النعم التى أشرنا إليها فى هذه الإجابة ، وفى ذروتها إعداده للرسالة ..

وهكذا لم يكد موسى يقطع كثيراً من طريقه الطويل إلى مصر ،

وقبل أن يتجاوز حدود مدين ، حتى يستقبله شروق هذه النعمة الكبرى عليه ، وذلك إذ يرى وهو يمر على مقربة من جبل طور سيناء ناراً فقال لأهله انتظروا حتى أرى من هناك بجوار هذه النار لأسألهم عن الطريق ، وأنظر ماذا عندهم من الأخبار ، وقد آتى بجذوة من هذه النار لنصطلى ونستدفىء من برودة الليل .

وكانت هذه النار التى اجتذبته فى الظلمة بأمل الدفء ، وبالأخبار التى تهدى إلى سواء الطريق ، هى بشارة النعمة بهذه الرسالة ، وبأن يسمع موسى من وراء حجاب إلى الله وهو يكلمه ، ليضع أمانة هذه الرسالة الثقيلة على كاهله ، مؤيداً له فى مواجهة فرعون بالآيات ، وواعداً إياه بالنصر . ويقص الله من أنباء هذا المشهد الكريم الفريد فيقول سبحانه :

«فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ . اسْلُكْ يَدَكَ فى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ

جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ».

(القصص : ٢٩ ـ ٣٥)

وهذا هو فى حكمة الله ، وتمام نعمته ، ما كان .. وسبحان الله .. ومن أوفى بعهده من الله ..

* * *

السؤال الثانى :

بعد أن بلغ موسى أرض مدين ، وورد ماءها غريباً عن أهلها ، وعندما وجد امرأتين على هذا الماء تذودان وتزاحمان الأقوياء من الرعاة لسقى أغنامها ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل يدعو ربه قائلا : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » (القصص ٢٤) ماذا كانت هموم موسى فى غربته ؟؟ وماذا كان رجاؤه من هذا الدعاء الضارع إلى ربه ؟؟ وكيف كانت الاستجابة من الله الرحمن الرحيم له ؟ ؟

الإجابة :

وضع موسى عصا التسيار فى مدين بالقرب من بئر يستسقى منها الناس ، وتتجمع حولها الجماعات ممن يستسقون ، وكل يريد أن يسقى إبله أو غنمه ثم ينصرف مسرعاً .

وصل موسى وهو مجهد مكدود . ليرى هذا المشهد الذى يتنافى مع المروءة .. وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء الذى يرفعونه لها . ووجد هناك امرأتين لا تجدان مكاناً لسقى غنمهما بسبب مزاحمة الرجال لهما ، وكان الأجدر بأصحاب المروءات أن يقدموا المرأتين أولا ، ليسقيا وينصرفا ، ثم بعد ذلك يسقى الرجال ما معهم من أنعام .

ولم يقعد موسى الذى خرج ناجياً بنفسه من مصر ، وم، بطش



المعتدين بها ، والمسافر المكدود لم يقعد ليستريح وهو يشهد هذا المنكر المخالف للمعروف ، بل تقدم للمرأتين يسألهما فى أدب ورفق :

« قال ما خطبكما ؟ » يعنى ما شأنكما . وما الذى أوقفكم هذا الموقف ؟

« قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير » ؛ يعنى إنهما حضرا ليسقيا أغنامهما ، وليس لهما أخ أو إخوة يزاحمون الرجال ، وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على أن ينهض بهذا الأمر عنهما.

وتحركت الفطرة السليمة فى نفس موسى ، فتقدم يشق الصفوف، ليقرر مبدأ المروءة والفضيلة . تقدم ليسقى للمرأتين أولا ، كما ينبغى أن يفعل أولو الشهامة من الرجال . صنع هذا وهو يعلم أنه غريب . وأنه مطارد ومن خلفه أعداء لا يرحمون « فسقى لهما » مما يشهد بنبل هذه النفس الناطقة بما تحمله من مكارم الأخلاق ، وقد كانت لنفسه قوة تلفت النظر ، وتؤثر فى غيرها أكثر مما تؤثر به قوة الجسد ومتانة البنيان ..

وكان الوقت وقت قيظ وحر ، وقد أوشكت الشمس أن تتوسط كبد السماء « ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » إنه يأوى إلى الظل الوارف بجسمه . ويأوى إلى الظل العريض الممدود من رعاية الله له .

وأسرعت الفتاتان بالعودة إلى أبيهما الشيخ على غير عادة ، فسألهما الخبر ، فأخبراه ، وكأن الله قد أجاب استرحام موسى فحنا عليه ،

ووجد الشيخ ابنتيه وقد عادتا على عجل ، وعلم منهما خبر ذلك الشاب الغريب ، وخبر مروءته . فأرسل إحداهما لتدعوه إليه .

فجاءته الفتاة مستحيية خفرة فقالت : « إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » يا فرج الله .. ويا رحمته وإحسانه .. ما يكاد المرء يصنع المعروف حتى يجد الجزاء معجلا من الله له . وكأنه وهو يقدم على فعل الخير بيمينه يتلقى جزاءه بيسراه ، وهكذا نرى أصحاب المروءات لا تتنكر لهم السموات وإن تنكر لهم أهل الأرض . ولن تتخلى عنهم القدرة الإلهية وإن تخلت عنهم قدرات الإنسان ..

وتبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها الشيخ الذى استقبله بصدر رحب ، وأحله محل القربى والأمن . ثم قص موسى قصصه ، فطمأنه الشيخ وقال له : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » .

لقد كان موسى فى حاجة حقاً إلى الأمان ، كما كان فى حاجة إلى الطعام والشراب ، ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسده إلى الزاد ، ولهذا عنى سياق القرآن الكريم بقوله : « لا تخف » فهو أول لفظ يلقيه عليه الشيخ الصالح ليطمئن فؤاده ، معللا هذا بقوله : « نجوت من القوم الظالمين » الذين لا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون إلى من يقيم فيها بأدنى أذى أو ضرار ..

وهدأت نفس موسى فى منزل الشيخ الكريم . وكأنهما متعارفان منذ زمن بعيد ، ولا عجب فنور الإيمان يتلألأ فى كلا القلبين .

وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين . مهما تفاوتت الأجيال ، واختلفت الأعمار .

هموم موسى :

كان هذا الاطمئنان ثمرة من ثمار دعاء موسى ربه حينما وجه ناظريه إلى السماء وقال : « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير » وكأنه بهذا الدعاء ينفس عن همومه الكثيرة التى أحاطت به وأطبقت عليه .

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أويتوجع ! !

هذا فيمن يبث همومه إلى البشر .. فما بالك بمن يبث همومه إلى الرحمن الرحيم ، الذى وسعت رحمته كل شىء ، وشملت نعمته كل شىء .. ! ! إذن فماذا كانت هموم موسى وهو يرفع وجهه إلى ربه بهذا الدعاء ؟

كان موسى بهذا الدعاء يؤكد ثقته بالله ، وتوكله عليه ، حتى يرضى عنه ، وحتى يرعاه بهذا الرضى فى غربته — وبذلك تطمئن نفسه إلى غده .. وأما هموم موسى وراء دعائه هذا فهى كما نراها بدلالة الآيات :

أولا : كان من همومه ولاشك خشيته على أهله وقومه من بعده، وهو سيتركهم زمناً طويلا تحت قهر فرعون وبطشه وجبروته . وهذا الزمن الطويل هو الزمان الذى سيقضيه فى مدين ، وما كان يدرى قبل لقائه بالرجل الصالح كم يكون من الأيام أو السنين .

ثانياً : وكان من أكبر همومه مستقبل عودته ، فلقد خرج من مصر فاراً بنفسه من نير فرعون . بعد أن علم بالعزم على قتله .. فكيف يكون أمره فى مصر بين المتربصين به ليقتلوه بقتيلهم ، إذا ما عاد إليهم بعد خروجه واغترابه ، وكيف سيواجه يومئذ فرعون وكهانه وسحرته ، وهو المطلوب للعقاب ، ومع أنه أعزل من السلاح ؟

ثالثاً : لكن الله القريب إليه ، والذى يجيب المضطر إذا دعاه يسمع لضراعته . ويستجيب لدعائه ، ويكشف عنه همومه ، وذلك عندما ناداه الله بعد أن أعده هذا الإعداد الطويل لرسالته ، وذلك ليسمع كلامه عندما بدأ رحلة العودة إلى مصر . وقبل أن يخرج تماماً من أرض مدين .

لقد سعى موسى إلى الله — دون أن يدرى — باتجاه جذوة النار التى رآها فى الشجرة المباركة على مقربة من الطور عند شاطىء الوادى الأيمن ، وفى هذه البقعة المقدسة ، وقريباً جداً إلى الله . وبعيداً جداً عن أهله وعن قومه وعن كل الناس ، ناداه الله رب العالمين ليسمع منه ومن وراء حجاب .. أمره إليه بأن يذهب رسولا منه إلى فرعون ليؤدى إليه بنى إسرائيل ، وهى الرسالة التى وعد الله أن يعززه فى كل أطوارها بعد أن أراه آياته الكبرى ، وبعد أن جعل من أخيه هارون عضداً له ، وبعد أن قضى الله بأنه سيكون مع هارون ومن اتبعهما من قومهما هم الغالبين لفرعون . . قال تعالى :

« فَلَمَّا قَضَى مُوسى الأَجَلَ ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا ، لَعَلِّى آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِن النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، أَنْ يَا مُوسى إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ، إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ، اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ، فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » . (القصص ٢٩ ـ ٣٢)

يعنى أن الله تعالى زوده بآيتين مشهودتين محستين تناسبان ما كانت عليه سمة الحياة فى مصر آنذاك : الآية الأولى : انقلاب العصا حية تسعى ، والآية الثانية ، وضع يده فى طوق قميصه فتخرج بيضاء مضيئة من غير أن يكون بها تعب أو مرض ، إن هذين البرهانين يناسبان أهل البلاد .. ولقد طلب من الله أن يمده بأخيه هارون لفصاحة لسانه فهو قادر على إدارة الحوار مع خصومه ، واستجاب الله له .

«قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون . وَأَخِى

هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ، قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » .

(القصص : ٣٣ ـ ٣٥)

ولقد استجاب الله . . وتحقق النصر لموسى وهارون على فرعون وملئه ، وعلى كهنته وسحرته ، وكانوا ـ ومن اتبعهما من قومهما هم الغالبين ، حيث تم لهم الخروج من مصر بعد أن تركوا وراءهم فرعون من المغرقين ، وبعد أن انفتح الطريق أمام موسى وقومه فى خروجه الثانى من مصر إلى أمل جديد ، وامتحان جديد .

* * *

السؤال الثالث :

درج بعض المفسرين القدماء والمحدثين على إشاعة الوهم الغريب بأن « الشيخ الكبير » والد الفتاتين الراعيتين اللتين سقى لهما موسى إنما هو « النبي شعيب » . فإذا كان مرجع هذا الوهم الخاطىء عند من لا يمحصون حقائق القرآن الكريم لايزيد عن أن شعيباً قد أرسله الله إلى قومه فى أرض مدين ، وأن موسى خرج ناجياً بنفسه من مصر حتى ورد مدين ، إذن فمن يكون هذا الرجل الصالح والشيخ الكبير غير شعيب ؟؟؟

كيف تفند هذا الوهم الغريب الذى يكاد أن يكون من المسلمات عند عامة المسلمين وعوام المفسرين ، وذلك بحجج من القرآن الكريم غير بعيدة عن أعين وأسماع من يبصرون ويسمعون ويعقلون ..

الإجابة :

جلس موسى بعد أن خرج من مصر خائفاً يترقب وبعد أن بلغ ماء مدين فوجد عليه أمة من الناس يسقون أنعامهم .. جلس موسى يتأمل الواردين والصادرين . ولفت نظره وقوف فتاتين بعيداً عن الناس ، وأمامهما أغنام تطلب السقيا وهما لا تستطيعان مزاحمة الرجال الأقوياء فسألهما موسى فأجابتاه ، إنا ضعيفتان ولا نستطيع أن نهجم على الماء كما يهجم هؤلاء ، وأبونا لا يملك معاونتنا ، فهو شيخ كبير ..

وتنتهى القصة بأن يتزوج موسى إحدى ابنتى هذا الرجل الصالح ، والشيخ الكبير ، على صداق هو سنوات ثمان أو عشر يكون خلالها موسى راعياً لغنمه بهذا الأجر المساوى للصداق .. وهكذا تم الزواج الموفق الكريم ..

وأمامنا اليوم سؤال لا يزال يتردد وهو : هل حمو موسى هو النبى شعيب الذى أرسله الله نبياً لأهل مدين حيث قال تعالى : « وإلى مدين أخاهم شعيباً » .. الظن الذى لا يزال يتردد بين الكثيرين إلى اليوم ..؟

إن هذا القول إن كان قد ورد فى بعض كتب التفسير أو فى غيرها بأنه هو النبي شعيب ، فهو وهم وعدم تمحيص لمعانى آيات القرآن الكريم .

ليس شعيباً :

إن صهر موسى رجل صالح ، وقد عبر عنه القرآن الكريم بقوله :

« وأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ » .

لكنه ليس هو شعيباً النبي عليه السلام . للأسباب الآتية :

أولا : إن الله تعالى ذكر فى سورة الأعراف عدداً من المرسلين بدأهم بنوح عليه السلام ابتداء من الآية ٥٩ قال تعالى :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » . (الآية : ٥٩)

«وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» . (الآية : ٦٥)

«وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا» . (الآية : ٧٣)

«وَلُوطًا إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ» . (الآية : ٨٠)

«وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» . (الآية : ٨٥).

إلى أن قال :

«الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ . فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ» . (الأعراف : ٩٢ ، ٩٣)

وبعد عشر آيات كاملة يقول الله تعالى :

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ» . (الأعراف : ١٠٣)

ولقد تم هذا بعد أن تولى شعيب عليه السلام عن أهل مدين ، بل عن مدين نفسها . وتركها بزمان طويل .

ثانياً : من المحقق أن شعيباً عليه السلام ترك مدين قبل أن يكون

شيخاً كبيراً لما عاقب الله المكذبين له فى مدين . وذهب إلى أصحاب الأيكة ، وشعيبُ من مدين ، فكان تعبير القرآن الكريم :

«وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا» . (الأعراف : ٨٥)

لكنه لم يكن من أهل الأيكة ، بل إنه قد هاجر إليها ، ولهذا لا يقال : وإلى أهل الأيكة أخاهم شعيباً . ولكن كما ورد فى القرآن الكريم :

«كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ» . (الشعراء : ١٧٦ ، ١٧٧)

ولم يذكر أخاهم ..

ثالثا : يتبين من هذا أن رسالة شعيب كان لها مكانان : مدين والأيكة التى انتقل إليها قبل أن يكون شيخاً كبيراً . والأيكة كانت إلى الجنوب كثيراً من مدين ، وقد عاقب الله أهل مدين المكذبين بالرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، ونجى شعيباً والذين آمنوا معه

«فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ، فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ» .

وجاء فى سورة هود :

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ رَحْمَةً مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ» .

أما أصحاب الأيكة فكانوا من الصابئة فلما دعاهم شعيب — بعد أن انتقل إليهم من مدين :

« قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا » .

(الشعراء : ١٨٥ ، ١٨٦)

ثم يقول تعالى :

«فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » .

(الشعراء : ١٨٩)

الزمن الحقيقى لشعيب :

ثم أقول فى متابعة الاستدلال على أن الفتاتين اللتين تزوج موسى إحداهما لم تكونا من بنات شعيب :

رابعا : كان شعيب قريباً جداً من لوط عليهما السلام ، وكان لوط فى زمن إبراهيم عليهما السلام ، أما موسى فكان بعيداً زماناً يقدر على الأقل بأربعة قرون ..

يقول شعيب لقومه فى مدين :

« وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ »

(هود : ٨٩)

خامسا : أورد المفسر الطبرى ضمن ما أورد من الروايات أن الذى صاهر موسى واستأجره هو يثرون ابن أخى شعيب . وليس يثرون هذا من الأنبياء .

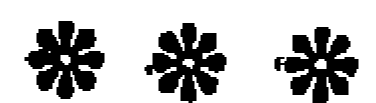
سادسا : رأينا أن قوم شعيب أنفسهم يقولون له فى الرد عليه : « ولولا رهطك لرجمناك » فكيف يكون لشعيب رهط ، ثم يرسل ابنتيه وحيدتين للتزاحم على الماء ؟ أين الرهط إذن ؟ ثم كيف يبحث عمن يستأجره فلا يجد حتى يجيء إليه موسى ؟

سابعا : لقد جاء الله فى القرآن الكريم بما فيه العبرة من قصص الأولين ، ووصف قرآنه بقوله : « ما فرطنا فى الكتاب من شئ » ومادام الأمر كذلك فهل يتصور أن يترك الله أمر مثل هذا اللقاء بين رسولين كريمين وهما موسى وشعيب دون أن يشير إليه ، وبخاصة وهو اللقاء الذى يقال إنه جمعهما ، على النسب والصهر ، وعلى ما قد يترتب على مثل لقائهما من آثار جمة فى مسيرة التاريخ الدينى ، التى تزاحمت فيها على نعم الله وآياته مواكب الرسل ، ومن يقودونهم من أقوامهم المتبعين لهم إلى الهدى والنجاة ؟

ثامنا : القرآن الكريم لم يتحدث بكلمة واحدة عن هذا الرجل الشيخ الكبير طوال مقام موسى عنده عشر سنين كاملة . ولم يدع موسى إلى الله ، ولم يبلغه الرسالة . مع أن الرسول — أى رسول يبلغ رسالة ربه دائماً ، ولايدع فرصة تمر بدون أن يدعو فيها الناس إلى الله ، وهذا هو يوسف عليه السلام حتى وهو فى السجن ، وصاحبا السجن يستفسران منه عن تأويل رؤياهما ، ينتهز الفرصة ويبلغ قائلا : « ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار ؟ » .

تاسعا : إن هذا الرجل شيخ كبير . وشعيب النبي شهد مهلك قومه المكذبين له – ولم يبق معه إلا المؤمنون به ، فلو كان هو شعيب – النبي – بين بقية قومه المؤمنين ، ما سقى أحد قبل نبيهم الشيخ الكبير ، فليس هذا هو سلوك المؤمنين . ولا معاملتهم لنبيهم وبناته .

من هذا يتأكد لنا أن الرجل الصالح والشيخ الكبير ليس هو نبي الله شعيباً ، بل إن النبي شعيباً كان سابقاً منذ زمن طويل لعهد موسى عليهما السلام .



بحوث القسم الثالث

القرآن الكريم والروح

يجيب عنه :

المفكر الإسلامي

أحمد موسى سالم

السؤال الأول :

* أصبح سائداً فى كتب التراث المتأخر ، وعلى ألسنة بعض علماء الدين والمثقفين أن للإنسان روحاً ونفساً معاً فى جسده الواحد .. دون أن يفطن أحدهم إلى استحالة اجتماع الروح والنفس بهذا المفهوم الواحد المتضارب فى جسم الإنسان ، وعلى خلاف كل نصوص القرآن الكريم عن الروح والنفس ..

* فى القرآن الكريم لم ينسب الإنسان فى جميع آياته من حيث الخلق ومصدر العقل والتكليف إلا إلى نفسه ، وذلك حيث يقول تعالى فى مقام الخلق :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَة وجعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » .

(الأعراف : ١٨٩)

وفى مقام استواء الإنسان بالهدى أو انحرافه بالضلال ، يقول تعالى :

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » .

(الشمس : ٧ ، ٨)

وعلى طريق الامتلاك ، والكسب للأعمال بأنواعها والحساب عنها يقول تعالى :

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » . (المدثر : ٣٨)

وفى الموت وانقضاء الآجال :

« اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . . » . (الزمر : ٤٢)

وفى جدل الإنسان عن نفسه بأعماله يوم القيامة يقول تعالى :

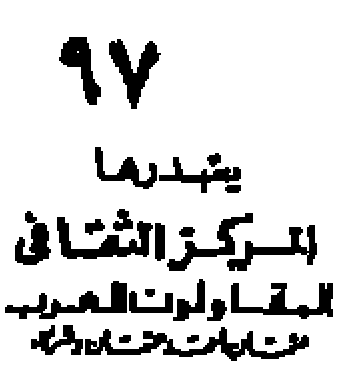
« يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » . (النحل : ١١١)

* فهل هذه الإضافة لكلمة والروح « إلى نفس الإنسان » التى هى هيأته التى سواه الله عليها .. صحيحة ؟ .. وكيف ترد على ذلك ؟

الإجابة :

الظاهر من أسلوب السؤال فى هذه القضية الصعبة فى ظاهرها أن الإجابة الصحيحة فى ضوء الدين الحق ، ومحكم القرآن الكريم ، تكاد أن تكون فى متناول القارىء والمجيب . وكل المطلوب هوأن يحسن المجيب فهم هذا التأكيد الصريح بلغة كتاب الله على أن الإنسان فى كل مراحل الخلق والحياة والبعث له « نفس » خلقها الله وسواها ، بعد أن ألهمها « فجورها وتقواها » . فالقول بأن للإنسان روحاً مع نفسه ، تعيش فى بدنه مع نفسه ، ثم تخرج منه بالموت لتنتظر العودة إليه بالبعث مع نفسه ، إنما هو إضافة لباطل لا سند له ، ولا برهان عليه .

فى هذه الآيات الكريمة التى ساقها السؤال لينفى هذه الازدواجية المزعومة والمستحيلة بين النفس والروح ، بمفهومها فى حقائق الدين القيم ، ولسان القرآن الكريم ، تظهر شهادة الله فى كتابه الحكيم ، جلية وقاطعة ، على بطلان قيام شريك لنفس الإنسان فى بدنه ، وهو من





جنس هذه النفس ، ويسمى « روحاً » بالترجمة المضللة التى نقلها المتفلسفة من أدعياء الإسلام عن اللغات الهندية والأوروبية ، التى لا مقابل فيها لمعنى هذه الكلمة الرفيعة ، كما وردت فى اللسان العربى المبين للقرآن الكريم ، وهى كلمة « الروح » .

إن شهادة الله العلى القدير على وحدة النفس المخلوقة فى بدنها ، بعيدة وخالصة من وهم مشاركتها بهذه الأرواح المزعومة . . . تظهر جلية فى قوله تعالى :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » .
(الأعراف : ١٨٩)

فلو كانت النفس هى المقصودة بالمفهوم الغامض عندهم للروح ، كما يقع ذلك تماماً فى اللغات الهندية والأوروبية ، لكان من المحقق أن يقول الله العليم الحكيم « هو الذى خلقكم » من روح واحدة . ولكن « النفس » هى الكلمة العربية الصحيحة ؛ لأنها الكلمة الدالة على نسبة الإنسان إلى « التنفس » الذى هو علامة حياته ، ووسيلته الأساسية إلى استمرار هذه الحياة على الدنيا ، التى أعدها الله ليأخذ منها « أنفاسه » الصالحة لحياته ، ويدع منها ما لا خير فيه ، رمزاً لحكمة الله فى ابتلائه بهذه الحياة الدنيا ، ليأخذ منها ما ينفعه من شكر الله على نعمته — قولا وعملا — ويتقى منها ما يضره من جحود هذه النعمة ، كفراً وبغياً ..

الازدواج وهمي والصواب هو النفس :

إذن فى بناء اللغة العربية لامجال لهذا الازدواج لكلمة الروح مع « النفس » التى هى الكلمة الصحيحة فى مشتقات هذه اللغة ومصطلحاتها ، وليست الكلمةالأخرى المترجمة عن الهندية واللغات الأوروبية خطأ وباطلا متعمداً وهى « الروح » .

وعلى هذا فإنه من الحق المبين أن يقول الله عن هذه « النفس » التى خلقها من نفس واحدة هى نفس « آدم » ليستخلفها فى الأرض ، ولتحمل أمانة الطاعة له بالشكر على نعمه ، إنها فيما ستختاره من الطاعة لبارئها أو العصيان له ، ومن التقوى أو الفجور على هذه الأرض بين يديه ، نفس ملهمة بما ستختاره من أحد الطرفين ، وذلك بما سواها عليه من قابليات الإقبال على الله بالطاعة له ، بصحوة الفطرة ، ويقظة العقـــل ، ومن عوامل الغفلة أو النكوص عنه ، بانطماس الفطرة ، وغيبة العقل ، وذلك حيث يقول تعالى :

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» .

(الشمس : ٧ ، ٨)

إنها هنا نفس تتنفس ، وتحيا ، وليست « روحاً » بالمفهوم السائد عن النفس فى لغة البراهمة فى الهند ، ولغات الأوروبيين ذات الجذور الهندية .

كذلك يقول الله على طريق هذه « النفس » فى مجالات ابتلائها

بالحياة لتكسب بأعمالها خيراً أو شراً هي مرتهنة به في الدنيا والآخرة .

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » . (المدثر : ٣٨)

وكذلك يقول سبحانه وتعالى في جدل هذه النفس عن نفسها بما كسبته وارتهنت به من الأعمال ، خيرها أو شرها ، يوم الحساب .

« يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » . (النحل : ١١١)

فالظاهر والجلي من هذه الآيات ، وأمثالها مما لم ترد فيه قط في موضع كلمة « نفس » للدلالة على الإنسان كلمة « روح » أنه لا موضع في مجال الحديث عن القوة الواعية أو الغافلة الدالة على الإنسان ، ومسئوليته ، ومراحل خلقه وحسابه ، لهذا الازدواج بين كلمة « نفس » وهذه الكلمة الأخرى التي حشرها الجهال والمضللون بالترجمة الخاطئة لكلمة « آتمان » بالهندية ، وكلمة Spirit في اللغات الأوروبية ، والتي زعموا بالجهل والتضليل ، وفي تيار خطر للتناقض مع الإسلام والدين الحق ، أن ترجمتها إلى العربية هي كلمة « الروح » !

إننا هنا نبدأ فنكشف الستر عن هذه الخطيئة العقلية ، والجهالة الشعوبية الأعجمية التي وقع فيها بالجهل أو بالعمد ، أو بهما معاً ، هؤلاء الذين انطمست فطرتهم ، وغابت عقولهم ، فزعموا تحت مؤثرات أعداء الإسلام والمسلمين أن كلمة « آتمان » بالهندية تعني كلمة « روح » بلغة العرب ، بينما هي تعني « نفس » بهذه اللغة . وزعموا أن كلمة Spirit باللغات الأوروبية تعني أيضاً كلمة « روح » بلغة

العرب ، بينما هى لا تعنى — كما رأينا فى الدلالة على الإنسان —إلا « النفس » .

وهذا الدليل نجده واضحاً فى المعاجم الأوروبية المتداولة بين الأوروبيين أنفسهم ، والتى تعنى برد الكلمات بعد شرح معانيها المتعددة إلى أصولها القديمة فى التراث الأوروبى من اللغتين اليونانية واللاتينية ، مثل معجم أوكسفورد باللغة الإنجليزية ، وهى غير هذه المعاجم « الإنجليزية العربية » التى يتداولها المتعلمون العرب منذ العصر الاستعمارى بمؤثرات وتوجيهات استعمارية ، والتى تضللهم بادعاء أن كلمة فلسفة مثلا وهى مجرد أوهام وظنون تتناقض مع كل من الإيمان والعلم ، إنما تعنى : « الحكمة » .. بمفهومها فى كتاب الله ، ولغة العرب .. وكذلك الادعاء بأن كلمة Spirit تعنى : « روح » .. بينما هى تعنى : « النفس » .

فى معجم أوكسفورد المختصر فى شرحه لمعانى كلمة Spirit ، وبعد أن يذكر لها أكثر من معنى مستمد من دلالتها بمعنى « النفس » فى اللغة العربية ، مثل الذكاء ، والشعور ، والقوى العقلية ، والأخلاق ، وما ليس شيئاً مادياً محساً إلى آخره . فإنه يقرر أن الأصل اللاتينى لهذه الكلمة هو Spiritus ومعناه Breath أى « نفس » أو Breathe « يتنفس » .. ! !

إذن .. وهكذا بكل وضوح ، تتفق كلمة Spirit الإنجليزية.. ومثيلتها من اللغات الأوروبية ، مع الأساس الاصطلاحى لمعنى كلمة « نفس » الدالة على الإنسان فى اللغة العربية ، أقدم اللغات فى العالم ،

والتى نقلت عنها أكثر لغات العالم ، هذه الدلالة التى تعتمد على أن للإنسان فى بدنه « نفساً » ؛ لأن أقرب الدلالات على حياته ، وعلى مسئوليته عن هذه الحياة ، هو « نفسه » وهو « تنفسه » .

ولاشك أن كلمة آتمان الهندية ، والتى نسب إليها الهنود البراهمة الوثنيون وأصحاب فلسفة « الحلول » ومذهب « إلغاء العقل » ، والتسابق إلى « الفناء » — اسم إلاههم « برهمن » أو « يريم آتمان » لا تعنى إلا معنى « النفس » بلغتهم ، وليس معنى « الروح » بلغة القرآن الكريم ، ولسانه العربى المبين ، وهى الكلمة التى لا يرقى إليها فكرهم الوثنى ، الحلولى المنفصم ، بإلغاء العقل ، وإلغاء الحياة ، عن واقع الحياة .. هذا الفكر اليوجى الخرافى ، المتماوت ، الذى زعموا به أن إلاههم الأعظم « برهمن » أو « يريم آتمان » بمعنى « النفس العليا » أو « النفس الأولى » يحل بأجزاء من « نفسه » فى كل شىء من مخلوقاته ، حتى فى أجسام الفيران والحيات والصراصير ، ولذلك — ومن أجل حلوله فيها — يحرم البراهمة قتلها .. وإن كانوا بذلك — وهم لا يعقلون — قد فتحوا أوسع الطرق — كما يشهد تاريخهم الأليم إلى اليوم — لقتل أنفسهم بهذه الحيات والفيران الطليقة من حولهم .. وبمثل تحريمهم للعقل ، وللعمل ، وللطعام .. من أجل « الفناء » أو من أجل « النيرفانا » .. وقتل أنفسهم ! ! !

إذن فالازدواج بين كلمتى نفس وروح معاً كما أراده الجاهلون والمضللون — ليس إلا وهماً لا يثبت أمام البرهان فى اللغة العربية ،

وأما فى اللغات الهندية والأوروبية فإن الازدواج الذى يقع فى الإنجليزية مثلا بين كلمتى Spirit بمعنى نفس و Soul بمعنى نفس أيضاً لا يدل على أن الفروق واسعة أو غير متكافئة بين الكلمتين ، ذلك أن كلمة Soul تعنى قريباً من معنى كلمة Spirit : إنسان ، وما ليس مادياً من الإنسان ، وحياة ، وعقل ، ونشاط ، وموضع الذكاء والشعور من الإنسان ، والجزء الراحل من الإنسان بعد الموت . . الخ .

إن الفرق بين معانى ودلالات الكلمتين لا يكاد يحس ، فالمعانى بينهما تكاد تكون مترادفة فيما عدا الدلالة على « التنفس » فى كلمة Spirit ، وهو فرق لا يكاد يحس ، كهذا الاختلاف الواسع وغير المتكافئ بين دلالة كلمتى « نفس » و « روح » بالمعنى الجلى والمحدد بين كل من الكلمتين فى القرآن الكريم ، ذلك أنه بما لا قياس له فى أى لغة من اللغات الهندية ، أو الأوروبية ، أو اللغات البشرية الأخرى يتحدد تباين المعنى فى الكلمتين بالقدر الذى هو بغير حدود بين المخلوق والخالق .. بين الإنسان والله !

ومرة أخرى نزيح من بعض كثافات الوهم المطبق على الحق الأبلج للمعنى القرآنى لكلمة « النفس » منزهاً بحدود الدين القيم عن أى خلط بين النفس والروح فى كتاب الله الحكيم . وذلك بأن نكشف من ماضى الفلسفة اليونانية فى حياة الإغريق الأوائل ، حفدة الهنود على أرض أوروبا ، عن هذه الحمأة الأسطورية التى غرقت فى أوهامها ، ونقائصها ، ومتاهاتها ، كل معتقدات وتصورات اليونان الأوائل عن الحياة ، والكون ، والإنسان ، وما وراء الحياة والكون والإنسان ،

ونعنى بذلك هذا الاعتقاد الذى سيطر طويلا على الحياة اليونانية والرومانية ، وعلى حياة من حولهم من الجرمان والسكسون والفرنسيين الذين نقلوا عنهم ، والذى يتوهمون به أن لكل عنصر من عناصر الطبيعة ، أو ظاهرة من ظواهر الحياة ، مثل الزمن ، والنهار ، والبحار ، والغابات ، والمراعى ، والحروب ، والحب ، والجمال ، والعشق ، والفلسفة .. إلخ « روحاً » أو « أرواحاً » ، أى قوى غامضة بمعنى « آلهة » واجبة العبادة والتعظيم فى هذا الاعتقاد ..!

هذه العبادة القديمة لآلهة الطبيعة ، فى المذهب المسمى « مذهب عبادة الطبيعة » والمعروف والشائع إلى اليوم منذ عصر ازدهار خرافاته وفلسفاته وهلوساته فى حياة اليونان والرومان الأوائل ، والذى تدل عليه كلمة Animism من كلمة Anima باللاتينية بمعنى نفس أو حياة — هذا المذهب الوثنى الخرافى الذى سقطت فى حمأته الأفكار الأوروبية القديمة إلى « شوشتها » هو الذى فتح طريق التلبيس والتدليس منذ عصر الشعوبية الفارسية ، وفى حمى الهذيان فى عصر الخلفاء العباسيين بفلسفات الهند واليونان باسم التفلسف الإسلامى ، لكى تضاف كلمة « روح » فى العربية إلى كلمة « نفس » ، على أساس أن كلمة « أرواح » أو آلهة الطبيعة ، كما عبدها اليونان صاغرين ، وفى قصور مدركاتهم عما هو أفضل — تساوى عند المسلمين كلمة « روح الله » الذى نفخ من روحه فى عناصر الإنسان ، فكانت بأمره حياة هذا الإنسان ! .. وشتان — لو كانوا يعقلون — بين آلهة الطبيعة وأرواحها

الوهمية فى اعتقاد الفلسفات الوثنية . . وبين الله الواحد الحق ، الذى لا تتحرك الطبيعة بكل عناصرها فى السماوات والأرض إلا بأمره ، فهو الذى خلقها ، وهو الذى أجرى فيها سننه وأحكامه لتسعى فى هذا الكون بسننه ، كما أنها لا تخرج فى حركتها وغاياتها عن مشيئته سبحانه .

شهوة التأويل ، وفتنة المتشابه :

يقول الله تعالى لرسوله :

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ » . (آل عمران : ٧)

فهذه الشهوة للتأويل فى عجمة الأعاجم عن الحق ، وولعهم بالباطل ، وجدت الطريق لتنفث فيه بفتنتها بأفواه هؤلاء المتفلسفين والمتعالمين فى عصر الدولة العباسية ، التى حكمها الشعوبية من الفرس فى الظاهر والخفاء ، وهى فتنة التأويل لقوله تعالى :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ». (الحجر : ٢٨ ، ٢٩)

من المتشابه أمامهم فى هذه الآية الكريمة وهو قوله تعالى « ونفخت فيه من روحى » وجدوا ما زعموا أنه المعنى « المتطابق » مع صورة الإله الوثنى الهندى « برهمن » وهو يحل بروحه أو بأثمانه فى كل الأحياء والأشياء ، وأنه بذلك يترك « جزءاً » منه أى من نفسه فى كل شىء ، وفى البشر ، وهنا — بمفهوم هذا « النفخ من روح الله » فى تأويلهم يظهر بزعمهم ما لم يكشف عنه القرآن الكريم ، وما لم يعلمه المسلمون على عهد الرسول والصحابة الأولين ، وهو أن للإنسان نفساً وروحاً معاً ، وأن لهذه الروح من « العجائب » و « الخوارق » فى حياة الإنسان ، وبعد موته ، ما لم يكن للمسلمين عهد به فى أزهى وأصدق عصورهم ، وأن عليهم — منذ اندلاع الشرر الأول لهذه الفتنة — أن يعدوا أنفسهم لعالم جديد يتصاعد بالتهاويل ، والعجائبيات ، والأساطير .. عالم الروح .. والروحانيات .. ومخاطبة الموتى .. وتحضير الأرواح .. والكشف . . والحلول .. كما سنأتى على تفصيل أهواله ومخاطره التى أحدقت بالمسلمين وفرقتهم فى الإجابة عن السؤال الثالث إن شاء الله ..!

وهكذا جعلوا من قوله تعالى : « وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى » .

متشابهاً فى معنى الآية الكريمة يفتح للزيغ المتوارث بالوثنيات والفلسفات القديمة قبل الإسلام مجال ابتغاء الفتنة بالتأويل . وأى تأويل يبلغ بفتنته من الجرأة على الله ، وعلى الحق ، وعلى العلم والدين واليقين ،

من هذا الزعم بأن لله « فماً » ينفخ به من روحه ، التى يوزعها جزءاً جزءاً ، أو قبسة قبسة ، أو نفخة نفخة ، على عباده من البشر ، فتكون لهم بذلك فى أبدانهم « أنفس » بشرية .. و « أرواح » إلاهية !!

إنه بهذا الزيغ المتجرد بكل نقائصه يضعون الله الحق، الواحد الأحد ، المنزه عن الشريك والشبيه ، فى صورة الإلاه الوثنى الهندى « برهمن » المحدود بحدود بشريته فى تماثيله وصوره ، والسائد بنقائصه وتناقضات أوصافه على أتباعه الأذلاء به ، والموثى فوق أنقاض العقل وواجب العمل، فى حضرة أساطيره .. فهل مثل استفحال هذا الزيغ المستبشع ، وعبر الإذعان من غير رشد لتدليسات فرق الزنادقة المنتسبة زوراً إلى الإسـلام ، مثل « الراوندية » و « البابكية » و « السبئية » و« الإسماعيلية » — مما يعين المسلمين فى هذا العصر على أن يتجاوزوا تخلفهم ، وتفرقهم ، وشتاتهم ، وغفلاتهم ، ليعودوا إلى الله الحق ، وإلى كتابه المنير ، وإلى أسوة رسوله الكريم ، فتعود لهم بهذه الصحوة إلى مصادر حياتهم أسباب وحدتهم ، وتقدمهم ، وألفة قلوبهم ، وإشراق غاياتهم .؟!

إن آية « النفخ من روح الله » هى ولاشك بيان تقريبى من الله إلى عباده بالتصور الأقرب إلى مدركاتهم ، من تحول العناصر الساكنة بالنفخ إلى أحياء متحركة ، بعيداً عن واقع « النفخ » من الفم ، لتصل قوة الخلق ومشيئة الله به ، وسننه فيه إلى المخلوق .. وإلا فإن

الله سبحانه وتعالى يقول من آية خلقه المسيح من غير أب ، كما خلق آدم من غير أب ومن غير أم .

« وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ».
(التحريم : ١٢)

فهل يصح فى وعى هؤلاء المرجفين الفاتنين بفتنة « الروح البشرية » أن الله سبحانه — وحاشاه — فمأ ينفخ به للأحياء والخلق ؟ وأن أمره بإحياء المسيح عليه السلام من غير أب كان بنفخه — سبحانه وحاشاه — فى فرج أمه الطاهرة البتول « الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا » .. ؟ !

وهل كان المسيح ، وهو عبد الله وآيته ، عندما شاء الله أن يمن عليه فى مواجهة كبرياء وطاغوت المكذبين له من الأحبار اليهود .. فجعله كما جاء فى قوله تعالى على لسانه إلى بنى إسرائيل :

« قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ . وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ » . (آل عمران : ٤٩)

هل كان المسيح وهو ينفخ فى الطين بفمه ، إنما يهب الطين من روحه ما يصبح به طيراً بقوة روح المسيح .. أم إن هذه الآيات كلها وهى من قدرات الله ، ومن نعمته على عبده المسيح ، كانت

« بإذن الله » أى بأمر الله .. ومشيئة الله .. التى لا تحتاج إلى نفخ بالفم . بل إلى محض مشيئته تعالى ، وقوله للشيء إذا أراده : كن فيكون .. كما جاء فى قوله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ » .

(يس : ٨٢)

نعم .. ليس لله سبحانه — فم ينفخ به من روحه ، بمعنى أنه يوزع ويهب من أجزاء روحه بالنفخ منها فى عناصر البشر ليكون خلقهم ، وتكون حياتهم ، بهذه « الأجزاء » الممنوحة لهم — زعما ووهماً — من روح الله .. بالإضافة إلى أنفسهم !

وحقاً جلياً فى نور القرآن ، ورؤية العقل ، ويقين الدين والعلم ، ليس لله فم كأفواه البشر ، ينفخ به للخلق ، كما أنه تعالى ليست له أيد كأيديهم ، ولا أعين كأعينهم ، وليس له عرش يستوى ويجلس عليه كما يستوى ملوكهم ، من أجل أن يدير ملكه ويباشر سلطانه .. وذلك فى مثل ماورد من هذا البيان التقريبى إلى تصور البشر مما يتنزه الله عنه بكل كماله ، وفى غير المحدود من علمه وغيبه وذاته .. فى هذه الآيات :

« وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ »

(الزمر : ٦٧)

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» . (طه : ٣٩)

«فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا» .

(المؤمنون : ٣٧)

«الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ» . (طه : ٥)

نعم .. مرة أخرى .. حقاً وصدقاً .. ونوراً وهدى .. وبياناً ويقيناً.. وعلما ودينا . . ليس لله — سبحانه — فم ينفخ فيه — كما تنفخ آلهة الخراصين من أمثال « برهمن » — أجزاء من روحه فى خلقه ، وإنما هو — سبحانه — يأمر بأمره .. فيكون الخلق بأمره .. و« أمر الله » كما جاء به نص القرآن الكريم هو المعنى المحدد لكلمة « روح الله » فى جميع المجالات التى لاحدود لها فى طاقة عقل الإنسان ، وفى حدود حواسه ومدركاته .. وفى هذا النص المحكم الجلى يقول تعالى إجابة لكل السائلين :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . (الإسراء : ٨٥)

والمعنى : إن الجواب عن سؤال : ما هو الروح .. فى مثل قوله تعالى :

«وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» . (النساء : ١٧١)

« يُلقِى الرُّوحَ مِن أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِن عِبادِهِ » .

(غافر : ١٥)

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا . . » .

(الشورى : ٥٢)

الجواب هو أن « الروح » أمر الله ومشيئته .. وهو الأمر الذى ما أوتيتم من العلم به أيها المؤمنون إلا قليلا ، لتتبعوا بهذا العلم سلطان الله فى تدبير هذه الحياة ، وحفظ سننها ، والإشراق بحكمة الله فى كل متغيراتها ، وتتابع مراحلها ..

فمن أمر الله ، ومن روح الله ، أمره الظاهر فى الخلق المتجدد ، وأمره تعالى بإحياء الأمم بالرسالات التى أرسل بها الرسل إليها .. وأمره بنزول القرآن الكريم .. الذى هو منذ نزوله ذكر الله الباقى فى الأرض، ورحمته للعالمين ..

وفى أن روح الله هو « أمره » غير المحدود فى ملكوت السموات والأرض ، وفى أنه لا يحتاج فى واقع هذا الأمر إلى « فم » وإلى « نفخ بالفم » .. وإنما هو محض الأمر الذى لا يعلم عنه الإنسان فى حدود علمه ورؤيته إلا القليل .. يقول تعالى :

« أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

(الأعراف : ٥٤)

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ» .

(يس : ٨٢)

«وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» .

(البقرة : ١١٧)

«وَمِن آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ» .

(الروم : ٢٥)

«يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» .

(السجدة : ٥)

«تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ» .

(القدر : ٤)

روح الله إذن ، بكل الجلاء ، وإلى كل من ألقى السمع وهو شهيد ، إنما هو أمره الذى لا يحده علم البشر . وهو أمره الذى لا يعلم به أحد من خلقه ، إلا بما شاء الله من قدر هذا العلم ، وما هداه إليه من غايته ، وما حفظه عليه وزاده منه فى رحمته .

ولئن كان بعض المتهوسين من « محضرى الأرواح » بالشعوذة والدجل قد زعموا للمخدوعين بهم أنهم قد وزنوا « روح الإنسان » أى ما هو نفسه ، فإن هذا الإفك لن يغنى فى باطله شيئاً عن كل

من الخادعين والمخدوعين ، وما هم جميعاً ببالغين به شيئاً من كبر أنفسهم ، أو سراب أوهامهم ، إلا أن يهديهم الله إلى الحق فى كتابه بأيديهم ، وفى آياته من حولهم ، وفى أنفسهم ، فيرجعوا من الكبر إلى التقوى ، ومن الوهم إلى اليقين ..

«وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» .

(يوسف : ٢١)

وسبحان الله رب العالمين

* * *

يصدرها
المركز الثقافى
المقاولون العرب



السؤال الثانى :

فى القرآن الكريم تأتى كلمة « الروح » فى نص محكم بأنها من أمر الله ومشيئته كما قال الله تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا » . (الإسراء : ٨٥)

وفى القرآن الكريم لا تأتى كلمة الروح إلا منسوبة لله تعالى بمعنى « أمره ومشيئته » وذلك فى مثل قوله تعالى :

« فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ » .

(الحجر : ٢٩)

والمعنى : إذا هيأته للحياة من عناصرها فيه ، وألقيت فيه أمرى ومشيئتى بحياته . . وليس النفخ بمعنى بشرى حسى ، أى النفخ بهواء فيه قدر من روح الله فى جسم الإنسان كما يتردى الجاهلون فى الفهم .. وحاشا لله الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

ومثل هذا الأمر من الله ، بمعنى روح الله ، يكون أمره تعالى بالوحى الذى هو حياة البشر بالإيمان وذلك كما هو فى قوله تعالى :

« يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ » .

(غافر : ١٥)

كذلك فإن كلمة الروح فى القرآن الكريم تأكيداً لمعناها المبين وهو «أمر الله ومشيئته» لا تأتى قط فى حال الجمع أى « أرواح » ذلك أن أمر الله الذى لا يحيط أحد بعلمه واحد .. كما أن كلمة روح أو أرواح بالمعنى البشرى فى أوهام الواهمين لم ترد قط فى القرآن الكريم ، بل الكلمة الصحيحة بالنسبة لما أودعه الله فى خلق الإنسان من أمره إنما هو نفسه .. وليس غير نفسه ..

إذا كان كل هذا من الحق المحكم فى كتاب الله . . الحق الذى لا يقبل الفتنة بالمتشابه أو التأويل .. فكيف تضيف من رأيك ما تعزز به هذه الحقيقة ، فى وجه هـــذا الاستعمال السائد لكلمة الروح فى الثقافة الدينية والأدبية المظلومة . . بغير علم ولا هدى .. ولا كتاب منير ؟

الإجابة :

وفى هذا السؤال الثانى حول ما يجب على المسلمين من المبادرة بتصحيح فهمهم لكلمة « الروح » كما جاء بها القرآن الكريم ، وحيث لم تكن « الروح » منسوبة فى آياته إلا لله وحده — يمضى منهج السؤال كما فى السؤال الأول — إلى تقريب الإجابة الصحيحة من فهم القارىء واقتناعه حتى لتكاد أن تكون بأكثر براهينها فى متناوله ، ومضيئة له أمام رؤية عقله .

وفى الآيات الكريمة التى أوردها السؤال لتأكيد أن كلمة « الروح »

لا تأتى فى القرآن الكريم إلا منسوبة إلى الله ، ودالة على أمره ومشيئته ، فى كل مجالات الخلق والإحياء التى يظهر بها أمره ومشيئته .. فى هذه الآيات ينفتح الطريق أمام المجيب والمتدبر ليتأكد من هذه الحقيقة القرآنية التى تعرضت على أيدى الشعوبية ، وفى أوهام المتفلسفة باسم الإسلام ، لمحاولات الطمس والتحريف ، بينما هى ، ومنذ نزل القرآن الكريم ، وبامتداد إشراقه بغير انقطاع ، لا تزال مضيئة فى مواضعها من كتاب الله ، وباتجاه عقلاء المؤمنين ، فوق هذه المحاولات الأعجمية الدائبة لهذا الطمس والتحريف .. ونعنى بها حقيقة أن كلمة « الروح » فى كل ما وردت به فى آيات القرآن الكريم ليس لها إلا معنى واحد هو « أمر الله ومشيئته » .. ومن هنا ، وبهدى الله، أبدأ الإجابة .

الروح فى اللغة :

احتشدت المعاجم كعادتها فى معنى كلمة « الروح » بالصحيح ، والخطأ ، والمتناقض ، والغريب ، وذلك لأن هذه المعاجم فى غالبيتها جهد عدد من علماء الأعاجم فى جمع كل ما فى وسعهم جمعه من الروايات عن المعانى المرتبطة باستعمال كل كلمة من كلمات اللغة ، دون أن تتاح لهم فى كل هذا الحشد من المعانى المتباينة قدرة التمحيص لها ، ودقة الحكم على الصحيح منها ، ونفى الخاطىء والمتناقض والغريب، وبخاصة إذا ما كانت الكلمة المشروحة من الكلمات التى جرى فى فهمها الابتداع والتأويل على مذاهب ونحل الشعوبية الأعجمية فى

مراحل تخلف الحضارة العربية الإسلامية ، مثل كلمة : « الروح » .

ففى معجم القاموس المحيط للفيروزابادى يرد فى قوله الصحيح لمعنى كلمة « الروح » أنه : حكم الله وأمره .. وأنه بهذا المعنى يكون هو الوحى وجبريل .

ويرد فيه من المعنى المبهم قوله عن الروح : ما به حياة الأنفس . فإن كان يقصد أن أمر الله بحياة الأنفس البشرية أى البشر ، هو مصدر حياتهم ، فهذا حق .. وأما إن كان يقصد المعنى الدخيل من المعتقدات الهندية ، وهو أن للإنسان نفسا وروحاً معاً ، وأن نفسه تحيا بحياة روحه ، فهذا خطأ ..

ويرد فى هذا المعجم من المعنى الخطأ قوله أن الروح تعنى النفخ ..!

ويرد فيه من المعنى الغريب الذى تختلط فيه التصورات بغير فهم قوله إن الروح : ملك وجهه كوجه الإنسان ، وجسده كالملائكة .. فهل للملائكة أجساد .. ؟!

وندع هذا إلى أصل كلمة الروح فى اللغة وهى فى بنيتها الأولى من الفعل الثلاثى راح : يروح .. بدلالة الحركة ، ومن الفعل الثلاثى راح : يراح .. أى تنشط أريحيته ، وتتنور قواه للمعروف والحق .. أى إن الأصل هو : الحركة النشطة المتنورة باتجاه الحق والقيام به .

ومن هذا الأصل اللغوى كانت كلمة : « الروح » .. بمعنى الراحة والرضى ، والرحمة ، ونسيم الريح . ومنه أيضاً كانت كلمة « الريح »

الجامعة لكثير من المعانى الإحيائية فى حياة البشر على الأرض ، فى أخطر ما تتشكل به حياتهم عليها كل يوم ، من التنفس ، ومن حركة الرياح التى تحمل السحب ، وتسقط بها الأمطار ، وتجرى من هطولها الأنهار ، وتحيا الأرض بعد موتها ، ويحيا البشر ، ويحيا كل شيء على هذه الأرض ..

كلمة الريح إذن بهذه الصفات والغايات تعنى حقاً ، وكما جاء فى المعاجم ومنها القاموس المحيط للفيروزابادى ، أنها : القوة ، والرحمة ، والنصرة .. وهذه هى المعانى التى شاء الله الحكيم أن يجعلها أساس الدلالة على « أمره ومشيئته » فى الكلمة التى أنزلها الله فى كتابه العربى المبين للدلالة على هذا الأمر وهذه المشيئة ، فى الإحياء والتدبير ، والرحمة والنصرة ، وهى كلمة : « الروح » . .

وفى هذه الصفات التى كانت فى الرياح — كما شاء الله — بشريات بهذه الصفات التى يمضى بها أمره ومشيئته فى الأشياء ، وكما اختار سبحانه لهذه الصفات من أمره فى كلمة « الروح » للدلالة على هذا الأمر بأقرب ما يتيسر علمه وإدراكه للمؤمنين .. يقول تعالى :

«وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ » .

(الفرقان : ٤٨)

ويقول سبحانه :

«وَاللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذٰلِكَ النُّشُورُ» . (فاطر : ٩)

«وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» .

(الجاثية : ٥)

ويقول سبحانه :

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ» .

(الروم : ٤٦)

ويقول تعالى عن الماء الذى هو مصدر الحياة بأمره ومشيئته كما تحمله وتثيره وتوزعه الرياح :

«وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» .

(الأنبياء : ٣٠)

روح الله ونشأة الحياة :

هذه الحركة الدائبة بسنن الله فى إحياء الحياة كما يراها المؤمن المتدبر فى كل شىء فيه ، وفى كل شىء من حوله مرجعها إلى أمر الله ومشيئته ، أو إلى « روح الله » بمعنى أمره ومشيئته كما ورد بذلك نص القرآن

الكريم . وعن بداية هذا الإحياء للبشر بأبدانهم وأنفسهم من عناصر الأرض ، ومن حيث لا يتسع علم المخلوق ليعلم كيف خلقه الخالق ، يقول تعالى عن بداية خلق الإنسان بأمره :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ »

(الحجر : ٢٨ ، ٢٩)

والمعنى أن الله سبحانه أوحى بأمره وسننه فى الصلصال والحمأ المسنون من عناصر الأرض لتكون هذا الإنسان ، الذى كرمه وابتلاه لآخرته فى دنياه ، وأن « روح الله » هو أمر الله بهذا الخلق والإحياء ، وأن النفخ ليس نفخاً بالفم لهواء يدخل فى البدن باسم الروح كما توهم الأعجمون ، وإنما هو إيداع لسنن الله التى يحيا بها ويموت ، ويتحرك بها ويسعى ، ويهتدى بها أو يضل ، ويبعث بها ويحاسب . وأن سجود الملائكة كان لله تسبيحاً له أمام آية من آياته ، وليس سجوداً لهذا الإنسان فى ذاته .

ولما كانت حياة هذا الإنسان بالإيمان هى حكمة الله من خلقه ، فقد كثرت الآيات التى يظهر فيها روح الله ، أو أمره ومشيئته ، بهذه الرحمة منه بإحياء الإنسان برسالات رسله ، ووصايا كتبه ، وأحكام شرعه . فالإنسان بغير الإيمان ميت وإن تحرك وتبختر ، ورميم وإن تزين وتعطر ، وفى هذا يقول سبحانه عمن أحياه الله بنور الهدى والإيمان :

«أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» . (الأنعام : ١٢٢)

وهكذا يرد الروح من أمر الله بإحياء عباده برسالاته إلى الرسل وذلك حيث يقول تعالى :

«يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» . (غافر : ١٥)

ويقول سبحانه لنبيه المصطفى وخاتم النبيين وفيه بجلاء أن روح الله هو أمره :

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» . (الشورى : ٥٢)

ومرة أخرى فى عامة هذا الأمر بالإحياء للبشر بالإيمان يقول سبحانه من معنى تنزل ملائكته بهذا الروح من أمره ، أى بهذا الأمر بالإحياء الدينى بمشيئته على من يشاء من عباده :

«يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ».
(النحل : ٢)

ويأتى « روح الله » بمعنى أمره بزيادة قوة من يشاء من عباده بزيادة إحيائه لهم بالإيمان والهدى ، وذلك فى قوله تعالى عمن أخلصوا إيمانهم بالله فأحبوا من أحبوه ، وهجروا من كفروا به ، ولو كانوا أقرب الناس إليهم من آبائهم وأبنائهم وعشيرتهم :

« أُولٰئِكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ » .

(المجادلة : ٢٢)

ويقول تعالى فى تأييده للمسيح عيسى بن مريم بروح القدس أى بزيادة حياته بالإيمان الذى يقدسه أى يطهره من أية شوائب للضعف أمام منكرى رسالته ، ومن تجاوزوا الحد فى تكذيبه ، وفى الكيد له ولحوارييه :

« وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » .

(المائدة : ١١٠)

وأما عن قوله تعالى :

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » .

(المعارج : ٤٠)

فإن معناه بما لا يخرج عما سبق من معنى « روح الله » أن مشيئة الله بالإحياء والخلق ، والإحياء بالهدى والرسالات والكتب ، وماتمضى به سنن الله بهذه المشيئة فى تدبير الخلق هى أمر دائب ملء السموات والأرض ، لمشيئة الله « ذى المعارج » .. الله الذى لا يعزب عن علمه « من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر » بما يقرب للإنسان قدرة الله ، ورحمته ، ومشيئته فى كل شيء ..

وأما عن قوله تعالى :

«يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا» . (النبأ : ٣٨)

فهذا موقف يشهده الناس يوم القيامة ، إذ يستعيدون فى أنوار البعث ، التى تسقط وراءها الغفلات والشهوات والتكذيبات ، حقائق ما كان من أمر الله ، وروح الله ، فى إحيائهم بالخلق والعقل ، وبالوحى والرسالات ، وبالحكمة والرحمة والتدبير لكل شىء ، شاهدة عليهم ، وقد حضرت كتبهم وأعمالهم لتتكلم عنهم ..

جبريل والتنزيل :

وننتقل مع مزيد من الإيضاح حول هذه الحقيقة التى نفصلها من كتاب الله عن المعنى المحكم لكلمة « الروح » كما نسبها الله فى القرآن الكريم إليه ، وذلك عندما نتناول بهذا الإيضاح معنى كلمة « جبريل » الذى ينص القرآن الكريم على أنه ملك ، وعلى أنه كان هو « الروح الأمين » الذى نزل بوحى الله العليم على قلب النبى الكريم بآيات القرآن الحكيم ، وكما ورد فى جميع المعاجم والتفاسير من معانى كلمة « الروح » عندهم أنها جبريل .

ونبدأ — بعيداً عن أى خيال — بأن نرد كلمة جبريل إلى جذورها اللغوية التى لا تزال ظاهرة لأعيننا وعقولنا — وإن تناساها فى خيالاتهم أكثر المفسرين ، وذلك بأن نقول إنها — كما هو ظاهر — مؤلفة من كلمتين : كلمة « جبر » وكلمة « إيل » .

أما « جبر » فكلمة معناها : الأمر الذى لا خيار فيه لأحد ، وأما « إيل » فهى كلمة تعنى « الله » كما تداولها العرب فى عدد من أقطارهم فى عصر اللغة الأول . وإذن فالمعنى الكامل بضم الكلمتين هو « جبر الله » .. فماذا يعنى جبر الله غير « أمر الله » .. وهل هناك غرابة بعد هذا فى أن يكون « جبر الله » أى « أمر الله » هو « روح الله » .. وأن يتضح من ذلك أن كل الملائكة هم من « أمر الله » الموجه بحكمته ورحمته وقدرته فى كل وجهة باتجاه الإحياء بالخلق ، والأحياء بالهدى ، والتدبير والقيام على كل شئ وكل أمر .. ؟ !

وفى ضوء هذا المعنى المشرق بحقائقه يمكن أن نفهم على الوجه السليم من تدبر كتاب الله باللسان العربى المبين قوله تعالى :

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » (البقرة : ٩٧)

والمعنى أن من كان عدواً لأمر الله الذى أنزله الله على قلبك فى صورة هذا الملك ، أى هذا الأمر الذى نزله الله على قلبك ، وكيفما تمثلت لك صورة هذا الأمر لتقرب إلى بشريتك ، فإن الله عدو لهؤلاء الكافرين الذين يمارون فى أمره ، ولا يصدقون الوحى الذى نزل منه به .

ويقول تعالى أيضاً عن جبريل ، أو روح الله وأمره بالوحى والتنزيل :

«وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ» . (التحريم : ٤)

والمعنى أن حسب النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون الله — فى أى خلاف عن رأيه — هو مولاه ، وأن يكون ظهيره « جبريل » أى « أمره إليه » .. كيفما تمثل له هذا الأمر ، وكذلك الملائكة الذين هم « سنن الله » وظواهر أمره فى تدبير الخلق ، وإحياء الحياة ، والذين لا يعلم أحد من البشر بعلم هؤلاء الملائكة ، إلا بما أنبأ الله عنهم فى كتبه ، أو بما زاد فيه سبحانه من علم بعض عباده ورسله ..

روح الله ونفس الله:

ونتنقل مع بيان القرآن الكريم ، ومحكمات آياته ، لنصل إلى قول الله الفصل فى المعنى العام لكلمة النفس فى مقابل المعنى الخاص لكلمة الروح ، أى روح الله بمعنى أمره ، ومشيئته ، وقدراته على الخلق والتدبير بما ليس لأحد سواه . وذلك فى موقف هذا السؤال والجواب بين الله وبين رسوله المسيح عيسى بن مريم :

« وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» . (المائدة : ١١٦)

الآن نجد أن كلمة « النفس » فى حال دلالتها على معنيين غير متساويين فى الآية الكريمة ، وهما نفس « الخالق » ونفس « المخلوق » إنما تقدم من بيان اللغة العربية المبينة هذا المعنى العام لهذه النفس ، وهو « الذات » .. وفى ضوء هذا المعنى نكتشف الصحيح مما غاب عن الكثيرين ممن خلطوا ومزجوا على الطريقة الهندية فى حديثهم عن النفس والروح ..

إن « النفس » فى هذه الآية الكريمة فى دلالتها على « ذات الله » فى معنى « نفس الله » لا تعنى أن ذات الله الخالق .. هذه الذات المحتجبة بنوره ، والبعيدة والمعصومة عن قدرة الإحاطة بها بخلقه ، هى مما يمكن تحديده .. وإنما تعنى أن « ذات الله » هى الظاهرة للمؤمنين بقدر علمهم فى أنه الخالق المسيطر بمشيئته على كل شىء .. الخالق الذى له الخلق والأمر .. ومنه البدء وإليه المـآب .. ومعنى هذا أن نفس الله كما يراها المؤمنون فى أنوار قدرته ، وعلمه ، ورحمته وحكمته ، وخلقه وأمره هى « روح الله » الذى يعنى أمره تعالى بالخلق والإحياء ، وبالهدى والنصر لمن يحبهم بالإيمان ، وبالتدبير لحركة كل شىء فى السموات والأرض ..

إذن فمعنى « نفس الله » فى هذه الآية الكريمة هى فى حدود ما يدركه المؤمنون الصادقون من قدراته وآياته وآلائه هى : « روح الله » ..

وبهذا القياس الدقيق نجد أن « نفس الإنسان » أى «ذات الإنسان» إنما هى كل ما أنعم الله به على هذا الإنسان بقدرات نفسه من : فطرة

وعقل ، ومن سمع وبصر ، وتذكر وتفكر ، وإنابة وتدبر ، لكى يطيع الله المنعم ، والخالق المحيي ، والهادى المحسن ، فى كل ما نزل عبر الرسالات والكتب إليه .. أى فى كل ما نزل إليه من وحى الله ، وأمر الله ، وروح الله ..

ومعنى هذا بكل وضوح أن الإنسان بهذه الأمانة التى يحملها باتجاه الله الخالق المنعم ، إنما يحملها بنفسه .. وليس بروحه — باتجاه ما نزل إليه من « روح الله » الذى هو « أمر الله » .. وليس أمر أحد من الخلق سواه ..!

الأنفس بعد الموت :

والآن .. إلى أين تذهب هذه الأنفس البشرية — وليس أرواح البشر — بعد الموت .. وقبل البعث ؟ نعم .. ماذا قال الله بشأنها من أمره الحكيم ، وماذا قضى به فى أمرها المعلوم ، حتى لا يتخبط المرجفون فى أمرها من رهائن العجمة ، وقعائد الأسطورة ، من الذين زعموا ولا يزالون يزعمون أن لأنفس البشر قرائن من « الأرواح » تخرج من الأجساد بعد الموت ، ثم تمضى هنا وهناك بحسب ما سالت به ظنونهم ، وجرت وراءه أوهامهم ، حتى يبلغ اللجاج ببعضهم فى طاغوت هذا الباطل أن يأخذوا بأحدث أوهام الغرب وعبثه ، حين يصدقون شعوذة بعض مشعوذيه بادعاء « تحضير الأرواح » .. أى بادعاء قدرتهم على استدعاء « أرواح » الموتى من مسارحها المزعومة بعد الموت ، لكى « يتاجروا » باستنطاقها وهى « تحل » فى أجسام

« الوسطاء » فى علاج بعض من مرضت « أنفسهم » من الحزن والقسر .. أو من العبث والخمر ..!

يقول الله تعالى عن المقام المعلوم لهذه « الأنفس » بعد موتها ، وليس « الأرواح » وهو يمسكها سبحانه ، أى يحفظها كما هى بعملها الذى انتهت إليه ، وكتابها الذى تحدد مصيرها به ، إلى يوم البعث والحساب .. إنه تعالى يقول :

« اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . (الزمر : ٤٢)

ومعنى هذا القول الفصل ، لمن يتفكرون ويعقلون ، أن الله « يستوفى » حياة الأنفس حين ينقضى أجلها ، أى إن الله يرفع عنها بالموت ما كانت تحمله بقدراتها التى أنعم بها عليها من « التكليف » تجاه أمانتها بالعمل فى طاعة الله ، كما أنه يرفع هذا « التكليف » عن الأنفس فى حالة نومها ، وفقدانها إرادة الفكر والعمل التى يقوم هذا التكليف عليها . فأما الأنفس التى قضى الله عليها بالموت ، ونهاية التكليف ، فإنه « يمسكها » أى يحفظها كما هى ، بما شاء لها من كيفية حفظه وصونه لها إلى يوم البعث ، فلا يؤثر عليها شىء ، ولا يتغير منها عما انتهت إليه شىء ، حتى يكون البعث .. ويقوم الأشهاد .. ويرسل الله الأنفس إلى مقام حسابها لتجادل كل نفس عن نفسها ..

وأما تلك الأنفس التى يرتفع عنها « التكليف » فترة النوم فإنه يرسلها بعد نومها إلى فترات صحوها وعملها وتكليفها حتى ينقضى أجلها .. فيمسكها الله كما أمسك أسلافها .

فهل هذه « الأنفس » التى يمسكها الله بعد موتها هى « الأرواح » الهائمة فى وهم الواهمين .. وهل هى هـــذه « الأنفس » تحت اسم « الأرواح » .. أم إنها قرائن مضافة — بحسب العقائد الهندية — إلى هذه الأنفس تحت هذا الاسم الدخيل على اللغة العربية بهذا المعنى وهو « الأرواح » ..!؟

لقد حكم الله فى هذه القضية التى افتعلتها المذاهب الخارجة عن الإسلام باسم الإسلام .. وليس فى بيانه المبين عن هذه « الأنفس » إلا الحق المبين .. فالإنسان ببدنه وعقله وفطرته وملكاته « نفس » وليس « روحاً » .. ونفس الإنسان ذاته ، وذاته هى قدراته التى أنعم الله عليه بها ، لكى يسأله بأمانة التكليف عنها ، وهو سبحانه القائل :

« وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ » .

(النمل : ٤٠)

وهو تعالى القائل :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » .

(إبراهيم : ٧)

وسبحان الله .. نشكره على ما نعلم ، وما لا نعلم ، من نعمائه ، ومن فضل عطائه .. هو الرحمن الرحيم .. وهو السميع العليم ..



وتنطلق النفس المطمئنة :

وأخيراً .. فى بيان الله المبين .. ومن تنزيله بالروح الأمين .. تقوم الساعة .. ويقع النشور .. وقد انفطرت السماء .. وانتثرت النجوم .. وسيرت الجبال .. وبعثرت القبور . . وأطلق الله « الأنفس » بعد إمساكها فانطلقت لتتزوج وتتحد مرة أخرى بأبدانها .. وذلك لتعلم كل نفس وقد جاء وعد الله .. فانحل متصل الزمان والمكان .. وذهبت الدنيا .. وأقبلت الآخرة .. لتعلم ما قدمت فى يوم حسابها.. وما أخرت .. بين يدى ربها ..

فى هذا اليوم المشهود .. يوم البعث والميزان .. يوم الفوز أو الخسران.. تنطلق النفس المطمئنة من قيد انتظارها . . إلى مشهد انتصارها .. تنطلق راجعة إلى ربها .. مطمئنة إلى وعده لها .. بعد أن رضيت عنه فى الدنيا بصدق حبها وطاعتها له .. وبعد أن أرضاها بنعمة إحيائها وهدايتها إليه ..

إنها تنطلق — وأمثالها — من أنفس النبيين والصديقين ، والشهداء والمقربين ، والصادقين والمخلصين .. بعد أمانها فى الدنيا بالإيمان .. إلى نعيمها المقيم فى الآخرة فى حلل الرضى والرضوان .. وهى هى بكل يقينها ، ونضرة سماتها ، ورضى الله عنها .. « النفس المطمئنة » .. وليست « الروح » هائمة أو مستكنة .. وكيف.. نعم وكيف .. وهكذا سيناديها الله يوم انتصارها المشهود .. لترجع إليه راضية مرضية .. فتدخل فى عباده وجنته ، كما ينص عليه القرآن الحكيم ، فى قوله

تعالى إلى عباده المؤمنين ، وأوليائه المتقين المحسنين ، عن قيام الساعة :

« وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ . يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي » .

(الفجر : ٢٣ ـ ٣٠)

أليست هذه هي النفس البشرية فى تمام دورتها بين الدنيوى والأخروى ، لتلقى الله بعملها وشكرها ، بعد أن ابتلاها فى الدنيا بنعمه عليها ..؟ فأين إذن هذا الوجود الغامض والدخيل فى كلمة « الروح » بمعنى النفس .. أو مع النفس .. والله سبحانه هو القائل فى أول الأمر :

« هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » . (الأعراف : ١٨٩)

ثم هو سبحانه القائل عن مشهد الأنفس الناجية إليه بإيمانها ، وعملها ، وإخلاص قلبها ودينها ، يوم البعث والحساب ، والسؤال والجواب .. أى فى تمام الأمر .. وكمال دورة الحياة والابتلاء بين الدنيوى والأخروى :

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي » . (الفجر : ٢٧ ـ ٣٠)

السؤال الثالث :

كيف تفسر تسرب كلمة الروح إلى لغتنا العربية المعاصرة بهذا الاستعمال غير القرآني ، وغير الإسلامي .. إلى مجال الفكر الديني المعاصر ؟

وما هو تقديرك لأثر تسرب أوهام الفلسفة الهندية ، والفلسفة اليونانية ، منذ ظهور المعتزلة ، وبعد أن مضى عهد الإسلام الزاهر في حياة الرسول الكريم ، ومن بعده من الخلفاء الراشدين ، نقياً ومنزها مما كان حولهم في أرض الروم والفرس من هذيان « حمى الفلسفة » كما يختار العالم الجليل الشيخ محمد مصطفى المراغى هذا الوصف في فهمه لمخاطر الفلسفة والتفلسف ، وبخاصة إذا ما تسرب هذا الهذيان إلى مجال التفسير ؟

الإجابة :

عندما نحاول الكشف — بعد الإجابة عن السؤالين السابقين — عن هذه القنوات الخفية ، أو الظاهرة ، التي تسربت خلالها إلى لغتنا العربية المعاصرة كلمة « الروح » بهذا الاستعمال المتناقض مع نصوص القرآن الكريم ، والمتباعد عن حقائق الإسلام — سنتبين باستطلاع مراحل هذا التسرب أن تاريخ الاستعمال غير القرآني لكلمة « الروح » قد بدأ بظهور سلطان الفرس الشعوبي على الدولة العباسية بعد دخولهم الإسلام ، وحيث كان من ظواهر هذا السلطان الشعوبي محاولات الفرس المتعددة

لفرض معتقداتهم الوثنية قبل الإسلام على مسيرة الحضارة والثقافة العربية الإسلامية بعد أن آل السلطان عليها إليهم بعد العرب ، وأن النتيجة الحتمية كانت سقوط هذه الحضارة الفارسية الشعوبية ، وإحراق وتدمير بغداد على أيدى التتار ، الذين وجدوا طريقهم مفتوحاً فوق الخرافات والمذاهب الفارسية لتفكيك دولة المسلمين فى الشرق سنة ٦٥٦ هجرية و ١٢٥٨ ميلادية ..

على أن هذا المدخل الأسطورى والوثنى والفلسفى لاستعمال كلمة « الروح » بغير معناها القرآنى ، لم يكن هو المدخل الوحيد لتسرب هذا الاستعمال الخاطئ فى أفكار ومفاهيم وكتابات المسلمين المتأخرين ، ذلك لأن المسلمين لم يلبثوا فى عصور تخلفهم الأخيرة ، وبعد أن انفتحوا فى حال الضعف على الحضارة الأوربية الحديثة ، والمعاصرة ، بمذاهبها وفلسفاتها المختلفة ، قد تأثروا بمصدر آخر هو فى حقيقته المصدر الأصلى لهذا الاستعمال الفلسفى والخرافى لكلمة « الروح » ، كما تناقله الأوربيون المعاصرون عن مذهب « أرواح الطبيعة » الذى عرفه الهنود واليونان القدماء ، وكما تجددت بعده أشكال هذا المذهب ومفاهيمه تحت شعارات جديدة ، لمذاهب معاصرة ، تتصارع فى الظاهر تحت أسماء النظم التى تسود العالم فى هذا العصر ، والتى تحاول بالقسر العسكرى ، أو بالغزو الفكرى ، أن تفرض مذاهبها ، وثقافاتها ، وفلسفاتها ، ومصطلحاتها ، وطريقة حياتها — على شعوب العالم النامى..

ومن بينهم المسلمون . . الذين لايزالون على تخلفهم فى هذا العصر ، وإن بدأوا الصحوة لاستعادة مكانتهم ..

ومن هذه النقطة يتحدد طريق الإجابة بأن نبدأ بإلقاء الضوء على أول التسرب لهذا الاستعمال غير القرآنى ، وغير الإسلامى ، لكلمة « الروح » بتأثير الشعوبية الفارسية ، التى حاولت بعد إسلامها أن تسقط معتقداتها « الروحية » الخرافية قبل الإسلام على المسلمين ، متجهة بذلك إلى « تحريف » حقائق الدين بما يوافق تراثها الوثنى القديم ، وإلى فرض سيادتها المدمرة على مجرى الحضارة العربية القرآنية المنتصرة .. ومن ثم تمضى الإجابة على طريقها حتى تبلغ مرحلة العصر الحاضر..

الفرس يعبدون ملوكهم تحت أوهام روحية :

إنه من الحقائق التاريخية التى لا تحتمل الجدل أن الفرس منذ عرفوا حياة الاستقرار على أرضهم، وعرفوا مع هذا الاستقرار عبادة ملوكهم من سلالة أسرة الأبطال الأسطوريين الذين يسمونهم « كايانى » . . ثم منذ دخلوا فى الإسلام وحتى اليوم، وهم يعتقدون فى هذه « القدسية » التى يتوارثها ملوكهم بالتناسخ ، وهى القدسية التى تعنى حلول « أرواح مقدسة » للآلهة فيهم .. بما يوجب عبادتهم ..!

فى هذا المعنى يتحدث المستشرق ديلاسى أوليرى فى كتابه « الفكر العربى » حديثاً يقف فيه إلى جانب الفرس ، من حيث أنه من غلاة المستشرقين فى إنكار فضل الإسلام ، وفضل العرب ، ومع ذلك فهو يقرر الحقائق الآتية فى شأن عبادة الفرس لملوكهم ، وكأنه يرى

بغبائه الشديد أن هذا الأمر المهين لإنسانية الإنسان ، والقاضى بإلغاء حريته وعقله ، إنما هو من عوامل التعظيم لشأن الفرس الذين لم يكن عملهم الحضارى الوحيد أكثر من المشاركة العنيدة والهوجاء فى محاولة إطفاء نور القرآن ، وتنكيس أعلام الإسلام ، وإنهاء حكم العرب ، الذين أضاءوا أرجاء العالم بحضارة الإسلام العلمية والعمرانية والأخلاقية ثمانية قرون متوالية ..

يقول ديلاسى أوليرى من خلال حديثه عن حكم العباسيين :

« كان من عادة الفرس أن ينظروا إلى كل ملك من ملوك الساسانيين — الذين حكموهم قبل الإسلام — باعتباره « باغ » وذلك لقب لا يفهم منه معنى « إلاه » تماماً ، وإنما يفهم منه حلول الألاه فى حامله ، حيث تتوارث « الروح المقدسة » عن طريق « التناسخ » بين الحكام المتعاقبين . وهكذا نسبوا للملك قوى خارقة ، وعبدوه باعتباره — من حيث حلول الروح المقدسة فيه — متمم « حضرة إلاهية » ..!!

ثم يقول هذا المستشرق الأهوج ، الفخور بالفرس ضد العرب ، والمناصر لعبودية آلهة من البشر عند الفرس على سواسية الإسلام ووحدانيته ، وهو يتحدث عن استمرار موقف الفرس الأسطورى بعد الإسلام من حكامهم :

« ولقد بقى الكثيرون من الفرس على أفكارهم القديمة برغم اعتناقهم الإسلام ، فكانوا على استعداد لعبادة الخليفة — كما عبدوا ملوكهم

من قبل – بينما لم يرحبوا بالقاعدة الإسلامية التى لم تجعل الخليفة أكثر من شيخ قبيلة منتخب بطريقة الشورى الديمقراطية على نحو ما كان سائداً فى قبائل الصحراء ، فقد بدا ذلك فى نظر الفرس كأنه رجوع إلى البدائية البربرية .. » !!

ثم يمضى ديلاسى أوليرى فى الشهادة ضد من يتعصب لهم من الفرس فيشير إلى محاولتهم الفاشلة أن يؤلهوا الخليفة العباسى العربى شرطاً لطاعتهم له ، وهو فى هذا يقول :

« أما من كانوا تحت التأثير الفارسى فقد كانوا شديدى الرغبة فى اتباع حاكم متأله ، وقد ظهر هذا فى عام ١٤١ و ١٤٢ هجرية فى صورة محاولة لتأليه الخليفة من جانب فرقة متطرفة من أصل فارسى تسمى « الراوندية » وقد ثار زعماء هذه الفرقة عندما رفض الخليفة أن يعامل معاملة الألاه ، وألقى بقادتهم فى السجن » !!

على أنه مما لم يذكره أوليرى فى هذا المجال ، أن الخليفة العباسى الذى رفض التأليه ، وقضى بسجن من طلبوا ذلك إليه ، هو أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء الدولة العباسية ، وقد تولى الخلافة ما بين سنتى ١٣٦ و ١٥٨ هجرية .. كما أنه لم يذكر أن الفرس حين أشاروا على العباسيين باختيار اسم عاصمتهم « بغداد » قد فرضوا باختيار هذا الاسم وهو بتفصيله « باغ – داد » عقيدتهم فى تأليه الحكام ، الذين سيقيمون فى هذه المدينة ، وذلك حيث جعلوا معناها : مقر إقامة « باغ » .. أى إقامة من يحل فيه بالتناسخ من الحكام والخلفاء « روح

مقدسة » ترفع هؤلاء الحكام إلى « مقام حضرة إلاهية » مزعومة .. كما جاء فى حديث أوليرى .. ! !

ولعله أصبح واضحاً الآن — مع الإيجاز — كيف كان من هذا المدخل الوثنى الفارسى القديم تسرب أوهام وأساطير كلمة « روح » و « روحية » إلى حياة واستعمالات المسلمين المتأخرين ، بغايات ومعان بعيدة ومتناقضة تماماً مع استعمال هذه الكلمة بمعناها اليقينى المتطهر فى نور القرآن ، والمتسق مع حقائق وأحكام الإسلام .

الحلول والتناسخ فى عقائد الهند :

وننتقل على طريق الإجابة بعد ذلك إلى الإشارة لهذا المصدر الهندى القديم ، والمعاصر ، للفكر الروحى الأسطورى بمدلوله الفلسفى والوثنى ، والذى هو الأصل الذى أخذ به الفرس قبل الإسلام وبعده لهذا الفكر الفلسفى والروحى المماثل عندهم .

وإذا كنا قد أشرنا فى الإجابة عن السؤال الأول إلى بعض الحقائق عن عقيدة البراهمة فى إلاههم « برهمن» أو « بريم آتمان » أى « النفس الأولى » بمعنى مصدر الخلق ، فإننا نضيف هنا بعض الحقائق الأخرى التى نؤكد بها هذه السمات المتجددة لهذا المذهب الهندى « الروحى » بمبادئه الأسطورية ، التى امتدت بمؤثراتها إلى الفلسفة اليونانية وفروعها من الفلسفات الأوربية المختلفة ، بل والتى تسربت بهذه المؤثرات الفلسفية حتى إلى فكر أكثر المسلمين فى القارة الهندية ..

والمحور الأساسى لهذا المذهب الهندى « الروحى » والمتمثل فى عبادة « برهمن » أو « بريم آتمان » أو « النفس الأولى » يدور حول كل

ما يمكن أن يتوالد من الظواهر الأسطورية وراء الاعتقاد فى حلول « برهمن » فى كل شىء من البشر والحيوانات والنباتات ، وحتى الحشرات المؤذية من الجراد والصراصير والقمل والبق ، فكلها مقدسة بحلول « برهمن » بها .. وكلها لذلك لا يجوز قتلها مهما تفاقم الأذى منها .. كما يزعم كهنة البراهمة !

بهذا التصور الخرافى – داخل ظلمات ومخاوف ورفض الحياة فى غابات ومجاهل المناطق الاستوائية الحارة .. أصبح مفروضاً أن برهمن ينشر قواه ، أو « أرواحه » فى جميع عناصر الطبيعة ، وأن هذه الأرواح تتناسخ بموت هذه الكائنات ، وانتقال « أرواحها » منها إلى سلالاتها ، أو – فى حالة غضب برهمن – إلى كائن أقل ، كما قد تنتقل روح برهمن فى إنسان إلى حمار ، أو كلب ، أو حشرة سامة .. !

وعن كتاب « الفيدا » المقدس عند الهندوس ، وهو الكتاب الذى يتولى كهانهم تحفيظه لهم ، ونشر تعاليمه بينهم ، انتشر الوصف التالى له نقلا عن الجزء الأول من كتاب أحمد أمين عن « قصة الأدب فى العالم » !

« التراتيم التى فى الفيدا دعوات موجهة إلى « قوى الطبيعة » مثل هذا الفجر الذى يبدد ظلمة الليل ، وينشر ضوءه على جبين الصباح ، وهذا الغروب الذى ينعش النفس المكروبة بعد عناء النهار وشمسه المحرقة ، وهذا المطر الذى ينبت الحبوب ، والتى هى من النعم التى

تستوجب الشكر . ثم ما الذى يجنب الناس غضبة الصواعق ، وثورة العواصف ، غير الترانيم الدينية وتقديم القرابين إليها » !

إذن فهذه القوى الطبيعية واجبة العبادة ، لأن برهمن قد حل فيها كلها ، ومحور الفيدانتا — وغيرها من الكتب المقدسة عند الهندوس ، هى كما يقول أحمد أمين : « إن الخالق برهمن والنفس الإنسانية شىء واحد ، فإن توهم الإنسان أنهما شيئان مختلفان فما ذاك — عند كهنة الفيدا — إلا لأن إدراكه أضيق من أن يرى اتحادهما ، وإن الإنسان ليظل — فى نظرهم — على هذا الوهم حتى يحطم دعائم حياته من الحواس ، والعقل ، والتفكير ، والعمل ، من أجل أن يفنى ..» ! !

فالفناء .. بعد تعطيل الحواس ، وإلغاء العقل ، وترك أى عمل ، هو أعظم أهداف هذا المذهب المتعبد للقوى المجهولة فى أعماق عناصر الطبيعة .. أى لأرواح الطبيعة التى هى برهمن نفسه .. كما حل بروحه فى الإنسان .. فماذا بعد من الأدلة القاطعة على هذا التلازم بين المذهب الروحى الهندى ، وبين مهانة وتخلف وانهيار هذا الإنسان ، الذى رضى أن يموت عشرات الملايين منه بهذا الانتحار « الروحى » ليبنى سادة آخرون فى الهند عروش طغيانهم وترفهم على حطام هؤلاء الموتى .. الروحانيين !؟

أرواح الطبيعة فى فلسفة اليونان :

من هذا المصدر الهندى المتجدد داخل عوامله الجغرافية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، أخذ الفرس قبل الإسلام عقيدة عبادتهم أرواح وقوى

عناصر الطبيعة عندما عبدوا « أهورامزدا » تحت اسم : إلاه النهار والنور ، وكما عبدوا « أهريمان » تحت اسم : إلاه الليل والظلام ..

ومن نفس هذا المصدر الهندى أخذ اليونان الأوائل ، ومن حولهم من الأوربيين الآخرين ، هذا الاعتقاد بعبادة « أرواح الطبيعة » من أسلافهم الهنود ، وذلك عندما عبد اليونان كبير آلهتهم « زيوس » بوصفه « روح النهار » ، وكما عبد الإنجليز إلاههم القديم « جودن » بوصفه « روح الغابة » ، وكما عبد الرومان كبير آلهتهم « جوبيتر » بوصفه « روح كوكب المشترى » .. إلى آخر هذا الضياع .. !

وننتقل من هذه النقطة — على نفس الطريق — لأوضح للقارىء ورغم الإيجاز — مفهوم هذا المذهب الذى لايزال — من مصادره الهندية واليونانية — شائعاً تحت العديد من الأقنعة الشفافة ، والمصطلحات المبهمة ، وهو animism بمعنى : عبادة أرواح الطبيعة .

إن المعنى الدقيق عربيا ، والذى أقدمه هنا ربما لأول مرة بالعربية وذلك بصحة استقراء الجذور والأهداف المقصودة بهذه الكلمة — يتحدد ويتضح تماماً فى كلمة « حيونة عناصر الطبيعة » أى توزيع مصادر وقوى وهمية وأسطورية للحياة داخل جميع عناصر الطبيعة ، وذلك بقصد تأهيلها للعبادة ، ومن حيث لا يملك أتباع هذا المذهب دينا حقاً يتوجهون به إلى الله الخالق ، كما لا يملكون منهجاً سليما للتفكير والتفكر فيما حولهم يهديهم إلى الإيمان بهذا الله الحق ، والخالق ، والمدبر ، والرحمن الرحيم ..

ومن البداية فإن كلمة animal تعنى بالإنجليزية قيام قدر من الحياة فى كائن ما ، فهو بهذه الحياة « حيوان » .. فإذا ما أريد نقل مثيل لهذه الحياة ، إلى عناصر الطبيعة ، بأى قدر يتناسب مع تأهيلها بذلك لعبادتها ، فعندئذ يقال إن هذه العناصر تحتاج إلى إحياء أو « حيونة » وذلك باستخدام الفعل الإنجليزى ، animate أى يحيى ، أو ينشط قدرات الحياة فى « العناصر الطبيعية غير الحية » ، أى التى يطلق عليها بالإنجليزية : inanimate-objects

هكذا امتدت هذه الآلهة الوهمية والأسطورية فى كل اتجاه ، تعبيراً بالضجيج ، والافتعال ، والفرح الخائب ، عن محنة الطريق المسدود إلى الله الحق ، نور السماوات والأرض ، وتبريراً لهذا « الإخلاد » المتكفىء على شهوات الأرض ، والصراع غير المنقطع على الاستئثار بمتاعها ، وتفسيراً لهذه المشاركة الإلحادية التى تتجدد بمذاهبها وفلسفاتها المتعاقبة على أرض أوروبا ، دون أن تصل إلى قرار تتوقف عنده ببناء « المجتمع الفاضل » الذى تحلم به .. وحيث يتساوى فى هذه الفلسفات فيلسوف يزعم أنه مثالى مثل أرسطو يرى بكل الحماقة ، والكبر الأجوف أن العالم قديم ، وأن الله الذى هو « روح من أرواح الطبيعة » لأنه هو زيوس روح النهار — لم يخلق الإنسان .. وأن كل ما بين الإنسان والله .. الذى هو زيوس ليس إلا رباط « العشق والمحبة » فقط .. وإذن فالكون يشارك الله .. أى زيوس .. فى الأزلية ، وفى الخصائص والأوصاف .. !!

فهل هناك فرق كبير بين من يؤمن مثل أرسطو بأن « روح النهار » إلاه وهمى يخترعه الإنسان بمنهج الأسطورة لكى يحل كل منهما فى الآخر . . وبين من يعتقد من الملاحدة على اختلاف أنواعهم ، بأن هذا الكون لا إله له إلا هذه الشهوات التى تحكم الإنسان ، وعناصر العيش والسلطان كما يتسابق إليها الإنسان ؟ !! .. فأين هو هذا الفرق..!؟

سيكه وكيوبيد أسطورة عن النفس :

وكنا قد أشرنا فى الإجابة عن السؤال الأول أيضاً أنه لا ازدواج فى الواقع فى جميع اللغات بين كلمة النفس الصحيحة وكلمة الروح المزعومة ، وإنما يأتى اللبس من التصور الأسطورى لهذه « النفس » فى بدن الإنسان ، ومن إسقاط الأوهام على دلالاتها ، ومن العجز عن استخلاص المنهج السليم لتدبر قدراتها الصحيحة من الفطرة ، والعلم ، والبيان ، والإرادة والتكليف . ونزيد هنا إلى هذه الإشارة — وفى مجال الكلام عن الفلسفة اليونانية الرائدة لجميع فلسفات أوروبا حتى هذا العصر — فنعرض بإيجاز لهذه القصة الأسطورية التى أراد اليونان الأوائل أن يحتفظوا من خلالها بمنابع خيالاتهم غير العلمية ، بل وغير الأخلاقية ، عن نفس الإنسان ، التى لا تزال تحمل حتى الآن اسم سيكه ، الذى هو باليونانية : Psukhé : ، والذى هو بالإنجليزية : Psyche . . ونعنى بها أسطورة « كيوبيد وسيكه » . . !

أما كيوبيد Cupid فهو إلاه « العشق » ، وهو كذلك شقيق Eros إلاه آخر للعشق عند الإغريق ، وهو من أقرب الكواكب إلى الأرض ،

ومن اسمه تخلقت أقوى الكلمات الأوروبية فى دلالاتها على « الشبقية » أو « العهر » وعلى العشق المرتبط فقط بهذا المعنى الجنسى ، وهو فى اليونانية erôtikos وبالإنجليزية érotic أى شبقى .

ويروى أحمد أمين فى كتابه « قصة الأدب فى العالم » خلاصة هذه الأسطورة اليونانية كما ننقلها فيما يأتى للتنبيه إلى خطورة دلالاتها — مع غيرها من خرافات الفكر اليونانى وأساطيره — على مدى الامتهان والابتذال والمسخ للنفس الإنسانية ، مع افتراض تشكلها بمثل هذه الأساطير فى العديد من الصور التى تتداخل فيها الخصائص البشرية والإلاهية فى إطار الخرافة ، والعبث ، والنزوة :

« كانت سيكه صغرى بنات أحد الملوك ، وكانت من الجمال بحيث أثارت الغيرة فى إلاهة الجمال عند الرومان « فينوس » فأمرت ابنها كيوبيد — إلاه الغرام الجنسى — أن يقتل هذه الإنسانة التى تنافسها فى جمالها ، فتسلل كيوبيد إلى مخدع « سيكه » ولكنه لم يكد يبصر هذا الجمال الفاتن حتى ارتد مذهولا ، وانطلق أحد سهامه إلى صدره فأقسم ألا يقتل صاحبة مثل هذا الجمال البرىء ، وسرعان ما أحبها وأخذ يزورها فى ظلمة الليل . . زيارة العاشق — بعد أن وعدته بأن لا تحاول التعرف على اسمه ، أو النظر إلى وجهه . وتوعدها بالهجر والقطيعة إذا هى أخلفت وعدها » ! .

ثم تمضى الأسطورة لتقول عن قصة « نفس الإنسان » قبل أن تحل فى بدنه فى نظر اليونان الأوائل :

« ولبثت سيكه زماناً طويلا حافظة لعهودها ، ضابطة لأمرها ، ولكن رغبة الإطلاع غلبتها آخر الأمر فنهضت ذات ليل وأشعلت سراجها وحدقت معجبة فى حبيبها الراقد ، وشاءت المصادفة أن تسقط من المصباح قطرة زيت على كيوپيد فتوقظه ، ففر لساعته من النافذة المفتوحة ، وظلت سيكه تعانى ما تعانى من هجر حبيبها حتى عاد إليها .. » !

هذه إذن هى « النفس » أو « سيكه » كما يراها اليونان الأوائل « معشوقة » صاغرة لألاه العشق والجنس . . ثم يمتد أثر هذه الأسطورة المهينة لنفس ، وفطرة ، وطهارة الإنسان ، لتغزو الآداب الأوروبية فى صيغ ومجالات متنوعة . . ثم يمتد أخيراً أثر هذه الأسطورة المهينة لبشرية ملفقيها إلى أن تدخل مع تطور العلوم الإنسانية ، والاجتماعية ، داخل ما يسمى الآن : «علم النفس».. أى.. ومع الانتماء إلى السيدة «سيكه» المبتذلة ، داخل ما يسمى Psychology . . . فأى علم يقنن لقوانين الأنفس باتجاه ترشيدها فى مثل هذا السيكولوچى . . وماذا بعد هذا الضلال . . إلا ما جعله الله بأيدينا من الحق . . إذا ما صحونا له . . وآمنا به . . ! ؟

وهل نعجب بعد ذلك إذا ما وجدنا فيلسوفاً فارسياً مثل ابن سينا ، يغرق بغير حدود فى الفلسفة اليونانية ، ويمضى مع مراحلها مفتونا بها حتى الأفلاطونية الجديدة ، وذلك لكى يزيف على المسلمين هذا « التركيب » الخرافى المستحيل — فى فهمه القاصر للوحدانية — بين مبادىء الإسلام الإلاهية اليقينية ، وبين تعاليم أفلاطون وأرسطو الفلسفية

الظنية .. بل وكما يرى معاجزاً لله ورسوله ، وللحق وبرهانه ، وهو يزعم التوفيق الوهمى بين ما يظنه فراغاً بين الوحى والعقل : أن الصوفى المتأمل حتى يبلغ مرتبة « العارف » بمفهوم المعرفة السرية الفلسفية — يستطيع أن يصل إلى « الاتحاد العقلى مع الله » عن طريق«الإدراك الحدسى » أى طريق الإدراك الظنى . . والفلسفى بلغة الفلسفة اليونانية . . ! ! ؟ . . وحاشا لله . . وسبحان الله . . وهكذا فهم ابن سينا وأمثاله « نفس الإنسان » وراء مشاعل الفتنة والأسطورة فى فلسفة اليونان . . كما فهم ذلك رفاقه الفلاسفة الضالون من « إخوان الصفا » فى القرن الخامس الهجرى بالبصرة !

المحنة بالمذهب المادى فى العالم المعاصر :

والآن على نفس الطريق من الإجابة عن هذا السؤال نصل إلى العصر الحاضر ، الذى أصبح للمزيد من أثقاله ومتاهاته : مصباً ، ومخضماً ، لكل تلك الفلسفات ، والشطحات ، غير العلمية . . وغير العقلية . . والتى تنعكس بآثارها ، وتتطاول بأمواجها ، على حياة ، وأفكار ، وانطباعات ، الشعوب الإسلامية فى كل مكان .. متسربة إليها بالضرورة ، ومفروضة عليها ، من طاغوت عالم الأقوياء الملحد . . بالقوة !

ففى أوائل القرن العشرين ظهرت الماركسية بفلسفتها ، وجدلها ، فى شكل نظام شيوعى شديد الضراوة ، بالغ الدهاء ، يطرح بكل وسائله المبتدعة فى الغواية ، واستغلال صنوف الضعف البشرى — شعار :



« المذهب المادى » . . أى الإلحاد الصريح ، فى مواجهة الشعارات الأخرى التى تتصاعد من « الفكر المثالى » الذى لا يزال وهو الفرع المقابل للمادية فى الفلسفة اليونانية القديمة ـ يبحث فيما وراء الطبيعة عن الدين ، وعن الله ، بغير جدوى ، داخل طوفان العلمانية الباحثة عن الثراء والمتاع ، وفى جوف معمعة الصراعات غير الأخلاقية ، وغير الإنسانية ، وراء السلطة وابتزاز الضعفاء . .

وعندما بدأ ماركس فى إضرام النار ، بكتاباته النظرية الوهمية والمسعورة ، فيما حوله فى أوروبا من بقايا الصور الدينية ، والمعالم المسيحية ، لم يجد أمامه وهو اليهودى الأصل ، والصهيونى النزعة ، إلا الإسلام الذى ينشط المسلمون حول مآذنه ، ويستقرون بالإيمان حول كتاب الله المضىء لهم بالأمل فى أيدى علمائه ، فأطلق شعاره المتحدى الذى يقول فيه : « لا إلاه إلا المادة . المادة هى كل شىء . والحياة هى المادة » ! ! لقد كان بذلك يتحدى المسلمين قبل غيرهم . . !

ولقد اقتضى الرد بين المسلمين على هذا الافتراء ، والتبجح بالجهل ، فى الوقت الذى يعيش فيه عدد كبير منهم داخل روسيا ، وعلى مقربة من عدوان قواتها ، وبخاصة بعد أن جددت القيصرية الروسية مظالمها فى صورة النظام الشيوعى الماركسى . . لقد اقتضى الرد من المسلمين على مثل هذه الشعارات الماركسية حول « وحدانية المادة وقوتها ودوامها » أن يستخدموا الكلمة المقابلة والشائعة فى مذاهبهم الفلسفية من كل نوع ، ومنها الفلسفات الأوروبية المعاصرة ، فكانت هذه الكلمة المقابلة

عندهم لمفهوم « مادى » هى « روحى » . . أى اعتبروا أنهم ينادون بالمذهب الروحى فى مقابل المذهب المادى ، وهذا فى ضوء كل ما أشرنا إليه سابقا خطأ فى الاستعمال اللغوى والدينى ، وانحراف عن الفهم الصحيح علمياً ولغوياً لكلمة « مادى » . . !

ونبدأ بالتحقق من أن معنى كلمة « مادة » فى اللغة العربية بعيدة كل البعد عن مفهومها السائد اليوم فى الفكر الأوروبى ، وفلسفاته المنتشرة فى العالم . ذلك أن كلمة « مادة » فى العربية وهى من الفعل « مد : يمد »، إنما تعنى « الزيادة المتصلة » ، أى إنها تدور حول « الامتداد » للنور والظل ، والخير والشر ، وغير ذلك ، ولا تعنى أنها بالاستعمال الخاطىء الشائع كلمة تدل على « كل الأشياء المحسة من عناصر الطبيعة ومعادنها » . . كما هو مدلول اصطلاح كلمة « مادى » فى اللغات الأوروبية المعاصرة .

أما الكلمة الصحيحة فى لغتنا العربية الدينية فهى كلمة « الأشياء » وليست « المواد » . . و « الأشياء » فى الدلالة الدينية لجميع الكلمات العربية تعنى : كل ما شاءه الله . . والله سبحانه لا يشاء فى حكمة خلقه إلا ما هو خير . . والأشياء التى خلقها الله مسخرة كلها للإنسان ليتوجه فى استعمالها إلى الخير . . فإذا أسرف أو ظلم فى استعمالها فالخطأ خطؤه ، وليس خطأ الأشياء . . الأشياء كلها مؤمنة . . وخيرة . . ومسبحة بحمده فى كل مساراتها التى لا تعصاه بها . . فإذا كانت «المواد» فى المصطلحات السائدة فى هذا العصر بأخطائها إنما تعنى فقط هذه « الأشياء » كما شاءها الله فى خلقه وحكمته ، فإن التعامل مع هذه « المواد »

ليس خطأ ، ولا يبرر إلحاداً . . الخطأ هو فى استخدامها بغير ما أمر الله من العـدل . . والقصد . . وابتغاء وجه الله فى استخدامها لخير الفرد . . والمجتمع . . والعالم . .

هذا الخلاف الذى وقع فيه أكثر المسلمين فى استعمال كلمات « المـادة » و « المـادى » و « المادية » جعلهم ينظرون فى شتات مفاهيمهم إلى معنى « المذهب المادى » وهو مذهب إلحادى بطبيعته، كما هو فى النظام الشيوعى — على أنه المقابل لما يطلقون عليه بالخطأ « المذهب الروحى» والحقيقة أن المذهب المادى . . أو Materialism كما يطلق عليه فى اصطلاح الأوروبيين المعاصرين ، إنما يعنى فى جذوره الفلسفية وبإيجاز شديد أنه « مذهب من يعتقدون أنه لا شىء له وجود حقيقى فى الكون ، غير المواد — أى الأشياء المحسة فى عناصر الطبيعة — وغير الحركة الدائبة لهذه الأشياء ، ومتغيراتها التى لا تنقطع » ..

ولقد كان بعض العرب فى بعض غفلاتهم قبل الإسلام يرون — بعيداً عن تعقيدات والتواءات أمثال هذه « الفلسفات المادية » المعاصرة — رأياً كان على أول الطريق لمثلها ، وذلك عندما زعم بعضهم فى إنكار الحساب ، والاستجابة للمتاع ؛ ما قصه عنهم القرآن الكريم فى قوله تعـالى :

«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ» . (الجاثية : ٢٤)

ولكنهم فى مشرق الإسلام ، وضياء القرآن ، خرجوا عن سفه هذا « المذهب الدهرى » مقبلين على الله ورسوله ، مسلمين متقين ، متطهرين محسنين ، بينما مضى « الدهريون » فى أرجاء الأرض ، يتطاولون أبعد من ذلك بأوهامهم على الجذور القديمة من التفلسف اليونانى ، ويزينون لأنفسهم شهوات عبادة « المادة » أو « عناصر الطبيعة المحسة » حتى خرجوا بهذا « المذهب المادى » أو « المذهب الدنيوى » .. الإلحادى بتلفيقاته ، والمنهار كما هو حكم الله فى نهايته .. ! !

ثم أقول .. ولا وجه للمقارنة .. أين شهوات هؤلاء العابدين للمتاع فى صراعهم على « المواد » كما يتصورون حركتها فى الحياة بغير مدلول إلا هذا المتاع والاستئثار به .. من هذه الرؤية العلمية الشاملة لحركة « الأشياء » فى السماوات والأرض ، بكل دلالاتها المشرقة على الله ، وعلى إيمانها بالله ، وعلى أنها مسخرة فى حكمة الله ورحمته لامتحان عباد الله بهذا السؤال عنها ، فهل يحسنون بالعدل تعاملهم معها ، وهل يبتغون وجه الله فى بناء عمرانهم عليها .. وسبحان الله القائل عن هذه « الأشياء » المؤمنة كما شاءها ، وكما وجهها بغير اختلال إلى غاياتها :

« تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . (الإسراء : ٤٤)

المستشرقون الشيوعيون وهدف تحريف الإسلام :

والآن . . فى ضوء ما ذكرت عن مخاطر « المذهب المادى » ، وعن الخطأ الساذج فى مواجهة فريق من المسلمين له بما يسمونه « المذهب الروحى » أو « التيار الروحانى » — لا يفوتنى فى تأكيد الدعوة إلى تصحيح استعمالاتنا لكلمات اللغة العربية الدينية ، بقدر ما نبقى بها قادرين على تدبر القرآن الكريم ، وعلى وعى رسالته ، والتجدد فى نوره ومنهجه . . لا يفوتنى أن أشير إلى تضاعف خطر هذه الغواية الشيوعية المعاصرة على المسلمين ، وهى تستشعر فى قمة هرم « المذاهب المادية » الإلحادية قوة المد الإسلامى بصحوته المرتقبة فى هذا العصر ، وصلابة هذه المقاومة الإسلامية ، وتزايدها حول منارة القرآن ، لجميع خطط الغزو الأيديولوجى الماركسى مهما بلغت من نعومتها وقوة تسربها بالدعاية ، أو من طغيانها وبطش قواتها بالعدوان العسكرى ، وذلك بأن أعرض لمثالين من النشاط الاستشراقى ، يمثلان معاً مرحلة من مراحل التطور الدعائى النشط للشيوعية وأمثالها داخل الوطن العربى ، قلعة الإسلام والمسلمين ، وداخل مصر التى هى قلب هذه القلعة وقوتها الفكرية الضاربة . .

هذه المرحلة قامت حتى سنوات قليلة على ما يمكن أن نسميه محاولة تنكرية مبتكرة لوفاق مابين الشيوعية والإسلام . . محاولة تستغل الحديث

عن بعض المذاهب الفارسية التى انحرفت باسم الإسلام ، لتجعل من التقبل الشيوعى لمناهجها المنحرفة نقطة لقاء وهمية بين الشيوعية والإسلام الحـق . .

المستشرق الأول هو المفكر الماركسى الفرنسى روجيه جارودى الذى قصد إلى مصر سنة ١٩٦٩ لكى يمد بفكر جديد على الماركسية يداً وفاقية مع الفكر الإسلامى ، تنتهى .. أو قد تهيىء المناخ الملائم لدفع عدد من المثقفين المسلمين باتجاه الموافقة على استنبات بذور النظرية الشيوعية ، وتحت أسماء مختلفة ، فى تربة الثقافة الإسلامية المعاصرة !!

وفى المحاضرة التى ألقاها جارودى فى القاهرة فى رمضان سنة ١٣٨٩ هجرية — ولاحظ هذا التوقيت بشهر القرآن — قدم هذا المفكر الماركسى رأيه الذى جاء به ليمد به يد الصداقة للمسلمين ، بينما هو بالخطأ والغباء ، أو بسوء النية والتدليس ، يعادى إسلامهم ، وينسب إليهم ما ليس من صحيح معتقداتهم .. فماذا قال ؟

لقد قدم من وجهة نظره ثلاث نقط تمثل عنده « التجارب الناجحة» لما يسميه . . « هذه التقاليد السامية التى تملكها الثقافة الإسلامية ، والتى تستطيع بها أن تعمل على نمو الاشتراكية العلمية بها » ، وهذه التجارب من وجهة نظره الشيوعية هى :

• حركة القرامطة مثالا على الاشتراكية الطوبائية أى الخيالية . . !

• ابن رشد مثالا على الفلسفة العقلانية التى تنظر بالعقل الفلسفى إلى الوحى والدين وليس بالعقل العلمى . . !

* ابن خلدون مثالا على نمو الفكر الاجتماعى ..!

بهذا الخلط البشـــع زعم جارودى أن « القرامطة » أو « المدلسين » كما تدل التسمية التى أطلقها العرب على حركتهم ، هم مثال « المجتمع الفاضل » الذى يراه من مفاخر الإسلام والمسلمين ، وذلك لأنهم - كما يؤكد تاريخهم - قد نجحوا فى فترة قصيرة من الحكم الدموى ، بعد ثورتهم الشعوبية على العرب ، وعلى الإسلام والمسلمين . فى أن يستعيدوا تعاليم زعمائهم قبل الإسلام « مانى » و « مزدك » من فرض « الشيوعية أو المشاعية فى الأموال والنساء » ومن إشاعة المظالم ، وهتك الحرمات ، ونهب الأموال ! ومن التوجه بكل أحقادهم الإسماعيلية الباطنية إلى مكة لمحاولة هدم الكعبة ، وحيث نهبوا أموال الحجاج ، بعد أن ذبحوا منهم عشرات الألوف ..

وأما القرامطة المعاصرون ، فلا يزالون على قلتهم فى العراق وغيرها ، يعيشون تحت كابوس هذه الأمانى السوداء بالقضاء على العرب ، وعلى الإسلام ، والاستيلاء على الكعبة .. وإعلان دينهم الفارسى المزدكى القديم .. دين « مشاعية الأموال والنساء » وإباحة المظالم وهتك الحرمات ..!!

فهل عند هذه الصورة البشعة لهؤلاء «المدلسين الدمويين » يرى مفكرو الماركسية نقطة وفاق على طريق اللقاء الحضارى والثقافى بينهم وبين المسلمين .. ؟!

وهل هى بالفعل مسئولية جارودى - وكثيرون غيره - حين

يتردى إلى هذا الضلال عندما لا يجد فى أمجاد التاريخ الإسلامى غير هذه الصفحة الدموية ، وغير الإنسانية ، فى تاريخ القرامطة القصير ، ليتحدث عنها ، ويتقرب إلى المسلمين بها .. أم هى مسئولية المسلمين الكبرى فى هذا العصر لكى يحملوا من أعباء كفاحهم المعاصر عبء تنقية تاريخهم من بقاء صور من أمثال هذا الفكر القرمطى الباطنى ، المجوسى ، والمزدكى ، فى مكانها من واجهة التاريخ الإسلامى .. فى بعض كتب التراث أحياناً .. وفى كتب الشرق والغرب فى أوربا دائماً ..!؟

وإذا كانت الموضوعات الأخرى فى حديث هذا المستشرق الماركسى المخادع لا تستحق الرد ، وبخاصة فى هذا المجال المحدود ، فإن علينا أن نتساءل ونحن نتعجب لمدى تناقض الفكر الماركسى مع جميع ادعاءاته ، ومع المنهج العلمى الذى هو الفيصل بينه وبين غيره : هل من العلم والطوباوية .. أم من الشعوذة والخرافة والطغيان ، اعتقاد هؤلاء القرامطة وأمثالهم فى الأئمة المستورين ، المعصومين ، الذين تحل فيهم أرواح الآلهة بمفهومهم الأسطورى عن هذه الأرواح ، من أمثال حسين الأهوازى معلم حمدان بن قرمط ، وسليمان بن الحسن ابن بهرام الجنابى قائد قرامطة البحرين فى محاولة هدم الكعبة ، وحسن الصباح زعيم طائفة « القتلة » الباطنية على قمة جبل الموت ..!!

نعم .. هل من العلم .. أم من الشعوذة .. أن يؤمن الماركسيون بأنه « لا إلاه .. إلا هذه الآلهة الأسطورية فى جوف زعماء وقادة القرامطة ..

الذين قادوا واحدة من أبشع الانتكاسات الدموية فى تاريخ الإنسان .. منذ فجر الزمان ..!؟

ثم أنتقل – بإيجاز أيضاً – إلى مستشرق آخر .. مستشرق صديق فى ظاهره .. غير ماركسى .. مستشرق متعلق بالمسيحية ، ومؤمن بالدين ، ومحب للإسلام ، بعد أن قرأ ودرس الكثير من الكتب عنه ، وبعد أن زار الكثير من البلاد العربية والإسلامية وتحدث إلى الكثير من أتباعه .

هذا المستشرق الفرنسى أيضاً هو « لويس جارديه » وقد وصل إلى مصر فى سنة ١٩٧٠ – سفيراً عنه – كتابه الهام ، الحافل بقضايا التقدم بالنسبة للعرب والمسلمين فى هذا العصر ، واسم هذا الكتاب « الإسلام عقيدة ومجتمع » ، والكثير من هذه القضايا جديد وهام ، وهو مما لم يتطرق إليه حتى اليوم جهد الكثير من علمائنا الفضلاء ..

ولكن مع كل هذا الجهد الذى بذله جارديه نجده بعد التمحيص لكتاباته تحت شعار « الإنصاف للإسلام » يقع فيما يشبه التناقض المتعمد ، الذى يعمد به أكثر هؤلاء المستشرقين إلى استغلال هذه الثغرات الوافرة فى كتب تراثنا « المختصم مع نفسه » بغير سميع لشكواه ، وناهض لتنقيته ..

فعلى سبيل المثال نجد لويس جارديه وهو يسير فى محاولة « فهمنا » على طرق غير معبدة بالنسبة لطبيعة فكره اليونانى العصرى قوله فى فصل عن « العروبة » :

« إن طه حسين قال وكرر كثيراً أن مصر بلد ذو ثقافة يونانية لاتينية ودينها الإسلام ، كما أن فرنسا بلد ذو ثقافة يونانية لاتينية دينها المسيحية ، وأن رأيه هذا هو ميل للعودة ببلاد الشرق الأدنى إلى قومية ذات طراز أوروبي حديث » ! !

هنا .. وبهذا الضلال العفوى أو المتعمد .. نجد الصديق الفرنسى المسيحي لويس جارديه يمد إلينا يد الوفاق لا على أساس الدين المتقارب فى أساسيات دعوة محمد والمسيح عليهما السلام ، ولكنه يحدد هذا الوفاق الغريب على أساس لا يمكن أن تصدر عنه إلا الخلافات إذا استمسكنا بديننا ، أو التبعية للغرب إذا ما استجبنا لهذه النظرية الخاطئة فى هذه الوحدة الثقافية « اليونانية واللاتينية » بيننا وبين الأوروبيين ، كما كان يزعم طه حسين بغير سند أو برهان . . بل تناقضاً مع كل سند وبرهان . . ! !

إن الصديق جارديه يتعثر بكل أسف — تحت مؤثرات كثيرة — وهو يرى رغم أنه يعيب على بعض المثقفين من الشباب العرب افتتانهم بالعلمانية الغربية أو الماركسية الشرقية — أن نقطة — الوفاق واللقاء بين المسلمين العرب فى هذا العصر ، وبين أوروبا هى « الثقافة اليونانية واللاتينية » . . وكأن الفلسفةاليونانية وتابعتها الرومانية ثم اللاتينية ليست هى الجذور النشطة لجميع المفاهيم التى تنهض عليها وهى تتكاثر بثمراتها المريرة ، والمخدرة ، هذه المذاهب والنظم العلمانية فى الغرب .. وهذه المذاهب والنظم الشيوعية فى الشرق . . أى هذه المذاهب والنظم التى لم ينشأ بها هذا « المجتمع الفاضل » بالنسبة للأوروبيين أولا ،

وللبشر ثانياً .. والتي لم تتحدد بها بعد حقوق الإنسان .. ولم تنته بها بعد أطماع الصراع .. على الهيمنة والسلطة والمتاع ..!!

أليست هذه صورة غير مشجعة أخرى لمثل هذا التفكير « الروحانى » باسم التفكير الدينى .. فى مقابل تفكير جارودى فى الطرف المقابل عن الفكر « المادى » باسم الفكر الاشتراكى .. العلمى .. الإلحادى ..؟!

فماذا بعد من هذه « الأصوات » التى لم تيأس إلى اليوم من محاولة غوايتنا ، بين المخادعة أو الإكراه ، أى بين الدعاية .. أو الحرب .. ماذا بعد .. لكى نضاعف التدبر لما بين أيدينا من كتاب الله .. والتبصر فيما حولنا من آيات الله .. والاستثمار لما فوق أرضنا من موارد الله .. بينما نبنى ذاتنا على الإسلام الحق لله ، ونحدد طريقنا وغايتنا باتجاه ما نهتدى ونتقرب به إلى الله ..؟!

وأخيراً هذا التردى فى تحضير الأرواح :

وأخيراً .. كان لابد — إتماماً للفائدة بكل ماذكرت — أن أشير إلى بعض ما أثمرته فى أوروبا فجائع الثورات والحروب ، ومآسى الصراعات والاضطهادات ، وعقد وصدمات العنف ، والخمر ، والجنس .. وعقار الهلوسة .. من هذه الثمرة الشائهة الوجه ، القبيحة الدلالة ، العابثة بأحزان الثكالى ، والمدمرة لآمال المرضى .. وأعنى بها شعوذة « تحضير الأرواح » التى انتهى إليها هذا التردى السافر فى مجتمعات الحضارة الأوروبية العلمية .. بما يتناقض مع العلم .. ومع الواقع .. ومع كرامة الإنسان .. نعم .. أعنى ما يسمونه :Spiritism أو Spiritualism

أليس « تحضير الأرواح » بكل ما يجتمع فى مأساته المضحكة من تنويم العقول ، وسرقة البائسين ، ونشر الخرافات على ألسنة الموتى ، بين أوساط المحزونين من ضحايا هذه الحضارة العلمية الصاخبة المترفة ، رغم تحضرهم ، وثقافتهم .. أليست هذه البدعة الانتكاسية هى نهاية الربا الذى يمحقه الله من حصاد تلك الفلسفات الوهمية ، السفسطائية ، والتسلطية ، منذ الإغريق الأوائل إلى اليوم . . تماماً كما محق الله ذلك الربا من حصاد الفلسفات الحلولية ، الشخوصية ، واليوجية ، منذ الهنود الأوائل إلى اليوم ، وذلك عندما انتهى ذلك الزهد الهندى إلى رفض الحواس ، والعقل ، والعمل ، من أجل « الفناء » غير الواعى فى برهمن .. أو النفس الخالقة الأولى .. نعم عندما انتهى كل ذلك الكهنوت الفلسفى الوهمى إلى واقع هذا « الحاوى » الهندى ، الذى يتكسب بجمع صدقات العوام المسترهبين بسحره ، والمستضعفين أمام شعوذته ، عندما يقنعهم أنهم يرون فعلا أن هذا الحبل الذى يلقيه فى الهواء يستقر أفقياً من غير سند ، وأن الولد الذى معه يصعد ليقف أمامهم على هذا الحبل المعلق فى الهواء بغير سلم ، وأنه – أى هذا الحاوى الهندى اليوجى – يصعد كذلك ليقف على هذا الحبل ويذبح الولد ، ثم يلقى به فى الهواء فيختفى ! .. ثم .. ينزل أمام دهشة المشاهدين « المسحورين » وارتياعهم فينادى على الولد الذبيح فيحضر فوراً ، وكأنه كاى بين كفيه .. وهنا يصفق الجمهور المستضعف المخدوع .. ويقع بعض أفراده مغشياً عليه من الذهول .. وتنهال « الفلوس » على الدجال بغير حساب .. دون أن يسأل أحد نفسه :

لماذا لا يستحضر هذا الحاوى الهندى كل حاجته من المال باستخدام هذه القدرات ــ لو كانت مما يقبلها الواقع ــ بعيداً عن الناس . . دون تحمل كل هذا العناء ..!!؟

والآن ماذا عن هذه الشعوذة الصريحة فى أكذوبة « تحضير الأرواح » . . أليس الله قد حكم وهو أحكم الحاكمين بأن يحفظ « الأنفس » حين موتها ، آمنة فى حفظه حتى تقوم القيامة ، فهل هذه الأرواح التى يزعمون استحضارها هى هذه الأنفس . . أم هى « أرواح » أخرى من صنع الفلسفة كانت تعيش فى صورة مستقلة عن النفس فى جسم الإنسان .. ثم انطلقت وتحررت بالموت .. وهى الآن تملك أن تتصل بمن يشاء أن يتصل بها ؟!

فإذا كان هذا الدجل صحيحاً فلماذا لا نجد هذه « الأرواح » الوهمية تتحدث من موضع القدرة على الكشف ، والرؤية الأبعد ، بكلام صادق وموزون عن « علوم جديدة » يستقيم بها طريق البشر .. وعن « حقائق تاريخية » مات عنها عدد من عظماء التاريخ ، ومن المفيد لسلام البشر المعاصرين ، ولتصحيح تاريخ العالم ، أن تتحدث عنها « أرواح » هؤلاء العظماء اليوم لو كانت هذه «الأرواح » التى تتحدث إلى الوسطاء المخادعين المتماوتين حقيقة وليست دجلا .. بل كانت تتحدث عن هذه القضية التى لا تزال أوروبا فى حضارتها المهددة بالانهيار بعد تدمير العالم ، أحوج ما تكون إلى اليقين العلمى بها .. وبخاصة إذا جاء هذا العلم مرة أخرى من السماء .. ونعنى قضية

الإيمان بالله الخالق .. وبالدين القيم .. وبالعمل الصالح . . وبالبعث المحتوم .. وبالجزاء الأوفى ..!!

فهل رأينا هذه « الأرواح » الخرافية ، فى أحدث تجارة بآلام المحزونين ، وفى أكذب شعوذة فى عصر العلم — تقول . . أو تقترب من القول . . حول شيء من هذا الجد . . لو أنها لم تكن — كما هى فى واقعها — شعوذة وتجارة وعبثاً . . ولو أن الاعتقاد بإمكان الاتصال بهذه « الأرواح » كان علما ويقيناً . . ! ؟

وبإيجاز شديد ، وبغير إطالة ، نشير إلى بصمة التفلسف الهندى بشخوصه ، وحلوله ، على وجه ما يسمونه اليوم « علم الروح » فى مقابل « علم النفس » . . وهى بصمة الاعتقاد بتناسخ الأرواح ، أى بتعدد ظهور الإنسان حياً على ظهر الأرض أكثر من مرة ، سواء أكان فى نفس الصورة البشرية ، أو فى صورة حيوان أو حشرة ، وذلك فى حالة غضب — إلاه الهندوس الخرافى برهمن . . ! !

فى هذا العلم الخرافى يرى كهنته المعاصرون أن الموت بالنسبة للإنسان هو مولد ثان له ، وقد يكون مولداً ثالثاً أو أكثر ، إذا كان قد مات قبل ذلك وعاد ليعيش بالتناسخ على الدنيا أكثر من مرة . . ! !

وامتداداً لمعتقدات البراهمة الهندوس أيضاً عن نشوتهم بالفناء فى برهمن ، بعد التخلص من الحياة بالامتناع عن متابعة الحواس ، أو إعمال الفكر ، أو السعى بالعمل ، فإنهم يرون فى « علم الروح » المزعوم أن

عالم الروح هو العالم الحقيقى ، الذى يفر فيه الإنسان من « عالم المادة » القائم على الوهم الذى تصنعه الحواس ، ويصنعه التفكير . . !

ثم يزيدون إلى هذا التلفيق ، بعد العجز عن تفهم حكمة الله الحق فى خلق الدنيا ، طريقاً بالهدى ، وجهاد النفس ، إلى الآخرة والخلود — وصفهم لهذا العالم الروحانى عندهم بأنه : عالم تموت فيه الحواس كلها ، فلا رؤية ولاسمع ، ولا لمس ولا شم ، لأنه عالم من « الأثير » تتجاوز ذبذباته سرعة الضوء ، وهو مع ذلك — وياللغرابة — صلب جداً . . ومرن جداً . . وأغرب من ذلك أنه يتخلل عالمنا الأرضى . . أى إن هذه الأرواح المزعومة تعيش وتتحرك بكل حريتها حول البشر . . ولكنها داخل الذبذبة الأثيرية الشديدة لا تظهر لنا . . مثل مروحة الطائرة لا تظهر لنا فى شدة دوراتها . . بينما هذه المروحة — وهى تدور بسرعة — ترى البشر الذين لا يرونها . . وتضحك من سذاجتهم . . وبطء حركتهم ! !

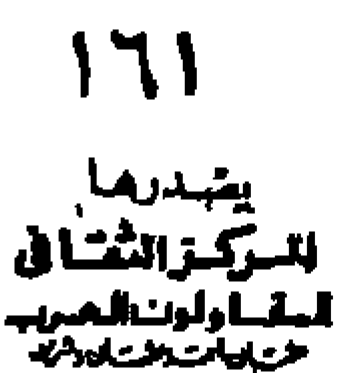
وحتى يجعل كهنة « علم الروح » أوهامهم الرخيصة قريبة من متناول وتصديق البلهاء والتعساء ، فقد جمعوا من طريق وسطائهم ووسيطاتهم ، المدربين جيداً على الحفظ والتشكيل والتمثيل — عدداً من أحاديث أو اعترافات فريق من الروائيين ، والأدباء ، والعلماء ، والفلاسفة المشهورين فى أوروبا وأمريكا فى القرن العشرين ، وذلك ليكونوا معروفين لأكثر قراء هذه الكتب الدجلية عن علم الروح المزعوم ، وحتى يتأثر هؤلاء بشهاداتهم أو باعترافاتهم هذه للوسطاء ، عن حياتهم

الجديدة ، والسعيدة ، عن عالم ما بعد الموت الذى لا يزال فى غيب الله ، إلا ما ذكره عنه من الإشارة فى كتبه المنزلة من حقائق البعث ، والحساب والجزاء . . !

ومثال من هذه الشهادات المزورة على من ماتوا ، وهى جميعاً خالية من الجد ، أو ذكر أية حقائق يقينية عن رؤية جديدة لهؤلاء العلماء ، فيها ما يستحق أن يقال لو أنهم تكلموا حقاً بعد الموت ، ومن وراء الغيب — أذكر بعض ما نسبوه إلى الروائى الشهير سير آرثر كونان دويل ، مخترع شخصية شرلوك هولمز رجل المباحث الجنائية الذى بز رجال سكوتلاند يارد فى الكشف عن الجرائم ومرتكبيها . . فماذا تقول الروح المزعومة لهذا الرجل ، مفرط الذكاء ، إذا كان قد رأى حقاً ما يكشف عنه مما وراء الموت ليقوله للأحياء . . مبشراً . . أو محذراً . . !

إن هذا الرجل شديد الذكاء لا يزال يتكلم بغير اكتراث كما لو كان لم يفارق الدنيا بعد . . إنه لا يزال هو الارستقراطى الإنجليزى ، الحريص على إمتاع نفسه ، والانغماس فى إشباع ميوله وشهواته ، داخل نظامه الرتيب الذى وضعه لعمله وراحته . . إنه يقول مثلا من هذا القول الذى نسبوه إليه قياساً على معلوماتهم عنه ، وكأنهم يضعون على لسانه ما ينبغى أن يقوله فى « رواية » يؤلفونها هذه المرة عنه للمتاجرة باسمه :

« إن حياة الفرد اليومية هنا تشبه حياته اليومية التى اعتادها فى الدنيا ، ولكنه فى بادىء الأمر ، وبعد الموت مباشرة ، ينال قسطاً من الراحة ،





تمشياً مع عادة النوم الدنيوية . . فنحن وإن لم يكن عندنا ليل مثلكم إلا أنه لابد لنا من الراحة . . » ! !

وهو يقول أيضاً وكأنه لم يمت بعد ، ولم ير جديداً فى عالمه الجديد المزعوم :

« إننا لا نبعد الآن عن الأرض إلا قليلا ، ونتيجة ذلك أننا لم نتخلص إلى الآن من الأفكار الدنيوية ، وذلك رغم اكتسابنا بعض الأفكار الجديدة . . » ! !

ثم يتحدث — فى هذه الرواية الدجلية عنه — كما لو لم يكن هناك إلاه فى حياته الجديدة بعد الموت ، وتماما كما لم يكن يعرف هذا الإلاه أو يلتزم تجاهه بشىء قبل الموت ، وكما هو شأن من ألقوا عنه هذا الحديث المكذوب من أبالسة « علم الروح » المزعوم وشعوذته . . إنه يقول :

« أصبحنا هنا نميل إلى التخلص من عادات الدنيا ومتعلقاتها . ونحن فى بادئ الأمر نشعر بالحرية فى الفكر والعمل ، إننا هنا لسنا مقيدين إلا ببعض القيود المفروضة ، لا عن طريق القانون ، بل عن طريق الظروف . . أما فيما عدا ذلك فلنا الحرية المطلقة . . » ! !

وتتحدث روح أخرى — فى مجرى هذا المسلسل من الأكاذيب — فتقول وهى تشرح صعوبة « الحرفة » الجديدة التى أكرهت الأرواح بقوة « الوسطاء » الكذبة على الحياة خلالها فترات على الأرض ، فهى تقول كما يزعم كهنة علم الروح المزعوم فى كتبهم :

« هناك صعوبات جمة نواجهها قبل التمكن من الاتصال بكم ، منها صعوبة اختراق هالة الوسيط ، وصعوبة التحكم فى حواسه وتفكيره ، وصعوبة « إلهامه » . . وصعوبة إيقاعه فى غيبوبة ، وصعوبة إبعاد الموجات الفكرية المعاكسة . . وصعوبة سحب مادة الأكتوبلازم من دمه . . وكذلك صعوبة منع « المتطفلين » من « الأرواح الجاهلة » من الاقتراب . . والتأثير على أعمالنا . . » ! ! !

أليس هذا من المضحكات المبكيات . . فى مجرى حياة ، وصراعات ، وتعقيدات هذا العصر . . وعلى رأسها هذه الصورة المأساوية لأحزان وشعوذات « تحضير الأرواح » . . ! ؟

وكيف لا تكون هذه الصورة البشعة من الشعوذة واحدة من ظواهر هذه الحضارة العلمية بغير إيمان . . عندما نقرن بين ذروة التطور العلمى فى مجال عجائب الكشوف الطبية ، والمستحضرات الدوائية ، وأحدث الأجهزة لإجراء أخطر العمليات الجراحية ، ومنها زرع أعضاء صناعية أو بشرية بدلا من الأعضاء المريضة فى جسم الإنسان . . نعم عندما نقرن بين ارتفاع هذه القمم العلمية فى مجال علاج الأجسام . . بهذا الانهيار للأنفس فى غيبة الإيمان ، حيث تصاب أجسامها معها بما لا علاج له قط فى يد الطب المتقدم ، والباهر . . تصاب بالسيكوماشية . . أى بمرض النفس المعادية لجسدها .. أى بما يسمونه بهذه الدلالة Psychomachy . . ثم . . زيادة فى الوبال والنكال . . تأتى نفوس أخرى منهارة ، لتعالج باسم شعوذة « تحضير الأرواح » . . أجسام ونفوس الحزانى . . .

والمنهارين . . والمحطمين . . فتدمر ما بقي من عافيتهم . . و آمالهم . . بعد نهب الكثير الممكن من أموالهم . . ومدخراتهم . . !

وهكذا تخصص كتب ودعايات « علم الروح » المزعوم ، مساحات كافية للحديث عن هذا الهدف الأساسى من هذه الكتب ، وهو « العلاج الروحى » أو التجارة الرابحة التى تقوم بها « الأرواح » المزعومة لحساب هؤلاء الدجالين المعاصرين ، عندما يثيرون آمال المحزونين ، والمنهارين ، للوقوع وراء بقايا الآمال المنطفئة فى تلك الهاوية السرابية من هذا « العلاج السحرى » الذى تقوم به للبشر على الأرض « أرواح » تنزل إليهم من السماء . . لتتحدث إليهم .. بحسب قدرتها . . وبحسب ما يدفعون لوسطائها . . ثم يضيع كل شىء فى الوهم .. !

وعندما تشتغل « الأرواح » المزعومة بالطب فأنه لابد لها من التخصص .. وعلى ذلك فقد انقسموا بحسب ما أراده لهم كهنة العلم الروحانى إلى تخصصات نذكر منها لاستكمال تصور هذه المأساة « الروحية » ما يأتى :

- أرواح تشخص المرض ثم تترك إتمام العلاج للطب البشرى . . !
- أرواح تشخص المرض ثم تساعد الوسيط على مباشرة العلاج بلمسات اليد ، أو بحركات أخرى . . !
- أرواح تشخص المرض ثم تحدد نوع الدواء من الصيدليات لعلاج هذا المرض . . !
- أرواح تشخص المرض ثم تعالج المريض باستخدام الأضواء ، والألوان . . !

ـ أرواح تقوم بعلاج المريض فى مكان بعيد عن جلسة التحضير ، وذلك بإيفاد الوسيط إليه فى جسده الأثيرى لعلاجه . . !

فهل انتهى المرض ؟ . . أم هل ستنتهى أكذوبة هذه الأرواح الخرافية التى لا تخرج إلا من بطون الوسطاء وبتدبير كهنتهم ؟ .. وكيف تتوقف . . وهى النذير فوق مجتمع يعيش حياة وخيرات « العلم بغير إيمان » .. كيف .. ما لم يسترجع هذا المجتمع الصاخب بعلومه وصراعاته ـ حياة : الإيمان والعلم .. والإخاء والعدل .. والسلام وحقوق الإنسان ..؟! أم إن الآيات والنذر لا تغنى « عن قوم لا يؤمنون » .. ! ؟

نسأل الله الرحمة منه . . والهدى إليه . . لنا .. ولجميع من يسمع من أهل الأرض . . ومن يهتدى . . ومن ينيب .. إنه سميع عليم .

فى صحوة المسلمين إلى رب العالمين :

والآن . . بعد هذه الرحلة الشاقة ، وراء أسباب تخلفنا المعاصر نحن المسلمين ، ورغم استمساكنا ويقيننا بصدق القرآن المبين . . هل نستطيع أن نجد الطريق مفتوحاً ـ فوق أنقاض وحطام هذه الفلسفات الحلولية والروحية والخرافية ـ إلى القوة والوحدة ، وإلى نقاء العقيدة والثقافة . . ؟ . . وهل نستعيد بذلك رسالتنا الحضارية التاريخية عندما نستطيع بعودتنا إلى الله الحق ، وإلى الإسلام الخالص ، أن نؤثر تأثيرنا الحيوى ، والإيجابى ، فى مستقبل وعمران وسلام البشر . . ! ؟

إن الواجب الظاهر أمامنا اليوم ، والملقى بأمانة الله على كواهلنا كل يوم ، وبخاصة فى مصر والوطن العربى ، هو أن نعزز مبادراتنا نحو فهم الدين الصحيح ، فهما شرعياً ، وعقلياً ، وعلمياً صحيحاً ، يتعاون على إظهاره وإحيائه جهد العلماء الصادقين ، والمفكرين الدينيين ، بما يؤدى إلى هذه النقلة الحتمية لحياة المسلمين المعاصرين ، وهى أن يعيشوا الدين مرة أخرى قولا وعملا ، وشريعة ومجتمعاً ، بكل ما هو عليه فى التنزيل ، وأسوة الرسول ، من حقيقة رسالته ، وظاهر غاياته .. إن شاء الله .

إن هذه العودة الصادقة بالقول والعمل ، وبالنية والهدف ، إلى الله والرسول ، وإلى الكتاب والسنة ، ستفتح للمسلمين المتفرقين فى كل مكان ، طريق استهداف وحدة كلمتهم ، ووحدة طريقهم ، ووحدة غايتهم ، فوق شتات الفرق والنحل المتضاربة فى تفسيراتها ، وفلسفاتها ، وأساطيرها . وهذه العودة إلى الله والرسول ، فى ضوء حياة السلف الصالح قبل الفرقة والخلافات . هى حتمية ، فوق أنها ممكنة .

ولن تصح البداية نحو هذه العودة ، وفى أضواء هذه الصحوة ، إلا عندما نعتزم بكل الطهارة والصدق ، وبقوة الإيمان وسلامة البيان ، أن ننزه معتقداتنا السائدة من مخاطر الشرك القديم ، ومن مبتدعات الشرك الحديث ، وأكثره كما رأينا ينضح فى المعين العذب لمصادر الدين القيم فى أيدينا ، بتسربات الفلسفة الهندية الحلولية ، والفلسفة اليونانية الصورية والظنية ، ليشتت بكلمة «الأرواح» ، وبادعاء حلولها باسم «مقامات الألوهية»

فى أجسام بعض الأفراد ، طرق التفسير البيانى ، والتدبر العقلى ، والاستدلال العلمى ، لما بين أيدينا من محكمات آيات القرآن ، ومن صحاح أحاديث الرسول .

إن شق الطريق الواسع ، والحيوى ، أمام هذه العودة الصادقة إلى الله والرسول ، وإلى الكتاب والسنة ، سيتيسر للمسلمين ، ولنا نحن العرب المؤمنين تماما ، وابتداء من مصر قلب العروبة ، ومنارة الإسلام — بعد أن نجتاز بهدى الله الرحيم ، وفى نور القرآن الكريم ، هذه العوائق والعقبات الآتية :

— دعوة إلى الإيمان بغير عمل يتغير به سلوك المؤمن ، أو بغير تنمية للمجتمع بقوة وهداية الإيمان يتماسك بها وتنمو أواصر هذا المجتمع المؤمن . ذلك أنه فى حكم الإسلام لا قيمة للإنسان فى الدنيا والآخرة إلا بعمله .

— اعتقاد العصمة فى بعض البشر — كما تدعى ذلك بعض الفلسفات الوثنية — وذلك بزعم حلول « مقام إلاهى » أو « باغ » كما كان الفرس يسمون ذلك قبل الإسلام . فالأنبياء جميعاً ، وهم أفضل البشر ، ومحمد عليه الصلاة والسلام وهو أفضل الأنبياء ، كانوا بشراً . . وعباداً لله مؤمنين به ، ومتطهرين فى طاعته . . ولا يقول أحد صادق بحلول الله فى أحدهم .. بينما هم أحب البشر إلى الله .. وأقربهم إليه . .

— تصور «المادة» أو «الأشياء»— فى الكلمة الصحيحة عنها — تصورا يدعو إلى الزهد الهندى فيها ، وإلى كراهيتها ، بينما هذه الأشياء«مؤمنة» ..

و « مسبحة » . . وفى تعامل الإنسان معها ـــ بعد أن سخرها الله له فى السماوات والأرض ـــ ما يحقق اختبار الخير والشر فيه ، والهدى أو الضلال فى وجهته . . وبينما هى فى كل الأحوال مبرأة من شره ، ونعمة يسوقها الله إليه فى حال هداه . . ومعنى هذا أن الإنسان فى ضوء الدين الحق هو : جسد تنتظمه عناصر الأرض التى يعيش فوقها ، ونفس هى صورة « ذات الإنسان » وقدراته وفق قوانين الله فى هذه العناصر ، وأن الوحدة الجامعة بين جسد الإنسان ونفسه هى مشيئة الله بالخلق ، أى هى : روح الله الخالق . . وأمره . . الذى يقول به للشىء كن . . فيكون .

بهذا التجاوز الشجاع لكل هذه العوائق الماثلة ، والمتراكمة ، يتحقق فى صحوة المسلمين المعاصرة ـــ إن شاء الله ـــ شرط انبعاثهم الجديد بقوة مصادرهم ، وبسلامة منهج تفكيرهم ، وبصدق عزيمتهم فى حمل أمانة الصدق بإيمانهم ، والصدق فى عملهم ، متوكلين حق التوكل على الله ، الذى خلقهم من « نفس » واحدة ، والذى تحيط بهم آياته ملء السماوات والأرض ، فى هذا العالم الذى يتنزل فيه الروح من أمر الله بما يشاء ، وهدى لمن يشاء ، وتأييداً لمن يشاء ، بينما يمسك الله بأنفس البشر قبل موتها ، حافظاً لها ، ومدبراً بأمره ومشيئته كل شىء من حولها ، إلى ذلك اليوم المعلوم الذى يتضاعف فى وعى البشر نور الله . . وتشرق حكمته . . ويتجلى سلطانه . . يوم البعث . . والحساب . . والجزاء . .

وسبحان الله . . هو الرحمن الرحيم . . وهو السميع العليم . . وهو على كل شىء قدير .

« وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ » .

(الزخرف : ٨٤)

« لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ » .

(سبأ : ٣)

« أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللّٰهُ ربُّ الْعَالَمِينَ » .

(الأعراف : ٥٤)

* * *

بحوث القسم الرابع

القرآن الكريم والسعادة

يجيب عنه :

الدكتور عبد الفتاح محمد عثمان

المدرس بقسم البلاغة والنقد الأدبي

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

السؤال الأول :

« السعادة » و « الشقاء » بالنسبة للإنسان الذى ابتلاه الله بالحياة فى الدنيا، هما فى حكم القرآن الكريم وهدايته من حقائق ومصائر الآخرة ، وذلك بعد جلاء موقف الإنسان - عقب البعث والحساب - من عمله فى الدنيا ، وهل يجمعه هذا العمل مع السعداء ، أم يسوقه إلى أقرانه من الأشقياء ؟ . .

عن هذه الحقيقة يقول الله تعالى فى هذه الآية الوحيدة التى تناولت « السعادة » و « الشقاء » فى الحديث عن الآخرة ويوم الحساب :

« يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَوٰاتُ وَٱلْأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوٰاتُ وَٱلْأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » .

(هود : ١٠٥ - ١٠٨)

- كيف تشرح حكمة الله فى هذا النص القرآنى المحكم بتعريف السعادة والشقاء بالنسبة للإنسان بعد مرحلة ابتلائه فى الدنيا ؟

الإجابة :

قبل إلقاء الضوء على حقيقة السعادة والشقاء كما يحددها لنا القرآن الكريم ، ينبغى علينا أن نتدبر معانى هذا النص المحكم فى الآية الكريمة التى انفردت بذكر كلمتى السعادة والشقاء ، والتى حفلت بالكثير من المسائل التى كثرت وقفات المفسرين أمامها ابتغاء شرحها ، وتوضيح مقاصدها .

إن المراد باليوم هنا عندما يأتى هو « يوم القيامة » وهو اليوم الذى لا تتكلم فيه الأنفس بعد بعثها إلا بإذن ربها . الأمر الذى قد يستوجب سؤالا عما ورد من قول الله فى آيات أخرى إن النفوس تجادل عن نفسها فى ذلك اليوم كما فى قوله تعالى :

«يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا» . (النحل : ١١١)

وكما فى قوله تعـــالى إخبارا عن محاجة الكافرين عن أنفسهم « واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » . (الأنعام : ٢٣)

والجواب — كما يراه الزمخشرى فى الكشاف أن يوم القيامة يوم طويل ممتد له مواقف ومواطن ، ففى بعضها تجادل الأنفس عن نفسها ، وفى بعضها يكفون عن الكلام حتى يؤذن لهم ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم لتتكلم أيديهم ، وتشهد أرجلهم .

وفى تفسير الخازن جواب آخر عن هذا التساؤل ، وهو أن المراد

من قوله تعالى : « لا تكلم نفس إلا بإذنه » إنما هو « الشفاعة » ؛ بمعنى أنه فى هذا اليوم لا تشفع نفس لنفس شيئاً إلا بإذن الله لها فى الشفاعة .

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن أهل الموقف قسمان لا ثالث لهما : فهم بين شقى وسعيد ، إلا أن يكون هناك قسم ثالث مسكوت عنه ، وهم أولئك الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وكذلك من سقط عنهم التكليف من الأطفال والمجانين . وأمر هؤلاء وأولئك كما يقول الرازى فى التفسير الكبير موكل بمشيئة الله عز وجل يوم القيامة يحكم فيهم بما يشاء .

ونعود إلى الآية الكريمة :

« فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » .

(هود : ١٠٦)

فنقول : « الزفير » هو ترديد النفس فى الصدر ، و « الشهيق » رد النفس إلى الصدر ، وقال ابن عباس : إن الزفير : الصوت الشديد ، والشهيق : الصوت الضعيف ، وقال أبو العالية : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الجوف .

ويرى أحد المفسرين المعاصرين ، وهو الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « التفسير القرآنى للقرآن » أن فى تقديم الزفير على الشهيق فى هذه الآية حكمة بالغة ، وذلك حيث يقول : « وفى تقديم الزفير وهو دفع النفس إلى الخارج على الشهيق الذى هو أخذ النفس إلى داخل الجوف ، وذلك على خلاف ما تتنفس الكائنات الحية ، حيث تأخذ

الهواء شهيقاً ثم تدفع به إلى الخارج زفيراً ، فى هذا ما يكشف عن تلك الحال السيئة التى يعانيها هؤلاء الذين شقوا » . إنهم لا يتنفسون كما يتنفس الناس ، فيأخذون الهواء شهيقاً ، ويتنفسون أنفاس الحياة منه ، ثم يلقونه زفيراً بعد أن يأخذ الجسم حاجته منه . . كلا ، وإنما همهم كله هو أن يلقوا بهذا الهواء الذى تغلى به صدورهم ، فهم فى زفير متصل متقطع . وأما الشهيق فهو نار تلظى لا يكاد أحدهم يأخذ جرعة منه حتى يردها زفيراً ثم يعيدها شهيقاً ، وهكذا يتنفسون ناراً من داخل صدورهم ومن خارجها على السواء » انتهى . .

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » . .

(هود : ١٠٧)

التعبير بالخلود ودوام السماوات والأرض يحتمل وجهين : الأول منهما يتمثل فى أن المقصود بالسماوات والأرض سماوات الآخرة وأرضها ، وهى مخلوقة دائماً للأبد ، والدليل على أن الآخرة لها سماوات وأرض قوله تعالى :

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » .

(إبراهيم : ٤٨)

وقوله تعالى :

«وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

(الزمر : ٧٤)

ولأنه لابد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلهم ، إما سماء يخلقها الله تعالى ، أو يظلهم العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ، وكل ما استقرت قدمك عليه فهو أرض .

وأما الوجه الآخر . فهو أن المراد مدة دوامهما فى الدنيا « إلا » أى « غير » ما شاء ربك من الزيادة على مدتهما مما لامنتهى له ، وذلك هو الخلود أبداً . وهذا هو رأى الخطيب الشربينى فى تفسيره .

وحول هذا الاستثناء فى قوله تعالى عن أهل النار وأهل الجنة : « إلا ما شاء ربك » اختلف العلماء بتأويلات كثيرة لا محل لذكرها الآن ؛ إذ المهم فى الإجابة عن هذا السؤال فى نصه هو أن نحاول تقريب معنى « السعادة والشقاء » كما يحددهما هذا النص القرآنى المحكم . وعلى ذلك فنبدأ هذا التقريب بإلقاء الضوء على مادة « السعادة » فى اللغة العربية المبينة .

السعادة فى اللغة :

السعادة مصدر من الفعل « سعد » . يقال سعد ، يسعد ، سعداً ، وسعادة . ومادة « سعد » غنية فى جذورها بالمعانى التى تهدف إلى بناء الإنسان الفطرى المؤمن بناء بدنياً وعقلياً وأخلاقياً ، بحيث يسهم إسهاماً صحيحاً فى بناء المجتمع المؤمن ، المتآلف ، والمرتكز على قاعدة العمل من أجل طاعة الله فى الدنيا ، والفوز برضاه فى الدار الآخرة .

فمن معانى السعد : اليمن والاستبشار ، والإسعاد المعونة ، والمساعدة

المعاونة ، وأسعده أعانه ووفقه ، واستسعد الرجل برؤية فلان أى عده علامة سعد ويمن وتوفيق له فى صالح سعيه وعمله .

وكذلك فالساعدان للإنسان عضداه ، وساعدا الطير جناحاه ، ورئيس القوم هو ساعدهم ، بمعنى الذى يقودهم إلى ما يقويهم ، وينهض بهم ، ويساعدهم على صالح السعى والعمل .

وهكذا ينتهى أفضل معانى « الإسعاد » و « المساعدة » إلى متابعة الفرد المؤمن ، والمجتمع المؤمن ، لأمر الله ورضاه ، سراً وجهراً ، وقولا وعملا ، سواء فى انفراد المرء بنفسه ، أو فى اجتماعه ومشاركته مع غيره .

إن السعادة بهذا المعنى الشامل فى اللغة العربية ، كما نطقها أهلها وعاشوها ، تعنى خير الإنسان وأمنه ، وقوته وجهاده ، فى هذه الحياة الدنيا التى ابتلاه الله بنعمه فيها لينظر أيشكر أم يكفر ، وهو يعبر بعمله عليها إلى الحياة الحقيقية ، التى تتسع للسعادة الدائمة ، والنعيم المقيم فى الآخرة .

وعلى ذلك فالسعادة فى الدنيا لا تعنى النعيم المستقر والدائم عليها ، ولا تعنى طلب هذا فوقها ، وإنما تعنى بكل جلاء فى نظر المؤمن : قوة العمل الصالح التى تتحرك وتنشط فى طاعة الله ، وهى تبنى وتعمر فى الأرض ، حاملة فى العبور بالتقوى وحسن الزاد إلى الله معنى « الساعد » للإنسان ، والجناح للطائر ، وهما مصدر القوة والحركة ، والعمل والارتفاع .

« السعادة » إذن — وهى ضد الشقاء — هى كما يطلبها المؤمنون « تعاون » بينهم فى بناء وتشكيل المجتمع باتجاه الآخرة ، على نحو من العمران المؤمن يتحقق فيه السعى الدائب بأعمال الدنيا لإدراك النجاة من فتنتها وشهواتها ، والفوز بخيرات العمل الصالح والإحسان فيها ، فى حياة عابرة تسودها المحبة ، ويعمها التكافل ، ويسمو فيها الإيثار ، باتجاه السعادة الحقيقية ، غير الوهمية ولا الزائلة ، حيث الخلود الدائم بعد البعث ، فى جنة الله ورضوانه ، وحول ما لا نفاد له من نعيمه وعطائه .

•

إن السعادة مرة أخرى ، وبإشراق الدلالات اللغوية المبينة فيها ، هى بمعنى « العمل » و « التعاون » و « التساعد » متابعة واعية مخلصة من الإنسان المؤمن — رجلا أو امرأة — لأمر الله الذى شاء له فى ابتلائه أن يمشي فى مناكب الأرض ، وأن يضرب فى شعابها وقلبه مفعم بالطاعة والتقوى اللتين « تساعدانه » فى تحقيق الأمان لنفسه ، وحسن الرجاء فى مصيره ، بعد هذه الدنيا بين يدى ربه . فهو يسعى فيما آتاه الله من القليل أو الكثير ، ومن الضيق أو السعة ، سعى من يعلم بيقين الإيمان أن الله يراه ، ومن يرى فى نور الإيمان نور الله وبرهانه فى كل شيء يراه ، مستشعراً هذا « الرضى » فى كل عمل يعمله ، أو قول يقوله ، أو علم يكتبه ، مقبلا على الله بصالح عمله ، وقد انجلت عن عينيه غشاوة الدنيا الزائلة ، وتلألأت ملء بصيرته أنوار الآخرة بنضرتها وسرورها ، وجناتها الباقية ونعيمها . .

مع أقوال المفسرين :

هذه هي المعانى التى نستنبطها بغير جهد من مادة « السعادة » فى لغتنا العربية ، كما سجلتها معاجم اللغة ، وكما يشهد بها المأثور والباقى من تراثها الصحيح والقديم . فإذا ولينا وجوهنا شطر المفسرين لمعرفة رأيهم — فى ضوء معانى اللغة وتراثها المأثور — فى معنى ومدلول كلمة « السعيد » و « الشقى » كما يصوره النص القرآنى ، وجدنا الزمخشرى فى الكشاف يقول : « إن الشقى الذى وجبت له النار لإساءته ، والسعيد الذى وجبت له الجنة لإحسانه » .

غير أن أحد المفسرين القدماء،وهو الخطيب الشربينى يقول فيما هو أقرب للصواب ، وحيث يربط حقيقة السعادة والشقاء بطاعة الله ، وفعل الخير ، والتوجه به وجهته الصحيحة : « فنهم — يعنى من أهل الموقف . شقى وسعيد : الشقاوة خلاف السعادة ، والسعادة هى معاونة الأمور الإلهية للإنسان ، و « مساعدته » على فعل الخير والصلاح ، وتيسيره لها . ثم السعادة على ضربين : سعادة دنيوية ، وسعادة أخروية ، وهى السعادة القصوى ؛ لأن نهايتها الجنة ، وكذلك الشقاوة على ضربين أيضاً : شقاوة دنيوية ، وشقاوة أخروية هى الشقاوة القصوى ؛ لأن نهايتها النار » .

وهذا التعريف للسعادة والشقاء يبدو — كما أراه — أقرب ما جاء فى كتب المفسرين لمعنى النص القرآنى . فالسعادة فيه تعنى طاعة الله بين المؤمنين ، وتعاونهم على تنفيذ أحكامه فوق الأرض ، وعمل مخلص

ودائب منهم فى وجوه الخير والإصلاح التى يعمر بها المجتمع المؤمن ، وتعمر بها نفس الإنسان المؤمن ، الذى يصبح عبداً شكوراً يرجو سعادة الفوز بالجنة ، فى ظل أمانه من فتنة الدنيا وأهوائها ، بعد أن أذهب الله عنه الخوف والحزن ، والحيرة والشتات .

وأما الشقاوة فهى عكس هذا كله ، إذ هى كفر وعصيان لله ، وفسوق عن أمره ، وتخريب وتبديد لخيرات الله فى الأرض ، وإفساد لعمرانها ، ونهم للملذات الدنيا الرخيصة ، وانكباب على شهواتها الزائلة .

وهكذا نجد أن السعادة الحقيقية كما يرجوها المؤمن فى معناها الجلى والثابت والدائم هى سعادة واحدة لا تكون إلا فى الآخرة ؛ لأن دلالتها فى وعد الله وموصول عطائه ، هى هذا الانتهاء الكريم إلى الخلود والجنة .

وأما الشقاوة المحققة ، فهى مصير الكافر الذى أخلد إلى الأرض ، وإلى سراب المتاع الزائل بها ، حتى إذا ما أيقظه البعث إلى مصيره واجه شقاء آخرته فى هذا الانتهاء إلى النار ، وبئس القرار .

المفسرون المعاصرون :

ولم يخرج أكثر المفسرين المعاصرين عن هذه المعانى ، فالشيخ رشيد رضا يقول فى « تفسير المنار » فمنهم شقى وسعيد ، أى فمن الأنفس المكلفة التى تجتمع فيه « شقى » مستحق لوعيد الكافرين بالعذاب الدائم ، ومنهم « سعيد » مستحق لما وعد به المتقون من الثواب الدائم .

ويقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « التفسير القرآنى للقرآن » :

« وهم بين شقى وسعيد : شقى بما حمل على ظهره من أوزار ، وما قدم بين يديه من سيئات ، وسعيد بما جاء به إلى ربه من عمل صالح يزكيه إيمان بالله ، وبهذا اليوم الذى هو فيه » .

من هذا كله نتبين أن الله الذى كتب السعادة والشقاء على من شاء من عباده لم يشأ بحكمته أن يعلن عن غيبه بأسماء السعداء والأشقياء فى الآخرة ، تاركا للناس أن يتوسموا ذلك فقط فى ظاهر أعمالهم فى الدنيا ، أى من ظاهر الإيمان والكفر ، والخير والشر ، مما لا يعلم حقيقته اليقينية إلا الله : وعلى ذلك فالناس مدعوون جميعاً برسالات الله إلى أن يختاروا الإيمان والعمل الصالح ، وأن يجتهدوا فى طاعة الله وهم يعمرون الأرض بقواعد هذه الطاعة ، متجهين بعمل الدنيا إلى حسن ثواب الآخرة ، غير قانطين بعملهم وإيمانهم من اللحاق بموكب السعداء فى هذه الآخرة المنتظرة . . يوم التناد . . ويوم يقوم الأشهاد . .

هذا المعنى يورده الرازى فى تفسيره مستشهداً عليه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما نزلت هذه الآية « فمنهم شقى وسعيد » قائلا : « يارسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ . . على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ؟ » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « على شىء قد فرغ منه يا عمر ، وجفت به الأقلام ، وجرت به الأقدار ، ولكن كل ميسر لما خلق له » .

شواهد القرآن الكريم :

ولما كان القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً وجب علينا فى بحث مفهوم « السعادة » و « الشقاء » فى كتاب الله أن ننظر فى الاستعمالات المماثلة أو المرادفة لنستضىء بها فى زيادة تجلية المعنى القرآنى ، المحكم ، وأول ما نلاحظه من ذلك أن كلمة « سعيد » لا تتكرر فى كتاب الله بعد ورودها هذه المرة الوحيدة فى الآية الكريمة التى نعرض فى هذه الإجابة لتفسيرها ، والتى انحصر بها مفهوم السعادة فى الآخرة وحدها .

وأما كلمة شقى فتتكرر الألفاظ من مادتها ، ولكن بنفس التوجه بمعناها إلى الدلالة على وقوع المقابل للسعادة فى اليوم الآخر .

ففى سورة الأعلى يقول الله تبارك وتعالى :

«فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ. سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ. وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى. ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيِىٰ » .

(الأعلى : ٩ ـ ١٣)

فالإشارة إلى « الأشقى » وبيان عقابه فى الآخرة بهذا النص القرآنى يؤكد المعنى الذى فصلناه فى الصفحات السابقة ، وهو أن الشقاء شقاء الآخرة بالإعراض عن طاعة الله فى الدنيا ، والإقبال على شهواتها وسوء العمل بها . فهذا « الأشقى » لم يكن كذلك إلا لأنه أعرض عن الانتفاع بالذكرى حين دعاه الداعى إلى طاعة الله وعبادته ، منزها عن الشركاء ، وعن الصاحبة والأبناء ، على حين استجاب المؤمن لمن ذكره بطاعة الله

فاستجاب له بهذه الطاعة التى يرجو بها ثواب الله يوم القيامة ، ويتقى بها عذابه .

ومن هنا فإن هذا المؤمن الذى يخشى الله فى الدنيا هو « سعيد الآخرة » ؛ بينما يصبح من يعرض عن الذكرى فلا يخشى الله هو « الشقى » بهذه الآخرة المنتظرة ، بل هو « الأشقى » نتيجة إعراضه ، وعناده ، وغيه .

الفلاح والفوز :

كذلك فإننا نجد من هذه الكلمات المبشرة بهذه السعادة الأخروية » فى القرآن الكريم كلمة « الفلاح » وقد وردت بصيغة الفعل الماضى « أفلح » وبصيغة التوكيد الذى يستفاد من دخول « قد » التى تفيد التحقيق حين دخولها على الفعل الماضى . يقول الله سبحانه :

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(المؤمنون : ١ ــ ١١)

فالفلاح هنا للمؤمنين – كما ابتدأت به السورة – مرتبط بالعمل الصالح الذى عرضت الآيات الكريمة لأمهات قواعده وأخلاقه ، لتؤكد وتبين أن ثمرات هذه الأعمال الموجهة إلى صلاح أمر الدنيا هى فى حقيقة مسارها متجهة إلى هدفها الأسمى وهو « وراثة الجنة » فى الآخرة ، وإدراك السعادة الدائمة بها . فالفلاح إذن هو فلاح الآخرة بصلاح عمل الدنيا .

وترد صيغة « أفلح » أيضاً فى وصف هذا المؤمن ، المستجيب لله ، الذى يزكى نفسه ويطهرها من كل رذائلها وأهوائها ، ليكون دائم الذكر والصلاة لله ، بما يعينه على الإحسان والتقوى ، وفى ذلك يقول تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ . وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ . بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا . وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » . (الأعلى : ١٤ – ١٧)

ففى هذه الآيات الكريمة التى تتم فيها المقارنة بين « الأشقى » الذى يتجنب الذكرى ، و « المؤمن » الذى قد أفلح وتزكى ، تشير الآيات إلى مقارنة أخرى بين خطأ من يؤثرون الدنيا بمتاعها الزائل ، وصواب من يؤمنون بأن « الآخرة » هى الخير . . وهى الأبقى : أى هى الخير الحق ، والخير الدائم .

كذلك نجد من دلالات ارتباط معنى « الفلاح » فى القرآن الكريم بفلاح الآخرة قوله تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (آل عمران : ٢٠٠)

فالإيمان ، والصبر ، والجهاد ، والتقوى ، من مكونات الإنسان المسلم ، ومن دعامات إعداده لهذا الفلاح بحسن ثواب الآخرة .

وكذلك نجد كلمة « أفلح » تظهر فى كتاب الله فى مقابل كلمة « خاب » لتأكيد معناها الأخروى الذى نشرحه ، وذلك فى قوله تعالى :

« قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(الشمس : ٩ ، ١٠)

والمعنى أن المفلح فى طاعة الله هو الذى يطهر نفسه من أدران الشرك ، ومن عبودية الأهواء ، وأغلال الشهوات ، وأن الذى « دساها » أى الذى أخفى نفسه ، وتوارى بها فى غيابة شهواته ، عن نور الهداية واليقين ، هو الموصوف بالخيبة . . هو الخائب الذى يخرج من ابتلائه بعمل الدنيا صفر اليدين من كل خير . . ولم لا ؟ . . أليس الأول الذى تزكى بنفسه وطهرها قد ورث الجنة خالداً فيها . . وأليس الآخر قد دس نفسه وأخفاها عن نور طريقها إلى الله والآخرة ، فهو إلى الدرك الأسفل من النار يمضى خالداً فى قرارها . . ؟

فإذا عدنا إلى المنابع اللغوية نستسق حقائقها ، وجدنا من معانى كلمة « فلح » واشتقاقاتها ، واستعمالاتها ، ما يؤكد المعنى الأخروى الواسع والشامل الذى نشرحه . فمن « فلح » نجد المصدر « الفلاح » وهو يعنى : الفوز ، والبقاء ، والنجاة . ومن « أفلح » نجد المصدر « الأفلاح » يقول الرجل لامرأته « استفلحى بأمرك » أى فوزى به . ويقول الشاعر :

« ولكن ليس للدنيا فلاح »، أى ليس لها بقاء أو دوام . ومعنى « حى على الفلاح » فى الأذان للصلاة : أقبل على النجاة . ومعنى « فلح الأرض » أى : شقها للحرث والحياة .

كذلك بالإضافة إلى كلمات « الفلاح » فى القرآن الكريم نجد من مثل معانيها كلمات « الفوز » و « السرور » وهى جميعاً تتعاون فيما بينها لتوضيح حكمة الله البالغة فى المفهوم الأخروى لمعنى « السعادة » و «الشقاء» وكيف أنهما يرجعان إلى بناء الإنسان بعمله فى الدنيا من أجل مصيره الذى كتبه الله له فى الآخرة .

لمن الفوز العظيم :

إن « الفوز » كما تمضى بمعناه آيات الله فى كتابه الكريم إنما هو « فوز » بجنة الآخرة لا جنة الدنيا ، وبسعادة دائمة فى الآخرة وليس بمتاع زائل فى الدنيا ، وهذا الفوز هو الثمرة المحققة للإيمان الصادق ، وللعمل الصالح ، كما يبتغى بهما المؤمن وجه الله وحده ، وفى ذلك يقول تعالى :

« وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . (التغابن : ٩)

ويقول تعالى :

«إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ» . (البروج : ١١)

ولقد سمى الله سبحانه هذا الطريق إليه من الإيمان والعمل الصالح منسوباً إلى هذا الفوز الكبير بسعادة الآخرة ، فجعله « المفازة » كما جعله « المفاز » كما جاء فى قوله تعالى :

« وَيُنَجِّى اللهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » . (الزمر : ٦١)

وكما جاء فى قوله تعالى :

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا . حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا . وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا » .

(النبأ : ٣١ ـ ٣٣)

أى إن هؤلاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات فى الدنيا يجدون « نجاتهم » يوم القيامة من النار ، و « مفازتهم » بالجنة وسعادتها ، ورضوان الله الأكبر فيها .

وأما السرور فى القرآن الكريم ، وموضعه « السريرة » ، أى موضع الفطرة والبصيرة ، فهو كمال هذا « الرضى » المختزن فى نفس الإنسان بتحقق هذه النجاة المنشودة بأعمال المؤمنين من عذاب الله فى الآخرة ، يقول تعالى فى مثل هؤلاء الأبرار بأيمانهم وأعمالهم :

« وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا » .

(الإنسان : ٨ ـ ١٢)

لقد كان هؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات فى الدنيا يجاهدون بعملهم لكى يحققوا الأمن والأمان من ذلك اليوم العبوس ، الشديد الهول ، وكان جزاء الله لهم فى صادق وعده ذهاب الخوف والحزن عنهم ، وتحقيق البشر والسرور بالجنة لهم .

ومثل هذا المعنى نجده فى قوله تعالى :

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا» . (الانشقاق : ٧ - ٩)

فالسرور هنا يعود إلى الحساب اليسير الذى يعقبه رضوان الله بالجنة ، وبذلك يتضح للفرحين بما آتاهم الله ، وما لم يقوموا له بحق شكره وواجب طاعته ، أن السرور الحق هو سرور الآخرة لا الدنيا !

بقى من المقارب لتعبير « السرور » كلمة « الفرح » ، والفرح فى اللغة العربية له معنيان : الأول هو مرادف السرور ، والآخر هو عكسه فى الدلالة ، ومعناه البطر بنعمة الله ، وجحود شكره عليها بالإيمان والطاعة ، وقد ورد المعنيان بدلالة كل منهما فى القرآن الكريم .

يقول تعالى فى المعنى الأول وهو الفرح بمعنى السرور :

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » .

(آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠)

ويقول الله تعالى فى المعنى الآخر من حديثه عن هؤلاء الذين بطروا نعمة الله :

«حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً» . (الأنعام : ٤٤)

ويقول فى أمثالهم ، وهم الذين يساقون إلى النار التى غفلوا عنها :

«ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» .

(غافر : ٧٥)

ويقول على لسان من عابوا على قارون فرحه بما لم يقدم حقه من نعمة الله :

«إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» .

(القصص : ٧٦)

فى المعنى الأول لفرح الشهداء باستشهادهم فى سبيل الله نجد ثواب الله الخالد لهؤلاء المجاهدين الذين لا يموتون ، وإنما هم فى جنات الخلد أحياء يرزقون ، فرحين عند الله بما آتاهم من فضله من النعيم المقيم . وبذلك يكون المقصود بالفرح فى هذه الآية أمراً بعيداً عن السعادة والسرور بنعيم الدنيا ، وأهوائها وشهواتها ، وإنما المقصود به هو فرح الفوز بالجنة الباقية ، والنجاة من النار الحامية .

وهكذا نجد أن معانى الفلاح ، والفوز ، والسرور ، والفرح بالتقوى وليس بالدنيا ؛ تتوجه كلها فى القرآن الكريم إلى الآخرة لا الدنيا . وهذا كله يتبدى واضحاً من خلال السياق القرآنى ، وما تظهره القرائن

اللغوية من المعانى الجليلة المحكمة التى يصل إليها القارىء المتدبر المتفكر ، لا المتسرع العجول ، وبخاصة إذا ما رجع إلى المعاجم اللغوية التى تحلل الكلمات ، وترجعها إلى جذورها ، وإلى أصولها فى الاستخدام الفصيح فى لسان العرب الأولين ، وهى مما يدعم هذا الفهم الذى سقناه فى هذه الإجابة ويقويه .

بهذا كله، فى مجال فهم حقيقة « السعادة » و « الشقاء » تكتسب هذه الحقيقة بمعانيها الأخروية عمقاً ، واتساعاً ، وتأثيراً ، فلا تصبح السعادة أو الشقاء رموزاً لمشاعر وقتية زائلة ، أو وقفات بالهوى عند متع دنيوية رخيصة وغير طيبة ، أو قيوداً تكبل إرادة التقوى فى الإنسان فتهوى مع هواه إلى ما يضره ولا ينفعه ، وإلى ما يشقيه فى الآخرة ولا يسعده . بل تصبح السعادة والشقاء بمعناهما الذى تحدد فيما سقناه من آيات القرآن الكريم إشارات ضوئية دائمة إلى الطريق الذى يوجب ما بعده ، وهو الارتفاع والتطهر والسمو فى حياة الإنسان باتجاه غاياته العليا التى تقربه من الله عبر دنياه ، وباتجاه ما أعده له بعمله فى أخراه .

ومن هنا يصبح الإنسان « السعيد » بما يرجوه من صالح عمله « فى الآخرة » هو رمز المسلم الصالح ، الصادق والقوى ، المستجيب لربه ، والعامل بإسلامه ، والذى لا يني بعمله أن يصلح من دنياه ابتغاء آخرته ، وأن يقوم من نفسه فى طاعة خالقه رغباً ورهباً ، وخوفاً وطمعاً ، فوق الدنيا التى يميل عن شهواتها ، ويعتدل فى طيباتها ، ويستكثر من حسناتها ، طلباً لرضى الله عنه فى الدنيا ، ولحسن الثواب الذى وعد به فى الآخرة .

لو أنه لحق بعمله وإيمانه فى الدنيا بهؤلاء الصالحين فى الآخرة « من الذين سعدوا » فدخلوا الجنة :

«خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» . (هود : ١٠٨)

وصدق الله العظيم :

«يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

(الشعراء : ٨٨ ، ٨٩)

وصدق جلت قدرته حين يقول :

« وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »

(العنكبوت : ٦٤)

أى إن الآخرة بسعادتها أو شقائها هى الدار الباقية للحياة الحقة أمام الإنسان المؤمن ليتوجه إليها ، وهو يستعين الله بصدق إيمانه ، وصالح أعماله ، وضوء أشواقه واستبشاره .

* * *

السؤال الثانى :

كثير من الدعاة والوعاظ يتحدثون عن سعادتى الدنيا والآخرة ، وهم يقومون بترغيب المؤمنين فى العمل الصالح ، وتزيين الإيمان فى قلوبهم .. فإذا كانت السعادة بحسب النص القرآنى هى سعادة الآخرة وحدها للصالحين الصادقين ، فهل ترى أن هذا الترغيب والتحبيب فى الإيمان يبرر تجاوز هؤلاء الدعاة لهذه الحقيقة القرآنية حول السعادة . . أم إن الأفضل والأقرب إلى العظة البالغة أن يلتزم الدعاة وأهل العلم بالدين حقائق القرآن الكريم فى هذا الأمر وغيره ؟

الإجابة :

إن الحديث عن موقف الكثير من الدعاة والوعاظ من تفسير مدلول « السعادة » وأسلوبهم فى ترغيب المؤمنين فى العمل الصالح ، وتزيين الإيمان فى قلوبهم بناء على تصورهم غير الدقيق لمعناها ، مناسبة نغتنمها فى هذه الإجابة للتعبير عن رأينا فى منهج الكثرة من هؤلاء الدعاة ، وأسلوبهم فى الدعوة ، وطريقتهم فى صياغة الأفكار التى يعبرون عنها ويدعون لها .

فالمنهج الذى يسير عليه أغلبهم منهج تقليدى جامد ، يقف عند حدود المعنى الظاهر للآيات دون محاولة لتعمق معانيها ، وإدراك حقائقها . كما أن هذا المنهج التقليدى يفرض على أصحابه أن يلتزموا هذا الالتزام

الذى يكاد أن يكون حرفياً بتفسير المفسرين على اختلاف مذاهبهم ، وباعتبار كتب التفسير على اختلاف عصورها ، وبما فيها من إسرائيليات وتجاوزات مرجعاً أساسيا . بل إن بعض هؤلاء الدعاة غير المتثبتين يحلو له أن يترك المعنى المقصود فى القرآن الكريم ليغوص بسامعه فى بحار الخرافات والأساطير التى غصت بها بعض هذه الكتب ، طلباً للتأثير على عوام المستمعين ، واستهواء لخيالهم ، واجتذاباً لرضاهم بهذه الأساطير الدخيلة على الإسلام ، والمتعارضة مع محكماته وعقائده ، والتى لا يبرر الدعوة بها أنها تملأ كتباً من كتب التراث .

هذا بينما يلجأ البعض الآخر منهم إلى أسلوب التعنيف والتقريع والتهديد فى دعوته ، وكأنه يطرب ببث الخوف والفزع فى نفوس من يستمعون إليه ، وبالإمعان فى تصوير الحياة التى مد الله لهم من أسبابها وخيراتها بصورة قاتمة سوداء تنفرهم منها ، وتزهدهم فيها ، بينما هو بهذا الأسلوب الحماسى المفتعل ، والذى يغلب عليه التكلف وحكم الصنعة ، لا يحقق التأثير السليم والناجح فى مستمعيه ، بل إن مثل هذا المنهج غالباً ما يؤدى مع مشاعر الكراهية للدنيا والنفور منها إلى الضياع فى متاهة التواكل والكسل ، وإلى مجافاة العمل وبذل الجهد ، من أجل حياة دنيوية صالحة يعبر بها المؤمن إلى حياة أخروية سعيدة .

وبطبيعة الحال فإن مثل هذه المناهج التقليدية فى أساليب بعض الدعاة لا تسلم مما هو أدهى وأمر فى مجال القصور عن الدعوة الصحيحة ، فالأفكار كما يعرضها هذا النوع من الدعاة تبدو فى صياغتها وفى دلالتها



مضطربة ومشوشة وغير متماسكة . وأما اللغة فهابطة المستوى ، تتساقط بها الأخطاء النحوية ، وتغص بحلقها التعابير العشوائية التي يندى لها جبين اللغة العربية الفصحى ، مما لا يملك أمامه المخلصون لرسالة الدعوة ، ورسالة اللغة ، إلا أن يأسفوا لهذا الحال الذى لا يزال عليه بعض من تجاوزهم عصرهم من الدعاة ، مع الرجاء العاجل فى إصلاح هذا الحال بإعداد الجيل القادر على حمل أعباء الدعوة الصحيحة فى رسالتها ، ومنهجها ولغتها ، ومع اليقين بأن الإعداد السليم لجيل الدعاة القادرين والمحسنين هو موضع الاهتمام من قبل المسئولين عن الدعوة فى بلادنا ، كما أن هذا الإعداد السليم غير بعيد عن قدرتهم على تحقيقه إن شاء الله .

النظرة إلى السعادة :

إن رسالة الدعاة إلى الإسلام ، والعناية البالغة بإعدادهم لنجاح هذه الرسالة ، يمثلان جانبا أساسيا من الأمانة التى نحملها فى بلادنا تجاه توصيل حقيقة الإسلام إلى المؤمنين به ، وإقناعهم بالتزام هذه الحقيقة قولا وعملا ، وسراً وجهراً ، فى فكر منظم ، ولغة سليمة ، ومنهج قويم .

والجدير بالتنبيه هو أن الأخطاء الشائعة فى منهج الكثير من الدعاة ، سواء فى أسلوب دعوتهم ، أم فى أسلوب صياغتهم للأفكار ، أم فى تدهور لغتهم ، قد أدت إلى شيوع مفاهيم سطحية ، وأحيانا خاطئة لكثير من المعانى القرآنية ، منها على سبيل المثال هذه النظرة غير الواعية إلى « السعادة » وهذا الفهم الدخيل لها على أنها سعادة الدنيا بمباهجها فى

المال والبنين والنساء . وكأنما وفرة هذه « النعم » وتحقق ما تشتهيه الأنفس من المتاع بها، والاستكثار منها ، هما علامة الرضى من الله على من رزقه بها، وأسعده بامتلاكها ، وليست كما هى فى واقعها علامة ابتلاء وامتحان وتمحيص بما ينبغى أن يقابلها من الإيمان والشكر ، ومن الإحسان والطهر ، ومن طلب الآخرة بالدنيا .

وهذه ولا شك نظرة ضيقة لمفهوم السعادة ، إذ أن الطمأنينة والسعة والإقبال على الحياة ليست مقترنة فقط بوفرة المال ، والبنين ، والمتاع بالأزواج ؛ ذلك أن فى الدعوة إلى الله ، وفى الإضافة إلى العلم ، وفى الحركة بالصحة ، وفى الجهاد عن الحقائق والفضائل ، أكثر الكثير من أسباب الطمأنينة والسعة والإقبال على الحياة لأصحاب هذه النعم . ومعنى هذا أن متع الدنيا وشهواتها ، كما قد يزينها الشيطان للإنسان هى الخسران المبين إذا ما قيست بنعيم الآخرة الباقى بالإيمان ، والخالد بمسراتها الدائمة بالطاعة . وقد أوضح الله ذلك بهذه المقارنة الجلية بين النعيمين : الدنيوى والأخروى :

«زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ . ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحياةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » .

(آل عمران : ١٤ ، ١٥)

فالله سبحانه قد جعل من نعم الحياة الدنيا — ما لم يحكمها الإيمان والتقوى — شهوات تتصل بمنازع الغريزة ، وهى « شهوات » يتخلى بها الإنسان بهواه وفتنته عن رشده وعقله . وأوضح سبحانه أن الخير الباقى للإنسان فى الدار الآخرة، حيث النعيم المقيم فى جناته ورضوانه ، جزاء منه للمتقين الذين راقبوا الله فى جهرهم وسرهم ، وآمنوا بأقوالهم وأعمالهم ، وولوا وجوههم بأعمالهم فى الدنيا شطر ثواب الله ورضوانه فى الآخرة .

إن السعادة بهذا البيان الواضح لا تتحقق بالتمرغ فى الشهوات ، وفى تلبية أهواء النفس ، وإنما هى فى التقوى والعمل الصالح ، والبذل الصادق ، والطهر الكامل ، واستشراف الآفاق الأوسع للعلم واليقين ، وللجهد والجهاد . إنها أعمال يغرسها المؤمن فى حياته ، ويوجه بها سعيه إلى ما يرضى الله فى قوله وعمله ، وهو يعمر الدنيا بالصالحات ، التى يستثمرها نعيما خالصا ، وسعادة أبدية يوم لقاء الله ، وبذلك لا تنتهى أيامه ولياليه بهذه الدنيا إلى هشيم تذروه الرياح ، كما جاء فى قوله سبحانه ، وهو يصف دنيا المغرورين بدوام المتاع بها والبقاء فيها :

« وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا » . (الكهف : ٤٥)

شواهد التراث العربى :

هذا المفهوم السليم حول ارتباط معنى السعادة بالآخرة ، لأنها لا ترتبط فى الدنيا إلا بالتقوى ، كان سائدا فى حياة العرب من أسلافنا قبل الإسلام . فلقد حفل الشعر العربى القديم بأمثلة من الحكمة ، ومن بعد نظرة الإنسان العربى الأول إلى مفهوم السعادة الحقيقية التى كان يراها فى التقوى ، والمعروف ، ولا يراها فى جمع المال ، الذى هو دائما وديعة الله فى يد من يملكه ، فهو يردها بالشكر بحسن استثمار المال فى طاعة الله ، ولا يبددها بمتابعة الهوى بهذا المال ، والمخالفة به عن أمره .

وإذا كان بعض المعاصرين لم يقرأوا الشعر العربى القديم ، بل ربما قرأوا الكثير من التشويه المتعمد أو الغافل لحياة العرب الأخلاقية فى العصر الجاهلى قبل الإسلام ، حيث عاشوا على بقية من دين إبرهيم حول المسجد الحرام ، فإننا قبل الاستدلال على صحة رأى حكمائهم وشعرائهم قبيل ظهور الدعوة الإسلامية فى أمر السعادة ، وصحة الفهم لمعناها ودلالتها ، نستشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى تقديره لحسنات العرب فى ذلك العصر رغم ما تسرب إليهم فيه من الغفلات فتشفعوا وتقربوا إلى الله بالأصنام ، وذلك فيما يرويه السهيلى فى روضه ، والنويرى فى نهايته ، من أن رسول الله يتجه بالحديث إلى أبى بكر عقب فراغه من إبلاغ الدعوة إلى بنى شيبان فيقول له : « أية أخلاق فى الجاهلية يا أبا بكر ؟ ما أشرفها : إنهم يتحاجزون بها فيما بينهم ، وبها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض » !

وفى تفصيل هذا الإجمال فى كلمة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول عمر بن الخطاب « إنى لأعلم متى تهلك العرب . إذا سافه من فى الجاهلية فلم يأخذ بأخلاقها . وسافه من أدركه الإسلام فلم يقمعه الورع » .

وهكذا جمع عمر على معنى النجاة والفوز فى حياة العرب بين من حافظوا على المعروف فى الجاهلية ، ومن استمسكوا بالورع فى الإسلام ، وهو من هو فى بصره بحياة العرب ، وفى وقوفه فى ورعه عند حدود ما أنزل الله على رسوله .

ونعود إلى شعراء العرب فيما تركوه من جيد التراث فى عصر ما قبل ظهور الإسلام لنستشهد ببعض شواهد أقوالهم على المعنى السليم ، والقديم فى التراث ، لمعنى السعادة ، وهم يتجهون بها — قبل نزول القرآن الكريم — إلى الآخرة فوق متاع الدنيا ، وانطلاقا إليها من التقوى ، وبقية ما بقى فيهم من وصايا إبراهيم . يقول الحطيئة وهو شاعر مخضرم عاش الجاهلية وأدرك الإسلام :

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مَالٍ   ولكن التَّقِيَّ هُوَ السعيدُ
وَتَقْوَى اللهِ خيرُ الزَّادِ ذخراً   وعند اللهِ للأَتْقَى مَزِيدُ

هذا هو فهم الفطرة السليمة للسعادة التى لا ترتبط بجمع المال ، وإنما ترتبط أساسا بالتقوى التى هى خير ما يتزود به الإنسان فى حياته لآخرته ، وحيث مع زيادة التقوى فى الدنيا يزداد عطاء الله للمتقين فى الآخرة .

ويقول لبيد وهو من شعراء المعلقات قبل ظهور الإسلام متوجها بمعنى السعادة عبر التقوى إلى الآخرة :

وما البرُّ إلا مضمراتٍ من التُّقى ... وما المالُ إلا مُعْمَرَاتٌ وَدَائِعُ

وما المالُ والأَهْلُونَ إلا وَدَائِعٌ ... ولابدَّ يومًا أن تُـرَدَّ الودائـع

بل لقد أدرك الشاعر العربى الأول بفطرته السليمة ، وهو يستهدى ببقية تراثه من المعروف على دين إبراهيم عليه السلام ، صحة هذا الجواب الذى لا يتبدل فى الدين الحق عن هذا السؤال المتجدد حول حقيقـة « الوجود والزوال » ، وذلك حيث جمع أحد شيوخ القبائل وهو الحارث بن عباد فى بيت واحد من قصيدته المشهورة حكمة هذه الموعظة الباقية أمام القلب المؤمن وبصيرته ، وذلك حيث يقول :

كُلُّ شَىْءٍ مصِـيرُهُ للـزَّوَالِ ... غَـيْرَ رَبِّى وَصَالِحِ الأَعْمَـالِ

نعم .. فمن يبقى .. وماذا يبقى .. غير الله الحى الباقى .. وغير هذه الأعمال الصالحة التى يدخل بها الصالحون الجنة ، بغير زوال لثمرات أعمالهم الصالحة ، وهى السعادة التى بالخلد لا تزول .

ومثل هذا عن الأعمال التى ستوضع فى موازينها يوم لقاء الله ، يقول لبيـد أيضاً :

وكلُّ امْرِئٍ يومًا سَيَعْـلَمُ سَعْيَهُ ... إِذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلٰه المحَاصِلُ

مثل هذا الفهم الفطرى كان سائدا بين الكثيرين من الشعراء فى عصر ما قبل الإسلام ، ولم يكن مقصورا على أولئك المخضرمين منهم ،

من الذين أدركوا الإسلام ، واستناروا لأنفسهم بكامل نوره ، فمن هؤلاء الذين ظهر فى شعرهم هذا الكثير من الحقائق من بقية دين إبراهيم نذكر الشاعر الحكيم « عبد قيس بن خفاف » الذى يقول من قصيدة ينصح فيها ولده « جبيل » وهو يصف له طريق الخلق الكريم فى الدنيا إلى غايته من السعادة الباقية فى الأخرى :

أَجُبَيْلُ إنَّ أَبَاكَ كاربُ يَوْمِهِ ... فإذَا دُعِيتَ إلى الْعَظَائِم فَاعْجَلِ

اللهُ فَاتَّقْــهِ وَأَوْفِ بِنَــــذْرِهِ ... وَإذَا حَلَفْتَ مُمَارِيًا فَتَحَــلَّلِ

وَالضَّيْفَ أَكْرِمْــهُ فإنِ مَبِيتَــهُ ... حقٌّ ولا تَكُ لُعْنَــةً للنُّــزَّلِ

وَإذَا هَمَمْتَ بِأَمر سوءٍ فَاتَّئِــدْ ... وَإذَا هَمَمْتَ بِـأَمر خَيْرٍ فافعلِ

وإذا تَشاجَرَ فِى فُــؤَادِكَ مَـرَّةً ... أمْرَانِ فَاعْمِـدْ للأَعَـفّ الأَجْمَلِ

إن هذا العربى بفطرته ومعروفه لم ينصح ولده ، وهو يصف له طريق « السعادة » بأن ينتهب ملذات الحياة ، وأن يغتنم شهواتها ، وإنما نصحه بما ينصحه داعية الدين الحق من تقوى الله ، ومن العطاء والبذل ، ومن فعل الخير وترك الشر ، ومن الميل والترجيح للعفيف والجميل من الأمر ، إذا ما تشابهت الأشياء ، واختلط الطيب بالخبيث ، فهذا هو الطريق مهما طال إلى سعادة الآخرة ، بعد جهاد فى الدنيا بهذه التقوى التى يتكافل بها المجتمع ، ويشرق الإيثار ، وتتمكن أواصر المودة والقربى .

وفى هذا المعنى من بذل المال للوفاء بحقوق أهله كما يدعو إليها الدين وأخلاقه يقول حاتم الطائى :

إنَّ الجواد يرى فى ماله سُبُلَا ... يرى الْبَخِيلُ سَبِيلَ الْمَالِ وَاحِدَةً

لا تَعْذِلِينِى فى مَالٍ وَصَلْتُ بِـهِ ... رَحِمًا وخيرُ سبيل المال ما وصلا

وهذه الطبيعة الباذلة للمال فى وجوه التقوى ، وأداء الحقوق ، تظهر فى أجمل صور التفانى فى سبيل المجموع فى مثل قول عروة بن الورد :

أُقَسِّمُ جِسْمِى فى جُسُومٍ كَثِيرَةٍ ... وَأَحْسُو قَرَاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

والمعنى واضح فى أنه يعطى ما كان بيده — مما ينمو به جسمه ويقوى — لأهل الحق فى ماله ليقتاتوا به ، فكأنه قسم جسمه فى أجسامهم ، وهكذا فضل الإيثار ، ودرجته فى صدق المشاركة حتى فيما لا تقوم بغيره الحياة .

ويقول حاتم مرة أخرى فى أن كنز المال لا يغنى عن صاحبه عند لقاء الموت حيث لا ينفع إلا صالح العمل :

أَمَاوِىَّ مَا يُغْنِى الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى ... إِذَا حشرجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

ويقول عنترة أيضاً من أخلاق الإيثار بالمال كرما ، وبالنفس قتالا عن الشرف والحرمات :

إنى امرؤٌ منىَّ السَّمَاحَةُ وَالنَّـدَى ... وَالْمَجْدُ أَخْلَاقٌ أصبتُ لُبَابَهَا

وَأَنَا الرَّبِيعُ لِمَنْ يَحِلُّ بِسَاحَتِى ... أَسَدٌ إِذَا مَا الْحَرْبُ أَبْدَت نَابَهَا

ويقول ذو الإصبع العدوانى من أخلاق إباء الضيم ومقاومة الهوان فى فطرة الإنسان العربى ، مع التسامى عن البخل والشح والمن :

عَفٌّ نَدُودٌ إِذَا مَا خِفْتُ مِنْ بَلَدٍ هُونًا فلست بوقَّافٍ على الْهُونِ

إنى لَعَمْرُكَ مَابَابِى بِـذِى غَلَقٍ عن الصَّدِيقِ وَلَا خَيْرِى بِمَمْنُونِ

ولا لِسَانِى على الأَدْنَى بِمُنْطَلِقٍ بِالْمُنْكَرَاتِ ولا فَتْكِى بِمَأْمُونِ

عِنْدِى خلائقُ أَقْوَامٍ ذَوِى حَسَبٍ وآخرِينَ كَثِيرٌ كلُّهم دُونِى

وقد مضى هذا الطابع الأخلاقى والدينى للشعر بعد ظهور الإسلام ، فتجلى فى شعر عدد كبير من الشعراء الذين رأوا أن « التقوى » هى العز والكرم ، وأن حب الدنيا إخلادا لها هو الفقر والعدم فمن ذلك قول أبى العتاهية :

أَلَا إِنَّمَا التَّقْوَى هِىَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ وَحُبُّكَ للدُّنْيَا هو الْفَقْرُ وَالْعَدَمْ

وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِىٍّ نَقِيصَـةٌ إِذاصَحَّحَ التَّقْوى وَإِنْ حَاكَ أَوْ حَجَمْ

التوجه إلى الآخرة :

وهكذا يتضح من السطور السابقة أن العرب الأوائل أدركوا بفطرتهم ، وببقية دين إبراهيم فى أخلاقهم ومعروفهم ، أن العمل والتعاون ، والبذل والإيثار ، هى أول الطريق إلى السعادة ، توجها بالتقوى وبطاعة الله فى الدنيا إلى نعيم الله وحسن ثوابه فى الآخرة .

وهكذا لم يدر بخلد العربى الأول وهو يتفكر فى خلق السموات والأرض ، ويفطن إلى برهان الله فى آياتها ، أن الدنيا بشهواتها ومتاعها تمثل الصورة المثلى للسعادة الحقيقية التى ينشدها، بل إنها فى واقعها من هذا الابتلاء بالخير والشر ، وبالسعة والضيق ، وبالحياة والموت ، تنبىء عما بعدها من هذا المصير المحتوم بين الخلود السعيد فى الجنة ، أو العذاب الشديد فى النار .

لقد أدرك ما تحقق منه الصالحون الأبرار بعد ظهور الإسلام ، ونزول القرآن ، من أن السعادة غيب يدعيه الأشرار فى الدنيا ،وهم يتمسكون بمتاعهم الموهوم مخلدين إلى الأرض ، بينما يتسابق إليه الأخيار نحو الآخرة ، وهم يجاهدون بعملهم الصالح فى هذه الحياة ابتغاء وجه الله ورضوانه .

نعم . . إن هذه السعادة غيب لا يخرج بحقيقته ، ولا يتجلى بأسماء أصحابه إلا يوم القيامة ، حيث فى يوم الحساب ينشق أهل الدنيا عن حقيقتهم ومصائرهم لأول مرة أمام دهشة المفتونين وفزعهم ، وفرحة المقربين ونضرة وجوههم ، وحيث يصبح رجاء المؤمنين عند ربهم يقينا، بينما تصبح سخرية الفاسقين من المحسنين — كما كان الأمر فى الدنيا — خسرانا مبينا . وفى ظهور هذا الغيب وانشقاقه لأول مرة عن السعداء والأشقياء وجها لوجه أمام الله فى يوم الحساب يقول تعالى وهو يدعو إلى إقامة الدين الحق قبل فوات الأوان :

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ. مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » . (الروم : ٤٣ ـ ٤٥)

يقول العالم المحقق الشيخ عبد الجليل عيسى فى تفسيره لهذه الآيات فى « المصحف الميسر » إن أصل اللفظ « يصدعون » هو يتصدعون ، والمقصود أن من قاموا بالبعث من الناس سيتفرقون إلى « سعداء » و « أشقياء » ، وذلك تأكيدا لقوله تعالى قبل ذلك فى نفس السورة فى الآية ١٤ .

« وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » . (الروم : ١٤)

ولكن الله تعالى يبين للمؤمنين فى قوله « يصدعون » هذه الحقيقة التى نريد هنا بيانها وهى أن الناس يعيشون فى الدنيا بعيدين عن علم اليقين بمن ولمن تكون السعادة ، حتى إذا كان يوم الجمع ، ويوم الحساب ، تصدع جدار الغيب عن هذا اليقين فى أمر الناس جميعاً ، ليظهر السعداء بنضرتهم فى جانب ، ولينطوى الأشقياء بحسرتهم فى الجانب الآخر . .

كذلك فإنه فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤكد هذا التوجه إلى الآخرة فى طلب السعادة بمفهومها من الدوام الأبدى ، وذلك حيث يروى عنه قوله : « من كان همه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل

غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له » .

كذلك فإنه عليه الصلاة والسلام يقول فى التحذير من توهم السعادة فى الدنيا، بينما هى لا تكون إلا بعمل الصالحات ابتغاء ثواب الله بالآخرة : « الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .

واجب الدعاة :

ونعود إلى استكمال إجابة السؤال الثانى فنقول : إذا كان القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وديوان العرب فى شعرهم وحكمتهم ، قد اتفقوا جميعا على هذا المعنى الأخروى للسعادة ، فإن واجب الدعاة والوعاظ يلزمهم بالتمسك بهذا النحو السليم فى تفسير « السعادة » فلا ينحرفون عن جادته ، ولا يقولون بغيره ، مهما كان الإغراء شديداً باستهواء العامة إلى خرافات يتجاوزون بها حقائق القرآن الكريم التى تدعو كافة المؤمنين إلى ابتغاء السعادة الحقيقية الباقية فى الآخرة ، بقدر جهدهم وجهادهم بالتقوى وصالح العمل فى الدنيا ، دون أن يحرمهم من طيبات الرزق ، ومن النصيب المشروع من خيرات السعى والحياة .

إن هذا التمسك من الدعاة المجتهدين ، وأهل العلم العاملين ، بحدود هذا المفهوم القرآنى للسعادة ، هو بداية التوجه الصحيح فى رسالة الدعاة إلى إصلاح الفرد والمجتمع والأمة . أما إنه إصلاح للفرد ، فلأنه يغرس

فى وعيه بذور « التقوى » ، حيث يراقب الله فى قوله وعمله ، ويؤمن بأن الله مطلع دوما على سره وجهره ؛ ومن ثم فهو يعف فى قوله ، ويخلص فى عمله ، لأنه لا يسعى إلى كسب دنيوى زائل ، ولا يخشى أحد دون الله ، وإنما هو يتطلع إلى الجزاء الموفور من الله عن صالح عمله ، مستشعرا تمام الرضى عن هذا العمل وهو فى طريقه به إلى الفوز بسعادة الآخرة ، ورضوان الله يوم الحساب .

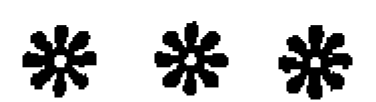
وأما إنه إصلاح للمجتمع ، فلأن الأفراد الصالحين المتقين ينشئون بأعمالهم وأواصرهم مجتمعا صالحا مؤمنا تقيا يتعاون فى سبيل الخير ، ويتساعد فى وجوه الإصلاح ، ويشارك بعضه البعض الآخر فى العمل الجاد المثمر من أجل إقامة هذا المجتمع المؤمن على دعائم شريعة الله ، وأخلاق الإيمان ، ومقاصد الوحى فى القرآن .

وأما إنه إصلاح للأمة فلأن الأمة التى تتجمع لبناتها ، وترتفع جماعتها ، من أفراد أتقياء صالحين ، والتى تضم بتقوى هؤلاء الأفراد مجتمعات متماسكة متعاونة متآزرة فى وجوه الإصلاح والخير ، والعمران المؤمن ، كفيلة بأن تقوى وتنهض ، وأن تأتلف وتتوحد ، وهى تقدم المثال الحى والمضىء لخير أمة أخرجت للناس ، هذه الأمة التى أجمل القرآن الكريم أعظم صفاتها فى قوله تعالى لقوم النبى بعد تمام إسلامهم :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » . (آل عمران : ١١٠)

هذه الخيرية التى سادت بها أمة المسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ،

وفى حياة الخلفاء الراشدين من بعده ، لتكون الأسوة والمثال لمن بعدها من الأجيال ، ومن حولها من الأمم ، لا ترجع قط لأسباب دنيوية واستمتاعية محضة ، وإنما ترجع إلى سلامة أركانها من الشريعة والأخلاق ، ومن العلم والعمل ، وإلى صحة مقاصدها ببعد الرؤية بين الماضى والمستقبل ، واليقين بحكمة الله وأمره فى هذا الابتلاء بالإيمان والعمل فى الدنيا ، باتجاه الخلود والسعادة فى الآخرة ، سباقا إلى الله بالصدق والصبر ، وتحليقا إليه بالرضى والأمن .. طلبا لحسن ثوابه ، ولما هو أكبر من هذا الثواب فى دوام قربه ورضوانه ... والعاقبة للمتقين ؟ .



السؤال الثالث :

إذا كانت السعادة هي سعادة الآخرة وحدها بالنسبة للمؤمنين العاملين الصادقين ، فما هو المقابل لهذه السعادة في حياة المؤمن في الدنيا . . هؤلاء الذين يبلوهم الله في دنياهم بالخير والشر ، وبالأموال والأولاد ، يمحصهم أيهم أحسن عملا . . وذلك لكي يجدوا في هذا « المقابل » هذا العون على مواصلة حياتهم بهذا الابتلاء والتمحيص ، صابرين شاكرين ، وغير واهنين ولا محزونين . . باتجاه الآخرة . . ونحو ما يطمعون عند الله جزاء أعمالهم من سعادة الجنة ، وسعادة الخلود بغير صراع أو خوف ، وسعادة رضوان الله .

الإجابة :

تبين من الإجابة عن السؤالين السابقين أن « السعادة » في النص القرآني الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والشعر العربي الفصيح ، إنما يراد بها « سعادة الآخرة » حيث النعيم المقيم في جنات عرضها كعرض السموات والأرض ، بعد مرحلة الابتلاء بهذه الدنيا ، أو بهذه الحياة الأولى التي تليها وتكملها الحياة الأخرى .

وعلى هذا ، فإن حصاد الأعمال في الدنيا وفقا لعقيدة الإنسان العامل بين الإيمان والكفر ، هو الذي ينتظر الإنسان في الآخرة ، ليكون به المؤمن الصادق ، الذي انتصر على أهوائه في طاعة ربه ، سعيدا في جنة

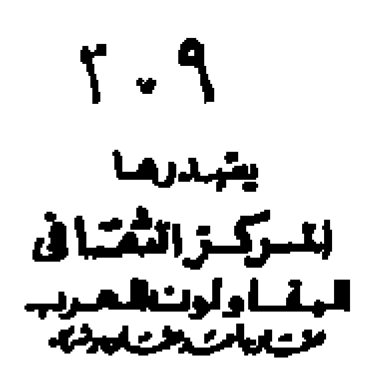
الخلد جزاء موصولا على صالح عمله ، وليكون الكافر أو المنافق الذى عصى الله وأخلد بشهواته إلى الأرض ، شقياً فى عذاب جهنم جزاء وفاقاً على سيئاته وما قدمت يداه .

والآن ونحن نستجلى حياة المؤمن الصادق بإيمانه وأعماله فى خضم هذا الابتلاء فى الدنيا بالخير والشر ، والإيمان والكفر ، والحياة والموت ، نقول : إن هذا المؤمن يعيش بحكم هذا الابتلاء الذى قضى الله به فى حكمته على جميع عباده ، مرتبطاً بما يجرى على ظهر هذه الدنيا ، وما يصيبه بين أهلها من الفوز ببعض نعمها ، أو الحرمان من بعضها الآخر ، وهو بكل هذا الذى يجرى حوله فى دنياه ، وما يصيبه بها من فوز وحرمان ، ومن رخاء وشدة ، يعيش بحكم إيمانه الصادق وفق القواعد الآتية :

أولا : واجب العمل والسعى من أجل تحصيل الرزق ، وابتغاء فضل الله من وجوهه ، بعد أداء ماعليه من حق الله فى عبادته وطاعته . وفى هذا المعنى يقول تعالى :

« فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (الجمعة : ١٠)

ويقول تعالى وهو يدعو المؤمن إلى هذا الانتشار فى الأرض سعياً إلى الرزق الطيب ، مع ربطه بين هذا السعى الدنيوى بأعظم ما ينتظره بعد البعث والنشور من الجزاء الأخروى :





« فَامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .
(الملك : ١٥)

ثانياً : واجب المؤمن فى إتقان عمله الدنيوى وإحسانه بداية وغاية ، إذ هو مسئول عنه، وسوف يجزى من الله أحسن الجزاء عليه .. يقول تعالى:

« إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » . (الكهف : ٣٠)

ويقول أيضاً :

« إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » . (التوبة : ١٢٠)

ثالثا : حق المؤمن العامل فى التمتع بالطيبات من الرزق فى حدود ما أحل الله له فى دنياه ، وبعد الوفاء بما قضى الله من الحقوق فى هذا الرزق لأصحاب هذه الحقوق . وفى حال التمتع بهذه الطيبات فى الدنيا يقول تعالى :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ »
(الأعراف : ٣٢)

ويقول تعالى فى تكريم الإنسان بهذه الطيبات التى أحلها له بحقوقها بعيدا عن تلك الخبائث التى حرمها عليه بشرورها :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا » .

(الإسراء : ٧٠)

بل إنه سبحانه أمر عباده المخلصين أن يأخذوا زينتهم حتى فى سعيهم إلى المساجد للصلاة ، وذلك حيث يقول :

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » (الأعراف : ٣١)

وكذلك هو يهديهم إلى الاستقرار النوعى ، وإلى تحقيق التوازن النفسى والجسدى عن طريق الزواج المتكافئ الذى جعله الله لكل من الزوجين سكناً ومودة ، وفى هذا يقول تعالى من آيات رحمته بعباده :

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » . (الروم : ٢١)

رابعا : واجب تسابق المؤمنين فى بناء مجتمعهم المؤمن ، وفى إعلاء صرحه ، بالمشاركة الدائبة بكل الجهد فى هذا البناء المتصل ، جهاداً عن حريتهم ، وحفاظاً على أمنهم ، ودعوة بالقول والعمل إلى المعروف أمراً به ، وبعيداً عن المنكر نهياً عنه ، لا فرق فى ذلك بين مؤمن ومؤمنة ، وفى هذا يقول تعالى :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » . (التوبة : ٧١)

الرضا والاستبشار :

ثم نأتى إلى الإجابة المباشرة عن هذا السؤال فنقول : إن المؤمن الصادق ــ كما قضت سنة الله فى خلقه ــ ليس بعيداً عن ابتلاء ربه له بأذى الخصوم ، وقلة النصير ، أو بالعقم وقلة المال ، وهو الذى أمده

الله فى صدق الإيمان بحصانة الصبر ، ومناعة الذكر ، وبشرى اليقين بفضل الله الذى يجعل بالتقوى مخرجاً كما قال :

«وَمَنْ يَتَّقِ ٱللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ» .

(الطلاق : ٣)

ومن هنا نتساءل لنحدد هذا « المقابل » الذى أنعم الله به على المؤمن الصادق بديلا لما يجده الكافرون المفتونون من سراب السعادة فى الإخلاد إلى الأرض ، والاغتراف من متعها وشهواتها . .

إننا نتساءل لنحدد هذه القوة المحصنة للمؤمن ، والمشعة برحمة الله عليه ، وهو يواجه من صنوف المشقات والبأساء والضراء ما واجه الأنبياء جميعاً ، ومن آمنوا معهم ، كما جاء فى قوله تعالى ، وهو يذكر الرسول وصحبه بمن سبقوهم فى المعاناة والصبر :

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» .

(البقرة : ٢١٤)

الجواب : إن هؤلاء المؤمنين الصادقين إنما يجدون حصنهم المتين أمام رياح البأساء والضراء وهم يجاهدون عن دينهم وإيمانهم ، وعن أعمالهم وأخلاقهم — فى هذا الرضى الذى يستشعرونه فى هداية الله لهم بالإيمان ، وهو رضى شامل يتوجه الله به إليهم بالهدي ، ويتوجهون به

إليه بالطاعة ، وعن هذا الرضى العميم الذى يطمئن به عباد الله المجاهدين المخلصين إلى حسن الجزاء فى الآخرة بعد نصرهم وتأييدهم فى الدنيا يقول تعالى :

«وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

(التوبة : ١٠٠)

ومع الرضى السابغ فى حياة المؤمنين الصادقين ، من رضى الله عنهم ، وتوفيقه بهدايتهم ، نجد أيضاً هذه البشرى التى تلازمهم فى شدائدهم . إنها البشرى الدائمة من الله بنصرهم ، والاستبشار الدائم بوعد الله لهم فى دنياهم وفى آخرتهم ، وفى هذه البشرى التى حملها كل الأنبياء لأقوامهم ، والتى لا يزال يضىء بها كتاب الله رحمة وتثبيتاً وتأييداً للمؤمنين ، يقول تعالى :

«وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(البقرة : ٢٥)

ويقول سبحانه أيضاً وهو يقوى ويؤيد بهذه البشرى أولئك المؤمنين

الصادقين ، والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله رحمة منه وفضلا على طريق الدنيا باتجاه الآخرة :

«ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ» . (التوبة : ٢٠ ، ٢١)

ومع الرضى والبشرى للمؤمنين الصادقين فى الحياة الدنيا يجعل الله لهم الدرع والجنة فى الصبر على بلائهم وشدتهم ، ومشقات حياتهم ، حتى يأتيهم النصر القريب فى الدنيا ، وإلى أن يدركهم الفوز بالسعادة الأبدية والنعيم المقيم فى الآخرة . وفى بشرى المؤمنين المهتدين الصابرين بما يحفهم من صلوات الله وثوابه ورحمته عليهم يقول تعالى :

«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَىْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» . (البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦)

الأمن والسكينة :

وأخيراً نصل إلى صميم الجواب عن السؤال حيث نقول : بالرضى والاستبشار والصبر تتجمع عناصر القوة الحقيقية للمؤمنين الصادقين

فى مواجهة كل ما يحيط بهم من البأساء والضراء فى حياتهم ، ومن الخوف والحاجة فى أنفسهم ، وتلك هى قوة ونعمة « الأمن » كما يفيض بها الإيمان الصادق فى قلب المؤمن الوثيق العهد بالله ، والصابر بقوة الرضى والاستبشار ، وبدوام الشكر والذكر ، على طاعة الله .

هذا « الأمن النفسى » هو عطاء الله المتجدد فى حياة المؤمنين الصادقين بهذا « المقابل » لسراب السعادة فى الدنيا لمن فتنوا بها ، وانكبوا على غرورها ، لكى يعتصموا بسكينته وطمأنينته وهم يواصلون حياتهم بهذا الابتلاء الشديد ، والتمحيص المتجدد ، صابرين شاكرين ، وغير واهنين ولا محزونين ، وفى هذا يقول تعالى :

«ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ» . (الأنعام : ٨٢)

وهذا الأمن الذى ينفرد به المؤمنون الصادقون فى سكينة أنفسهم ، وقوة احتمالهم ، وسلامة مواجهاتهم لشدائد حياتهم ، هو المقابل أيضاً لهذا « الخوف » و « القلق » و « الشتات » الذى يصيب الكافرين ، والملحدين ، داخل سراب سعادتهم الموهومة فى انتهاب اللذات ، والانكباب على المنكرات ، ويتضح ذلك فى أن هذه الآية الكريمة بتقرير هذا الأمن النفسى السابغ للمؤمنين الصادقين ، الأنقياء من شوائب الكفر والشرك ، هى جواب السؤال فى الآية السابقة لها فى سياق المحاجة الشهيرة بين إبراهيم والكافرين المفتونين من قومه ، وذلك حيث يقول تعالى على لسانه ، وهو يرد على تخويف قومه له بآلهتهم :

« وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » . (الأنعام : ٨١)

والجواب كما يعلنه ويؤكده القرآن الكريم من خلال هذا المثال الحي والباقي فى أسوة إبراهيم عليه السلام هو فى قوله تعالى :

« ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » . (الأنعام : ٨٢)

فالأمن النفسى مرتبط بالإيمان الصادق لغة ومعنى ، وهو بذلك يكون معادلا موضوعياً للبلاء الذى يمتحن الله به المؤمن فى الدنيا ، فلا يستشعر التردد أمامه ، ولا الخوف منه ، بل إنه يمضى بهذا الأمن النفسى ، الشامل ، الذى هو البديل من سراب السعادة الوهمية فى الدنيا ، ومن عناصر الخوف والقلق والشتات فى غيابة أوهام هذه السعادة لمن عصوا الله ، وجحدوا نعمته ، وكذبوا رسله ، مما نراه اليوم فى أقسى الصور أشد أمراض العصر . وفى هذا المعنى من تأييد المؤمنين الصادقين بالأمن بديلا من الخوف يقول الله تعالى فى الكثير مما وهبه من نعمه لهؤلاء المؤمنين حتى يشيدوا ويرفعوا صرح العمران المؤمن :

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

ٱلَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » .

(النور : ٥٥)

لقد جعل الله بذهاب الخوف والحزن من نفوس المؤمنين الصادقين ثواباً عاجلا لهم فى الدنيا يعينهم على إتمام طريقهم بها ، مهتدين متقين ، باتجاه سعادة الآخرة ، وحسن ثواب الله بها فى جنته ورضوانه .

وفى الآيات التى تنتهى بذهاب الخوف والحزن من قلوب المؤمنين ، ليستقر لهم « الأمن النفسى » فى هذه الدنيا ، على طريقهم بأعمالهم الصالحة إلى النعيم المقيم فى الآخرة يقول تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »

(البقرة : ٢٧٧)

وفى مقابل هذا الأمن السابغ للمؤمن الصادق نجد الخوف المتصل ، وما يجره من أمراض النفس والجسم ، عقاباً دنيوياً عاجلا يصيب الله به أولئك الكافرين العصاة بما تتحول معه حياتهم إلى عذاب متلاحق ، مهما ملكوا من سعة الرزق ، وكثرة الأبناء ، وقوة السلطان . وفى مثل هؤلاء الظالمين المشركين الخائفين يقول تعالى :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِى

ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

(البقرة : ١١٤)

إن ذهاب الخوف والحزن من فؤاد المؤمن ، ومناعته بالرضى والاستبشار والصبر حيالهما يفيض عليه بهذا الأمن الدائم الذى يشتد به أزره ، وهو يواجه عظائم الأمور بنفس راضية مطمئنة ، وعقل سليم متدبر ، فإذا بهذه العظائم تبدو له يسيرة هينة ، وإذا به لا يزداد فى مواجهة الأحداث إلا ثباتاً ومضياً على طريق الإيمان ، وثقة ويقيناً بموعود النصر من الله ، غير يائس من رحمته ، ولا ناكص عن سبيله ، ولا متوجه بخالص الدعاء لغيره .

وهكذا يتضح للقارىء المتبصر ما أردنا بيانه من أن نعمة « الأمن النفسى » كما أنعم الله بها على المؤمنين ، الصادقين الصابرين ، والراضين المستبشرين ، هى العون على مواصلة السعى الجاد ، وعلى احتمال البلاء المتصل حتى يتم لهم هذا الفوز العظيم الذى أيقنوا به فى وعد الله برضوانه فى الآخرة ، مع الأبرار الصالحين ، والمؤمنين المتقين ، الذين تحقق لهم وعد الله بالسعادة الباقية ، مع الذين سعدوا فى جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب » ليحيوا : « خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » .

بشارات المؤمن على طريق الآخرة :

وأخيراً بهذه الإجابة نرى لتمام الفائدة بها أن نضيف هذه الإضافة التي تزيد من وضوح المعانى التى سبق أن فصلناها فى سياق الإجابة عن الأسئلة الثلاثة حول « مفهوم السعادة فى القرآن الكريم » ، وذلك بأن نشير مرة أخرى إلى معنى « السعد » و « السعادة » فى اللغة العربية منذ فجر النطق بهذه الكلمة على أرض الجزيرة العربية ، وما فى دلالة هذا المعنى — كما ذكرنا ذلك فى إجابة السؤال الأول — على اليمن والاستبشار حيث قلنا : إن « السعد » و « السعادة » من الفعل « سعد — يسعد » يعنيان « اليمن » . ومن ذلك فإن القول بأن فلانا استسعد برؤية فلان ، أى عده سعيداً ، إنما يعنى أنه تيمن به وعده ميموناً .

والإضافة التى نريد أن نضيفها هى تأكيد أن معنى « اليمن » فى حقيقة ما تدل عليه اللغة العربية بمعنى السعادة فى جميع استعمالاتها الصحيحة قبل نزول القرآن الكريم ، ثم ببرهان نزول القرآن وحجة آياته ، إنما يراد بها الإشارات المتجددة ، والبشارات المتصلة فى السماء والأرض بعلامات الطريق إلى الآخرة ، أى إلى حسن ثواب الله فيها لمن صدقوا الإيمان وأحسنوا العمل فى الدنيا . .

فلقد سمى العرب قبل الإسلام وبعده « سعداً » و « سعيداً » بمعنى من « تيمن » أهله بمولده ، وحياته ، ومن رجوا الخير من سعيه وعمله ، جهاداً وحفاظاً ، وإحساناً ومعروفاً ، وما قصدوا قط أنه هو المأمول

أن يحقق السعادة بمعنى الغنى بالدنيا وشهواتها ومتاعها عن مسئوليات الحرية ، والتقوى ، ومكارم الأخلاق ، وطاعة الله فى هذه الدنيا .

بل لقد سمى بعض قبائل العرب أحد أصنامهم « سعداً » وما قصدوا به حتى فى تلك المرحلة من غفلات الشرك إلا هذا « التيمن » على طريق سعيهم بما يقربهم إلى الله على ما بقى لهم من دين إبراهيم ، ومن وصاياه التى تركها فيهم بأخلاق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى إذا ما بدا لأحد أصحاب هذا الصنم المسمى « سعداً » ما يزرى به سخروا منه ونبذوه ، وقد جاء من رواية كتاب « الأصنام » الشهير عن هذا الصنم ما يأتى : « وكان لمالك وملكان ابنى كنانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل ومعه إبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها ! فلما أدناها منه نفرت منه لما كان يهراق عليه من الدماء ، فذهبت فى كل وجه ، وتفرقت عليه . وأسف الرجل فتناول حجراً فرماه به وقال : لا بارك الله فيك إلاها ، أنفرت على إبلى . ثم خرج فى طلبها حتى جمعها ، وانصرف عن الصنم وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة
من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد !

انتهى قول الكنانى فى هذه القصة ، وهو شاهد لغوى وتاريخى على هذا الارتباط الباقى إلى اليوم بين معنى « السعد » ومدلول « التيمن » البعيد

المدى ، كما هو فى مطلب التقوى والمعروف مثل « جمع الشمل » بدلا من « الشتات » .. وفى مثل الرشد بعد الغى ، والهدى بعد الضلال .

ومثال آخر من هذه الإشارات والبشارات المتجددة التذكير ، والدائمة الضوء ، بحقائق هذا الارتباط الوثيق بين معنى « التيمن » ، و « الاستبشار » فى كلمات « السعد » و « السعادة » وبين واقع التوجه الدائم بالإيمان والتقوى على الطريق الصحيح نحو الآخرة وثوابها ، هذا المثال الذى لا يزال باقياً من تراث العرب الأولين وعلومهم فى أسماء هذه الكواكب التى أطلقوا عليها اسم « سعد » وهى عشرة ، وكانوا يتيمنون بها فى منازلها ومطالعها فى السماء ، ويسمونها « سعود النجوم » ومنها كوكب « سعد السعود » وكانت العرب تحبه وتتيمن به وتقول : « إذا طلع سعد السعود نضر العود » ، أى كان يمناً وبشارة بما يأتى بعده من نزول المطر ، ووقوع الخضرة ، وإخصاب المرعى ..

وهكذا كانت ولا تزال كواكب السعد فى منازلها ومطالعها ، كما لا تزال كلمات السعد فى معانيها ومشتقاتها علامات مضيئة على الطريق الطويل . . والطريق المستقيم . . باتجاه البشرى المطمئنة ، والرؤية البعيدة ، لما وراء غيب الله بهذا الابتلاء المتصل فى الدنيا ، من هذا اليقين بحسن ثواب الله فى الآخرة ، حيث هذه « السعادة » المستقرة لأهلها هناك ،

فى ظلال الجنات ، والنعيم المقيم ، وحيث ما هو أعظم من ذلك فى رضوان الله الرحمن الرحيم . . ومن أوفى بعهده من الله أيها المؤمنون الصادقون :

« فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

(التوبة : ١١١)

* * *

القرآن الكريم
والقرن الخامس عشر

يجيب عنه :

الكاتب الإسلامى
أحمد موسى سالم

السؤال الأول :

* نحن اليوم على أبواب نهاية العام الهجرى ١٣٩٩ ، وسطالع العام الهجرى الجديد ١٤٠٠ هـ ، حيث بانتهائه يبدأ القرن الخامس عشر من الهجرة .

* هل ترى أن من الخير للمسلمين بمناسبة استهلالهم هذا القرن الخامس عشر من تاريخ هجرة رسول الله إلى المدينة ، ومما تم بعد من قيام دولة الإسلام وانتصاره وانتشاره — أن يحتفلوا بهذه المناسبة التاريخية احتفالا هادفاً ، يعبر عن حاجتهم إلى استعادة قوتهم ، ووحدتهم ، بالإسلام وشريعته ، وبعلومه ومقاصده ؟

* ماذا تقترح من البرامج التذكارية ، والدينية ، والثقافية ، لمثل هذا الاحتفال الكبير فى كل من مصر ، والوطن العربى ، والعالم الإسلامى؟

الإجابة :

مع مطالع القرن الخامس عشر الذى يبدأ فى نهاية العام الهجرى الحالى ١٤٠٠هـ ، تنبه المسلمون فى الوطن العربى ، وبخاصة فى مصر ، وفى العالم الإسلامى ، إلى واجب احتفالهم بهذه المناسبة التاريخية احتفالا هادفاً ، بكل براجه التذكارية ، دينية كانت أو ثقافية ، للتعبير عن هذه الدلالة الخاصة لهذا القرن الجديد ، تعبيراً يشهد بصحوتهم لتجاوز تخلفهم

الزمنى ، والعلمى ، والحضارى ، ويعلن عن تطلعهم الجاد لاسترجاع حقائق التاريخ ، وتصحيح التزامهم بحقائق الإسلام ، وعن أملهم الذى يتوقون إليه فى توحدهم ، وتماسكهم ، وسط هذه المخاطر الكبرى التى أخذت تحدق بالعالم المعاصر ، وتحدق بهم فى داخل هذا العالم المعاصر .

وإذا كانت بعض المؤسسات الدولية مثل « اليونسكو » قد أعدت نفسها للاحتفال مع المسلمين بالقرن الهجرى الجديد ، لتزيد من قوة أواصرها بهم ، فإن مصر ، قلب الوطن العربى فى الدعوة إلى الإسلام ، مصر التى قام على أرضها أول مسجد للإسلام فى أفريقية ، ورفرفت رايات الأزهر على منارته الجامعية لتعليم علوم الدين واللغة ، جنباً إلى جنب مع علوم الطبيعة والحياة .. مصر هذه بكل حيويتها فى قلب الوطن العربى ، والعالم الإسلامى ، ستقوم ولاريب بواجبها كاملا فى هذا الاستقبال التاريخى التذكارى للقرن الخامس عشر ، بكل ما يبقى من الأعمال الطيبة أثره ، ومالا تنقطع عن الأجيال القادمة أسوته ودلالته .

من هذه الأعمال التى تتجاوز التظاهر وترديد الشعارات إلى ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض ، اقترح المبادرات الآتية للتنبيه إلى ضرورة الإسراع والتصميم على مواجهة أخطاء الماضى ، كما تسبب فيها المسلمون بأكثر فئاتهم بغير استثناء ، وأوجزها فيما يلى :



التقريب بين المسلمين :

إن أول وأهم الأعمال والمبادرات التى يمكن أن نجعلها طابع هذه الاحتفالات الدينية بمطالع القرن الخامس عشر هى رفع الصوت ، والمناداة المسموعة ، بضرورة إلقاء الضوء والتنوير الكامل على جميع أواصر القربى الباقية بين المسلمين ، الذين ينبغى عليهم البدء الفورى بإزالة أسباب التباعد ، نتيجة اختلاف الجنس بين عرب فى الوطن العربى ، وأجناس أخرى فى مثل أندونيسيا وباكستان وأفغانستان وإيران . وكذلك — وهو أعظم أهمية — العمل على إذابة أسباب التنابذ والتفرق فى مجال « الاعتقاد » و « التمذهب » الذى اختلف المسلمون فى عتامه وظلامه ما بين سنة وشيعة ومتصوفة ، بينما الطريق القويم ، والصراط المستقيم إلى الله بالإسلام إليه « واحد » لا يتبدل ولا يتعدد ، وسبحانه هو القائل :

« وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » . (الأنعام : ١٥٣)

إن مثل هذا « التقريب » بين المسلمين واجب عاجل لعل أن يطلع به الهلال الأول للقرن الخامس عشر الهجرى ، وهو واجب ميسر ، ومستحب فى معنى جهاد النفس فى سبيل الله ، إذا ما خلصت النيات ، وصدقت العزائم ، لتحقيق هذا الالتقاء المتقارب حول المصادر الدينية الصحيحة فى القرآن والسنة ، بما يوقظ القربى الدينية ، والبصيرة

الفطرية ، والآصرة التاريخية ، بعيداً عن الهوى ، وقريباً إلى الحق ، وتقرباً إلى الله .

الصورة العالمية للدين :

ومن هذه الأعمال إعادة تقديم الحضارة العربية الإسلامية ، كما استقرت شمسها على الأفق فى عهد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين ، بكل مقوماتها الاعتقادية ، وخصائصها الإنسانية والعمرانية ، لأبناء وأجيال الوطن العربى ، والعالم الإسلامى ، ولشعوب أوروبا وأمريكا على اختلاف مذاهبها ، فى صورة أكثر وضوحاً واجتذاباً لوعى هذه الأجيال الحائرة أو المتشككة تجاه الإسلام وجوهره ، ومستقبله ، ومصادر قوته ، بما يؤكد سلامة المنهج الإسلامى فى تجديد قوة المسلمين على أركانها وركائزها الصحيحة ، كما نزل بذلك القرآن الكريم ، وكما جرى اختياره فى حياة الرسول الأمين وخلفائه الراشدين .

إن هذه المبادرة بتقديم الصورة الصحيحة عن الإسلام وحضارته كما أشرقت بها شمسه بعربية المقومات ، وعالمية المسيرة ، وإنسانية الأخلاق والثقافة — هى الطريق الرحب إلى استعادة ما فقده المسلمون من التوازن مع متغيرات الحضارة المعاصرة ، وهى الاتجاه السليم نحو التحرر من شتات الحيرة ، وأوهام الاغتراب ، فى ضوء الإسلام الحق الذى يحقق لهم هذا التوازن ، ويحررهم من هذا الاغتراب ، بقدر ما يستعيدون به من يقينهم الدينى والعلمى بالله الحق ، الذى هداهم إليه من قبل ، وأبقى لهم بين أيديهم ما يهتدون به إليه من بعد .

تعريب التعليم والثقافة :

ومن هذه الأعمال إعلان البداية الجادة على طريق هذا الجهد الإنقاذى العاجل باستعادة اللغة العربية الفصحى إلى حياتنا اليومية والعامة ، من حيث أنها هى الأداة الفعالة لتعريب التعليم ، وتعريب الثقافة ، بمنهج خصب ، وأسلوب موحد .

إن العمل العاجل على إحياء ودعم هذه اللغة العربية الفصحى .. اللغة القرآنية المبينة .. هو أوسع الطرق ، والبداية المضيئة لها ، باتجاه استعادة المسلمين لأصالتهم ؛ وللتدبر السليم وغير المتضارب فى التفاسير فى كتاب الله إليهم ، وفى جوامع كلم الرسول لهم ، بعيداً عن فتنة الابتداع ، ومخاطر التأويل .

والبداية على هذا الطريق — كما كانت من قبل التخلف والتفرق — تبدأ مع أول إشراقة الوعى فى عقول الأطفال فى دور الحضانة التى ينشئها الأزهر والدولة ، والتى يتم فيها بمناهج تربوية مخططة ، وبعيدة الرؤية ، إيقاظ فطرة الطفل السليمة وتنميتها على صوت القرآن الكريم ، وبذر بذور الحب المتمكن على هذا الصوت المحيي والمبين للغته العربية الشريفة ، ولسلامة النطق المعبر بكل حروفها وكلماتها .

ومن هذه البداية المشرقة المؤيدة بكتاب الله ، والنشطة بصحوة الفطرة إلى طاعة الله ، وسلامة التعبير المتصاعد مع مراحل العمر عن

هذه الطاعة وقدراتها — يمتد ويتواصل نماء هذه الأجيال المؤمنة منذ نشأتها مع مراحل أعمارها .. حتى الجامعة ..

الأمن الديني للمواطنين :

ومن هذه الأعمال أيضاً أن نخطط تربوياً — وعلى الطريق الموازى لمراحل التعليم ، لإعادة التعريف الصحيح بحقائق الإسلام فى مقومات عقيدته ، وفضائل أخلاقه ، وصحوات فطرته ، وخصائص حضارته — لجميع فئات المواطنين بالمجتمع ، من الفلاحين والعمال والمثقفين .. من الرجال والنساء .. ومن الفتيان والفتيات ، والأطفال والطفلات .. وذلك بجميع وسائل التوصيل المعاصرة ، المطهرة بكل صورها من الغواية ، والمنزهة فى كل أصولها عن الوهم والخرافة .

إن مثل هذا التخطيط العام والشامل لما نحتاج إليه ، فى منطلقات بنائنا الحضارى فى كل المجالات ، من هذا « الأمن الدينى » الذى لا يكون لنا بغيره أى أمن نفسى ، وأى أمن حضارى — هو فى حقيقته الأساس المتين الذى نرفع عليه ، ونؤصل به ، كل ما نصبو إليه من القواعد والدعائم الشامخة لحضارة الرخاء والعمران والسلام ..

إن هذا « الأمن الدينى » بكفايته لجميع المواطنين هو الذى يزول معه شبح الصراع ، وهوس الحقد ، لتنبت به أجنحة الحب ، وتترعرع أواصر القربى والود بين الجميع .. وحيث تفيض به وتتواصل قنوات الأصالة والمعاصرة بين الشيوخ والشباب .. وتتساوى وتتكامل الحقوق

والواجبات بين الرجال والنساء ، من أجل أن يحمل الرجل والمرأة معاً ، بقوة الالتزام بالإيمان والإسلام ، أمانة الأمومة الرائدة ، والأبوة الراشدة ، فى رعاية وتنمية الطفولة على نبض الفطرة والصحة ، والحب والأمل ، دعماً للأسرة المتماسكة ، وإعلاء للمجتمع المؤمن .

الشريعة نصاً وسلوكاً :

ومن هذه الأعمال فى مجال هذه الاحتفالات التذكارية بالقرن الخامس عشر ، ما شرعنا به بالفعل ، وذلك لنسرع به فى مطالع هذا القرن الجديد حتى نمضى به إلى غايته ، ونعنى به فى المقدمة أن نستعيد بالنص والسلوك ، وبالمناخ والتطبيق ، ما سبق أن حاول الاستعمار فى عدوانه علينا أن يزيل معالمه ، وأن يقوض أركانه ، وهو « شريعة الله » التى طال هذا الغروب المصطنع لشمسها على أرضنا ، وهى فى قلوبنا جميعاً مشرقة ، وحية ، ونافذة فى أعماق أهدافنا وآمالنا حتى الصميم .

لقد كان عجيباً وقاسياً حقاً أن يفرض الاستعمار على شعب عربى مسلم ، ظاهر الأصالة ، وواضح الصحوة ، أن يستورد أو أن « يقترض» قوانينه التى يعيش ويتعامل ويعمل بأحكامها ، من القوانين الوضعية الأوروبية ، التى لم يتحقق لها أى نجاح بعد ، حتى بين أصحابها .. بينما شريعة الله إلى هذا الشعب المسلم ، هى فى ذروة كمالها ، ومع شدة حاجته إليها — بين يديه .

الهجرة ومنارة السيرة :

كذلك فإنه فى المقدمة من هذه الأعمال الهادفة إلى تذكير المسلمين بتراثهم ، وتعزيز صحواتهم ، فى صور الاحتفال بمطالع القرن الخامس عشر — نذكر فضل العودة إلى كتابة السيرة النبوية الشريفة ، فى ضوء الالتزام بمنهج الكتابة الدينية العلمية ، التى تتنزه بها سيرة الرسول ، ومنارة أسوته بالقول والعمل ، عما تسلل إليها من التوهمات والخرافات بالكثير أو القليل فى كتابات المعاصرين والقدماء .

ولابأس أن نذكر العلماء من أهل الصدق والأمانة ، والتثبت والحكمة ، أن القرآن الكريم هو المصدر الذى لا يغيض علمه ، ولا يتوقف إشراقه ، لهذا العرض الدينى والعلمى الجديد لسيرة الرسول ، الذى كان الوحى فى أكثر آيات القرآن موجهاً بالطريق المباشر إليه بعد كلمة : « قل » ، كما اشتمل القرآن الكريم بالتفصيل المحكم ، أو بالإشارة المبينة إلى الجلائل والدقائق من حياة الرسول الأمين ، مسفراً فى كل هذه الآيات الحية عن قسماته النبوية ، وحقيقته البشرية ، وخصائصه الحنيفية ، وأخلاقه القرآنية ، وعظمته القيادية ، عالياً بمنارة أسوته بهذه الفضائل كلها بين المسلمين فى عصره ، وبين عامة المسلمين الصادقين من أتباعه بعد عصره .

وفى مثل هذه الكتابة المبرأة من الوهم لسيرة النبى العظيم ، والمشرقة بالحق عنه فى كتاب الله الكريم ، ستنزاح الغفلات الكثيرة عن أعظم الأحداث الجليلة فى سيرة الرسول ، وهى « الهجرة » التى اتفقت

كلمة المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفى السنة الثانية من خلافته ، على أن يؤرخوا بها للإسلام والمسلمين . وبهذا يستعيد المسلمون فى هذا العصر كل ما هم بحاجة إليه من الحقائق الغائبة ، والدلالات المرشدة ، حول حقائق ومنابع وغايات هذه « الهجرة المصيرية » التى تحقق بها من الانتصار الشامل والكامل للإسلام ، وهو يشرق من أفقها إلى ما قدره الله له بمشيئته من هذا الإشراق الفعال والمتجدد عبر المكان والزمان ، بما لم يتحقق لواحدة من هجرات الرسل السابقين .

نعم .. فالإسلام بمصادره الحية ، وبما اجتمع له من آيات الله المبينة ، لايزال فى هجرة دائمة .. هجرة نشطة ومؤثرة بالصادقين من أتباعه .. هجرة يتجدد بها شروقه من وراء سحب الغفلة ، وغيابة الابتداع .. ويتحقق بها نصر المسلمين بعد الفرقة بالهوى .. وطول الأمد .. وفتنة الأعداء .. ومع كل شروق لهذا الدين الحق تعود القلوب المختلفة فتأتلف مهتدية إلى الله الواحد حول قرآنه الحكيم ، ومقتدية بصحيح الأقوال والأعمال بأسوة رسوله الكريم .

مسابقات تذكارية :

وأخيراً .. لا يفوتنى من بين ما ذكرت من نماذج هذه الأعمال فى مجال الاحتفال الهادف بمطالع القرن الخامس عشر .. لا يفوتنى أن أذكر هذا المجال الواسع ، والمنشط للقدرات العلمية الكامنة ، وهو رصد الجوائز القيمة من الدولة ، أو من المؤسسات المعنية ، فى مسابقات

علمية وثقافية هدفها الأول إثارة الهمم الكبيرة للتأليف فى مختلف المجالات الواسعة ، والمهجورة بالإهمال ، لبناء الفكر والثقافة فى حياة المسلمين المعاصرين .

من هذه المسابقات العلمية التذكارية أقترح واحدة من أخطرها وأهمها وهى مسابقة حول وضع الأسس والقواعد لعلم « الاقتصاد الإسلامى » ، كما يمكن أن نسميه فى هذا العصر ، مستمداً من أحكام القرآن الكريم ، ومن الأسوة النبوية العملية والقولية ، ومن اجتهادات عصر الراشدين فى حياة المسلمين العملية الأولى حول المال ، وبيت المال ، والزكاة ، والخراج .

وهذا العلم القديم الذى نريد أن نستحدثه فى مواجهة « المفاهيم المعاصرة » لقواعد استثمار وإنفاق الأموال بكل أنواعها ، هو محور أساسى لبناء المجتمعات الحديثة حول معتقداتها ، كما كان الأمر فى المجتمعات السابقة ، وعلى ذلك فإن البحث الجاد فى شئون وأركان العقيدة الإسلامية يقترن بالضرورة والتلازم بوضوح قواعد هذه العقيدة فى مجال الاستثمار والإنتاج ، والتملك والإنفاق ، فى مواجهة هذه المذاهب الاقتصادية المتنافية مع الإسلام فى شريعته وغاياته ، والتى تقوم عليها سياسات وصراعات القوى العالمية المعاصرة المحدقة بالمسلمين والمؤثرة عليهم .

ومن هذه المسابقات الثقافية التذكارية أقترح مسابقة جديرة برعاية الدولة والمؤسسات المعنية تكون حول كتابة أفضل كتاب ميسر للتداول

عن « حقائق الإسلام » أى يشمل تلخيصاً صحيحاً ومبسطاً لعقيدته ، ومنابع البرهان على صحتها فى آيات هذا الكون ، وفى نفس الإنسان ، مع بيان سديد عن حكمة العبادات فى الإسلام ، وعن أصول الأخلاق فيه ، وعن محكمات الشريعة ، وقواعد المعاملات بها ، وشروط الاجتهاد فيما يتسع للاجتهاد منها ..

كذلك فإن مثل هذا الكتاب الميسر لن يفوته البيان العلمى عن إشراق الوحى الألاهى بما تميز به شرع الإسلام من إعلانه الأول فى تاريخ البشر لحقوق الإنسان المقترنة بتطبيق ما اصطلحنا على تسميته بالعدل الاجتماعى ، سواء بالنسبة للفرد وحقوقه على المجتمع ، وواجباته نحو المجتمع ، أو بالنسبة لبناء الأسرة من رجل وامرأة يتساويان بالتكامل فى بنائها لتكون اللبنة التى يقوى فوقها نمو المجتمع المتماسك ، ويزدهر عمرانه المؤمن ، ورخاؤه المشروع ، وسلامه الوارف ..

ثم أقول .. هذه أمثلة من مقترحات كثيرة ، ومفيدة ، يتسع رحابها فى مجال الاحتفال التذكارى بمطالع القرن الخامس عشر الهجرى .. فلا يضيق عن مجتهد .. ولا ينغلق عن محسن .. والله سبحانه هو الهادى إلى سواء السبيل .

عن هذه الهجرة المصيرية ، فى حياة الدعوات الدينية ، ومسيرة التاريخ الدينى ، يقول سبحانه عن الهجرة المنتصرة فى حياة الرسول الكريم ، وصحابته المجاهدين من حوله :

« ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » (التوبة : ٤٠)

ويقول سبحانه عن جهاد المهاجرين الصابرين ابتغاء وجه الغفور الرحيم :

« ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَافُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . (النحل : ١١٠)

* * *

السؤال الثانى :

* إذا كانت الحروب بكل الأسلحة ، ومنها الغزو الفكرى ، لاتزال تهدد بقاء المسلمين حول منارة عالية للإسلام وسط العالم ، وبعيدة التأثير والإشعاع فيه ، وبخاصة بعد تزايد نشاط التيارات الإلحادية الشيوعية ، والاستشراقية ، والعنصرية ، والعلمانية ، فهل ترى أن يمد المسلمون ، وبخاصة فى مصر — برامج هذا الاحتفال ليشملوا بها مواطن التأثير فى أوروبا وأمريكا ، وذلك باتجاه التعريف الحقيقى بالإسلام الخالص من الشبهات ، والتنوير بفضائله ومقوماته الإنسانية والحضارية .. وذلك بين مجموعات المتعاطفين مع الإسلام من أصدقاء المسلمين فى أوروبا وأمريكا .. بل وبين المسلمين من مواطنى هذه البلاد ؟

* ما هى الثمار الإعلامية التى يمكن أن يجنيها المسلمون من تنظيم دعوتهم للتعريف بالإسلام الحق فى هذه المناسبة .. ؟ وما هى المجالات التى تقترحها لبرامج هذه الدعوة ، وللتجمعات البشرية التى يكون التركيز على مخاطبتها فى تلك البلاد ؟

الإجابة :

إن التعريف الحقيقى بالإسلام واجب ملازم لحياة المسلمين جماعات وأفراداً ، ذلك أن قيام الفرد المسلم أو الشعب المسلم بالإسلام هو دعوة حية بغير كلام عن الإسلام ، وهو دلالة عملية على معرفة هؤلاء القائمين بالإسلام بهـــذا الإسلام . ومن هنا نكتشف واحدة من

الظواهر على أزمة المسلمين المعاصرة – على الرغم من كثرة كلامهم عن الإسلام – وهى أن الدعوة إلى الإسلام لاتزال تسير فى طريق غير متواز ولا متسق مع المعرفة الصحيحة بالإسلام ، ومع الالتزام التطبيقى للإسلام .

وعلى هذا ، فإنه إن كان من المفيد حقاً أن نبذل جهداً صادقاً – بمناسبة الاحتفالات بمطالع القرن الخامس عشر – للتعريف بالإسلام بين أقرب المجموعات إلى التعاطف معه فى أوروبا وأمريكا ، فإننا نشترط لهذا العمل المفيد ، والمبادرة الحسنة ، صحة المعرفة بحقائق الإسلام ، وأحكام القرآن ، ومقاصد الشرع ، فضلا عن الإلمام بأسباب هذه الأزمة الراهنة من سوء الظن بالمسلمين والإسلام بين عامة الأوروبيين شرقاً وغرباً ، وعن الرؤية التاريخية لجذورها فى أعمال الكثيرين من المستشرقين الذين شوهوا بالحقد والجهل ، والافتراء ، كثيراً من صفحات الإسلام المشرقة فى التاريخ الصحيح ، وفى واقع المسيرة البشرية نحو الحق والعدل والسلام .

هذا – وبالضرورة – مع القدرة التعبيرية ، والنظرة العلمية ، واللغة الإنسانية ، التى ينبغى أن يمتلكها هؤلاء الذين عليهم أن يتحملوا عبء هذه السفارة الحسنة بين المسلمين ، فى واقع تخلفهم الموقوت ، وبين هذه القوى العالمية فى أوروبا فى مرحلة أزماتها وصراعاتها المعاصرة ، تحت ضغط وهزات ما تملكه اليوم من أسلحة وعلوم ورفاهيات ،

حتى كادت أن تفقد توازنها ، وأن تندفع بشعوبها وشعوب العالم الأخرى إلى هاوية من الدمار ليس لها قرار ..

ولكن — مع كل هذا — فإنه لصحة الكتابة إلى المتعاطفين مع الإسلام فى أوروبا وأمريكا ، ينبغى أن نلم إلماماً واسعاً بأحوال المسلمين هناك ، وأن نحيط علماً بالكثير من مشكلاتهم ، ومن ضرورات الرعاية لهم ، وبخاصة مشكلات هؤلاء المسلمين المهاجرين للعمل والعيش فى أوروبا وأمريكا من أبناء الوطن العربى ، أو من الشعوب الإسلامية غير العربية .

المسلمون فى أوروبا :

فى المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر تلقت أمانة المؤتمر رسالة مؤثرة من أحد العلماء المسلمين الأوروبيين البارزين هو العالم النمسوى الكبير الشيخ إسماعيل بالبتش ، المقيم بمركز نشاطه فى فيينا ، وهو نداء أشبه بصوت استغاثة لتدارك أحوال المسلمين المتردية ، والصعبة ، فى كثير من بلدان أوروبا ..

ونوجز المطالب الحيوية ، والعاجلة ، التى تقدم بها هذا العالم الأوروبى المسلم إلى العالم الإسلامى من طريق مؤتمر علماء المسلمين بالأزهر ، فى الأمور الآتية ، مع البيانات المتصلة بها :

١ — ينبه الشيخ إسماعيل بالبتش دول وشعوب المسلمين فى كل أنحاء العالم إلى أن « الإسلام » بعد عهوده الزاهرة فوق أرض أوروبا

شمالا وجنوباً ، أصبح عند غالبية الأوروبيين اليوم « ديناً لا يعتد به »، وهذه هى نفس عبارة الشيخ إسماعيل ، ويرجع ذلك فى تقديره إلى تخلف المسلمين فى هذا العصر ، وإلى تفرقهم الذى يحرمهم من أن يكونوا قوة مؤثرة على سياسات العالم المعاصر .

٢ ــ نتيجة لهذه الفكرة السائدة عن الإسلام عند أكثر الأوروبيين أصبح المسلمون فى تجمعاتهم للعمل فى الكثير من البلاد الأوروبية ، وأكثرهم من الجزائريين ، والباكستانيين ، والأردنيين ، والأتراك ، فى أشد الحاجة إلى رعاية الدول والشعوب الإسلامية ، فى جميع المجالات التى تساعدهم على الإقامة المكفولة أسباب الأمن ، والحرية ، والحقوق المشروعة .

٣ ــ إن هذه الرعاية التى تحمل الدول الإسلامية أمانتها تجاه هؤلاء المسلمين « المغتربين » فى أوروبا ، ستكفل لهم الحقوق الأساسية الآتية :

* أن يقوموا بالعبادة ، وبخاصة فى مساجدهم ، وفى أيام الجمع ، بحرية تامة .
* أن يتيسر لهم تعلم دينهم على الوجه الصحيح ، وأن يتعلم أبناؤهم هذا الدين بالدرجة الكافية .
* أن يكون لأبنائهم الحق فى أن يتعلموا دينهم فى المدارس الأوروبية التى يلتحقون بها .

٤ — بهذه الحرية فى العبادة ، وتعلم الدين ، سيتدعم إيمان عامة العمال من المسلمين فى أوروبا ، بحيث لا يهتزون — كما يقول الشيخ إسماعيل بالبتش — أمام بريق الدعاية الشيوعية ، أو العلمانية ، فيقعوا فى فخاخها ، ويصبحوا صورة سيئة عن الإسلام بين كل من المسلمين والأوروبيين ، زيادة عن أن يكونوا عند عودتهم إلى بلادهم الأصلية ، أو عودة أبنائهم ، أبواقاً للتشكيك فى الإسلام ، والدعاية المهوسة لمذاهب الشرق أو الغرب المنكرة أو المتنكرة للدين .

٥ — إنه باستمرار المسلمين فى أوروبا على اغترابهم الراهن ، متفرقين بعزلتهم عن دينهم ، وحرمانهم من الحقوق التى لا يكفلها إلا الاعتراف القانونى بدينهم ، داخل الدول غير الشيوعية على الأقل ، فإنه من الصعب أن نتصور اقتراب الأوروبيين من التقدير الواجب للإسلام والمسلمين ، بينما ستتغير هذه الصورة المشوهة على التحقيق إذا ما نهضت الدول والشعوب الإسلامية بواجبها الدينى والإنسانى تجاه إخوانهم شبه المضيعين الآن فى أوروبا ، أى إن هؤلاء المسلمين فى أوروبا سيتحولون بهذه الرعاية الشاملة إلى المكانة اللائقة بهم ، ويبلغون درجة الأسوة الحسنة التى لا تسيء إلى الإسلام ولا إلى المسلمين فى نظر الأوروبيين ، وبذلك يصبح الإسلام — مرة أخرى — ديناً يعتد به فى أوروبا ، كما يصبح المسلمون بها أهلا لممارسة الحقوق القانونية المشروعة لاتباع هذا الدين .

رعاية الدول الإسلامية :

وهكذا نتبين من هذه الصورة القاتمة عن أحوال المسلمين فى أوروبا ، أنه على الرغم من انكسار حدة التعصب التى كانت ظاهرة فى عصر الاستعمار العسكرى الأوروبى ، ومن أن جهات وتجمعات متعددة أخذت تعلن تفهمها لسماحة الإسلام ، وتظهر تعاطفها مع مصالح المسلمين ، فإن واجب الدول الإسلامية والمؤسسات ذات النشاط العــالمى ، والأفراد من ذوى الميسرة والقدرات المتنوعة أن يسارعوا إلى تنظيم هذه الرعاية العاجلة لجميع المسلمين فى أوربا ، دون النظر إلى أجناسهم أو فئاتهم .

وهذه الرعاية التى تشمل بالضرورة توفير كل حقوق الحياة الكريمة لهؤلاء المسلمين ، تستلزم التفاهم بين الغالبية على الأقل من هذه الدول الإسلامية على تنظيم هذه الرعاية والحماية من طريقين :

الأول : الرعاية التعليمية والاجتماعية التى تستلزم تنظيم هذه الرعاية من طريق منظمة أو مؤسسة تباشر فوق الأرض الأوروبية هذه المهام والخطط التى تتفق عليها مجموعة هذه الدول لرفع مستوى حياة مواطنيها من المسلمين فى مختلف البلاد الأوروبية .

الثانى : تنظيم الاتصال المؤثر بجميع الدول الأوروبية ، ومن خلال جميع الهيئات العالمية ، للتوصل إلى إعلان هذا الاعتراف القانونى ، والدولى ، بالإسلام ديناً حياً بين الأديان السائدة فى العالم ، مما يستتبع



تلقائية رفع جميع القيود عن حقوق المسلمين المشروعة فوق أرض أوروبا فى حرية العبادة ، وحرية تعلم الدين ، وحرية الحركة والتصرف وفق التراث والتقاليد بغير أى تصادم مع القوانين السائدة .

تنقية صورة الإسلام :

هذه هى مهمة الدول ، ومهمة الهيئات والمؤسسات الفنية ، فى جميع البلاد الإسلامية ، تجاه هذه القضية من « اغتراب » أكثر المسلمين العاملين فى أوروبا عن حريتهم الدينية ، وعما يتصل بهذه الحرية من حقوق ومصالح . وأما الجامعات والمؤسسات الدينية ، والأعلام من المفكرين الإسلاميين فى العالم الإسلامى ، فأن عليهم أن يؤيدوا هذه الجهود للدول والشعوب فى مجال الثقافة الإسلامية المستنيرة ، مما لا تستطيع هذه الدول أن تفتح أبوابه ، وتنشر أضواءه ، عن غير طريقهم ..

إن هذا المجال الذى يقوم على أساس « تنقية صورة الإسلام » فى العالم ينبغى أن يتسع للكثير من الجهود الصادقة فوق رحابه ، بعقول وقلوب وأقلام الصفوة من العلماء ، الأكفاء لمواجهة هذا العصر الصاخب ، بحجة الإسلام المبينة فى كل اتجاه ، فى ردة فعل واعية ، ومقتدرة ، ومستبصرة ، لتنزيه الإسلام عن كل ما ألصقه به جميع الخصوم غير الشرفاء من الافتراء عليه ، ونسبة الخرافات الغريبة إليه .

لقد تهجم هؤلاء المرجفون على صرح الإسلام المضىء من كل جوانبه ، فنطحوا صخوره ، ودعائمه الشامخة ، برؤوس مفترياتهم ، ومزاعمهم ،

بما حاولوا به تشويه صورته أمام عامة الأوروبيين حتى يتوقفوا عن التعرف عليه ، والتأثر به .. كما حاولوا بذلك غواية بعض المستضعفين من المسلمين لتقبل ما بأيدى أوروبا اليوم من المذاهب التى تطرفت فيها بين السطحية ومجافاة الدين ..

فمن هذه المفتريات على الإسلام ما زعموا به — وبخاصة بين الشيوعيين — أنه ضد العمل ، وأن الإسلام يحض المسلمين على أن « ينتظروا » الرزق فى بيوتهم .. وأن لا يتحركوا بالعمل سعياً إليه .. لأن الله هو الرزاق !!

ومن هذه المفتريات ما زعموا به أن الإسلام ضد العلم .. مع أن المسلمين هم الذين قدموا المنهج العلمى التجريبى لأوروبا — لأول علمهم به — بديلا من الفلسفات التجريدية التى عاشوا بها عصر الظلمات حتى عصورهم الوسطى ..

ومن هذه المفتريات هذا الكثير الذى اجترحه عدد من كذبة المستشرقين — بغير علم ولا هدى ولا خلق — عن حياة الرسول العامة والخاصة ، مسرفين فى الابتذال ، ومتمادين فى الغواية والقحة ..

ومثالا على أثر هذه المفتريات العارية عن الصدق ، أو المنهج العلمى ، على عامة الأوروبيين وحتى المثقفين منهم أذكر هنا شهادة العالم الإسلامى ، والمؤرخ النابه لانتصارات المسلمين الأولى ، اللواء الركن محمود شيت خطاب ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية ، وذلك فى بحث له حول « حاضر المسلمين ومستقبلهم » ..

يقول المؤرخ الإسلامى من ذكرياته وشهادته فى هذا البحث عن مرحلة دراسته بكلية الدراسات العسكرية العليا بإنجلترا :

ـ التقيت بالمشير ـ الماريشال ـ مونتجومرى ، لورد العلمين ، فى كلية الدراسات العليا ، بإنجلترا سنة ١٩٥٤ وكان يلقى محاضرات عن معركة « العلمين » على طلاب الكلية . وكانت الكلية تدعو الأساتذة والمحاضرين فى أمسيات ترفيهية يخالطون فيها الطلاب ، وهم من جنسيات مختلفة ، حتى يكتشفوا قابلياتهم فى أوقات الهزل كما يكتشفون قابلياتهم فى أوقات الجد .

ـ وكان مونتجومرى متديناً ، وملتزماً بتعاليم دينه أشد الالتزام . فكان عميد الكلية يجمع من حوله المتدينين من الضباط والطلاب ، وما أقلهم وأندرهم ، ليناقشهم فى القضايا الدينية ، لا يكاد يخرج عن نطاقها أبداً ، ويبدى اشمئزازه من انحراف الناس عن الدين ، وعن مقومات الخلق الكريم ..

ـ وحدثته مرة عن سمات القيادة الراشدة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعن العسكرية الإسلامية استناداً إلى نصوص القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وعن تعاليم الإسلام التى تأمر بالعلم ، وتنهى عن الجهل ، وتحث على التمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق سلوكاً وعملا .

ـ وكان من الواضح من حديثه معى أن أفكاره عن الإسلام ضحلة ومشوهة ، وأن دراساته عن هذا الدين اقتصرت على كتب محدودة

قليلة ، تتسم بالانحراف والتحيز ، وتناصب العداء للإسلام وهى تتحدث عن المسلمين لا عن الإسلام ..

ـ وعندما أبدى مونتجومرى رغبته فى قراءة مؤلفات عن الإسلام بقلم مؤلفين مسلمين ، زودته بما تيسر من الكتب الإسلامية باللغة الإنجليزية لعلماء من الباكستان والهند جزاهم الله خيراً ..

ـ ولم يخف مونتجومرى استغرابه من تناقض ماسبق أن قرأه عن الإسلام فى مؤلفات أعداء الإسلام ـ الذين يخفون نياتهم المغرضة بشعارات براقة كالتظاهر بالعلم ، والدراسة التاريخية ، وعدم التعصب ـ مع هذه الحقائق التى حدثته عنها فى المجال الإسلامى ، والتى أقرأتها له فى بعض كتابات المسلمين . ولكنه لم يلبث أن تساءل قائلا :

ـ إذا كانت العسكرية الإسلامية باهرة بهذا الشكل الذى ذكرت ، فلماذا أصبح المسلمون ضعفاء مستعبدين ؟! .. وإذا كانت تعاليم الإسلام بناءة بالصـــورة التى وصفت لى .. فلماذا أصبح المسلمون مفككين .. ومتخلفين ؟! ..

ـ ويومها قلت له : « هل يطبق كل المسيحيين تعاليم المسيح عليه السلام ؟ .. فهل نلوم تلك التعاليم والوصايا .. أم إن اللوم ينصب على المنحرفين ؟! » .

حسن استقبال الإسلام وآثاره فى أوروبا :

وهكذا يطرح مثل هذا القائد الإنجليزى المتدين أسئلته البديهية على المسلمين المعاصرين ، بمجرد أن يخرج فى ضوء التعريف الصحيح بالإسلام عن الدائرة المعتمة التى أسقطها عليه أعداؤه ، والمفترون عليه . إنه يتساءل بدهشة ، كما يمكن أن يتساءل الكثيرون فى مثل موقفه : إذا كان الإسلام هكذا فى كمال شريعته ، وسماحة دعوته ، وكرم أخلاقه ، وشرف مقاصده ، فلماذا تفرق المسلمون .. ولماذا تخلفوا ؟

ونمضى مع مثل هذا التساؤل لنتبين الحق فى أن العيب الذى يراه الأوروبيون وغيرهم فى الإسلام فى هذا العصر إنما هو فى المسلمين .. وليس فى الإسلام ؟ .. الإسلام هو الماء العذب .. فأى جريرة له إذا لم تزدهر به الشجرة التى تآكلت جذورها .. الإسلام هو الشمس الدائمة الشروق فأى لوم على الشمس إذا غابت عن أعين الأعمى فضل الطريق .. والإسلام فى الشدائد هو السيف البتار فكيف نلوم السيف الصمصام إذا ما أمسكت به للقتال عن الحرية والبقاء ، يد الخائر الحريص ، والمذهول المشتت ..؟!

إذن فالدعوة إلى الإسلام بين عامة المسلمين فى ديارهم أمر واجب تستوجبه على حكومات الشعوب الإسلامية معركة هذه الشعوب للبقاء فى هذا العصر ..

كما أن التعريف بالإسلام فى أوروبا ، وتقريب حقائقه وفضائله

إلى أفهامهم ، منزهاً عن الخرافة ، ومبرأ من الإضافة – أمر واجب أيضاً تستوجبه على العلماء الصادقين الغيورين نفس هذه المعركة التي يخوضها المسلمون فوق أرضهم ، وبعيداً عن أرضهم ، وبين جماهير تلك الدول الأوروبية المستثمرة حتى اليوم لضعفهم ، والطامعة فى مواردهم ، أملا فى تحويل الرأى العام المؤثر هناك إلى نوع مبتكر من « التعايش الكريم » يبتكره المسلمون رغم ضعفهم لإقناع الأوروبيين– وهذا حق – أن تصالحهم مع الإسلام والمسلمين فى هذا العصر ، هو أول الطريق إلى خروجهم من أزماتهم الخانقة ، ومن صراعاتهم المدمرة – التى تؤذن – لولم يغيروا من نهجهم – بقرب انهيارهم ، ودمار حضارتهم بأيديهم ..

لقد تكلم الكثيرون من مؤرخى وعلماء أوروبا وأمريكا فأنذروا بقرب انهيار الحضارة الجبارة المعاصرة ، ما لم تجد طريقاً لتجاوز المخاطر المهلكة التى جثمت على صدرها ، وتسربت فى أخلاقها ، وثقافتها ، وانهيار أسرها ، وعدوانية شبابها ، وشذوذ شيوخها .. وكثير من هؤلاء العلماء ، والمؤرخين ، فتحوا الطريق إلى النجاة من هذا المصير المحتوم بالعودة إلى الإيمان .. نعم .. « العودة إلى الإيمان » .. ومعها .. « العودة إلى حقوق الإنسان » .. وكلاهما ولاشك يفتحان الطريق إلى هذا « التعايش الكريم » مع المسلمين .. ومع جميع المؤمنين بالديانات الإلهية ، وجميع الأجناس المؤمنة بهذه الأديان ..

نعم .. لاشك أن صحوة تتعرض لها أوروبا فى أزماتها المصيرية

الراهنة كفيلة بأن تنقذها مما تعلقت به طويلا فى سطحية تفكيرها المذهبى ، والفلسفى ، من « حماقة الرغبة فى السيطرة على التاريخ الحى ، والواقع ، بهذه الأنظمة الورقية ، « والمثل العليا » كما يقول المؤرخ الألمانى أوزوالد شبنجلر صاحب الكتاب الشهير « أفول الغرب » .. والذى يفسر به جميع العوامل التى تهدد الحضارة الأوروبية المعاصرة بغروب شمسها ، والتى كان من آثار « الحماقات النظرية » و « الأفكار السطحية » بها فى علم بناء « المجتمعات السليمة » تشوب واشتعال هذا الصراع المستحكم على سيادة العـالم بين « الشيوعية » فى الشرق ، و« العلمانية » فى الغرب ، وذلك .. وياللعجب .. بعد أن انتقلت هذه الشيوعية من كتابات هذا الغر الأحمق كارل ماركس من فرنسا وإنجلترا فى الغرب ، حيث كان يعيش ، ويتوهم ، ويؤلف .. إلى روسيا فى الشرق ، حيث أمكن تجديد حياة القياصرة المستبدين المترفين ، وإطالة أعمارهم ، تحت عنوان وهمى ودعائى هو ديمقراطية الطبقة العاملة .. ! !

أما من هؤلاء الذين ينبغى على العلماء والمفكرين الإسلاميين هنا أن يكتبوا إليهم فى أوروبا للتعريف بحقائق الإسلام .. فهم أولا علماء المسلمين المهاجرين إلى أوروبا ، وقادة الأنشطة الدينية والثقافية بين هؤلاء المسلمين المقيمين للعمل بها ، والذين يعمرون المساجد القليلة فى بعض مدنها ، ويعملون على تجميع الجماعات الإسلامية المفككة من حولها . .

وهم ثانياً – قادة الهيئات والجماعات الإسلامية من العلماء المنتمين إلى أوروبا بجنسياتهم ، مثل علماء المسلمين بيوغوسلافيا ، أو ألبانيا ، أو إنجلترا .

وهم ثالثاً – بعض العلماء المستشرقين أو المؤرخين أو غيرهم من بين الأوروبيين غير المسلمين ، الذين هداهم تفكيرهم المنصف ، وتبصرهم لمفازات السلامة لأوروبا من أزماتها الطاحنة الراهنة ، إلى هذا الطريق الواسع والمضيء بالتعاطف الإنساني والحضاري مع المسلمين ، وباستعادة التقدير الكامل للإسلام إلى مثل ما كان له من هذا التقدير قبيل عصر النهضة الأوروبية ، وحيث كان الإسلام بالنسبة لجميع فئات الأوروبيين هو الشمس الظاهرة ، والحقيقة الباهرة ..

ولاشك أن مثل هذا الإنجاز عظيم الجدوى على طريق التواصل الراشد بين صفوة العلماء المسلمين ، من أهل الرؤية البعيدة ، والخبرات الجديدة ، وبين المتعاطفين مع المسلمين المعاصرين من علماء الأوروبيين ، أو من بين هيئاتهم العلمية والدولية ، الذين استعادوا للإسلام في موازينهم الصحيحة ثقتهم به ديناً سمحاً ، وشرعاً حكيماً ، ومصدراً باقياً ، دائم الإشعاع بما فيه من مقومات العلم والثقافة ، والحضارة والأخلاق .

وماذا بعد في هذا المجال الواعد بخير ثماره من الأعلام عن الإسلام ، والتعريف بحقائقه ، والتنبيه إلى ثرواته وقدراته ، بين من قد يجدون في فتح الطريق لعودة التعايش معه – من الأوروبيين المعاصرين – طوقاً للنجاة .. ومطلعاً كمطالع الهلال .. نامياً بالأمل .. وساعياً بالتفاؤل ؟

ثم .. ومرة أخرى .. ماذا بعد فى هذا المجال الواعد بخير ثمار الأعلام والتعريف بالإسلام والمسلمين ، فى أوروبا المتشاغلة بأزماتها وصراعاتها عن الإسلام والمسلمين .. إلا أن يبدأ البادئون .. وأن يجتهد المجتهدون.. من صفوة العلماء ، وخيرة الكاتبين — والله معهم .. ولن يترهم أعمالهم .. وسبحان الله هو القائل :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (آل عمران : ١٠٤)

والحمد لله رب العالمين .

* * *

السؤال الثالث :

• جرب أن تكتب رسالة من نحو عشرين ورقة تتصور أنك تتوجه بها من مصر إلى العالم الأوروبى ، وبمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على الهجرة ، ومع مطلع القرن الخامس عشر لها ، وذلك للتعريف والتنوير بحقائق الإسلام الخالصة من الزيف والافتراء ، وبحيث تشرح لمن تكتب إليهم هذه الرسالة من الأوروبيين ، وبالأسلوب العلمى والجذاب الذى يمكن التأثير به على جميع مستوياتهم من الرجال والنساء ، ومن الشباب والشيوخ – كيف أن هذا الدين الحق ، الذى لا يتناقض مع العلم ، ولا مع التقدم ، والذى لا يزال باقياً ومشرقاً بكل حقائقه فى مصادره الصحيحة فى القرآن والسنة – يتمثل فيه الأمل الباقى للعالم فى تفادى هذا الانهيار الحضارى الوشيك ، سواء فى نصف العالم الإلحادى الشيوعى ، أو فى نصفه الآخر العلمانى النفعى..

الإجابة :

لقد تبين بوضوح من الإجابة عن السؤال الثانى فى هذا البحث تعدد هذه المزايا الإنسانية ، والحضارية ، من تنشيط التواصل بين المسلمين وأوروبا ، أى بين صفوة علماء المسلمين فى الوطن العربى والعالم الإسلامى ، وبين هؤلاء المتعاطفين مع الإسلام من العلماء والمفكرين الأوروبيين فى بلادهم .. رغم قلتهم ..

إن مثل هذا التواصل العلمى ، الإنسانى والحضارى ، سينشط ويجدد ولا شك من رسالة التعريف بحقائق الإسلام ، الخالصة من أى زيف ، والمنزهة عن أية تحريف ، بين هذه الشعوب الأوروبية ، المتشاغلة فى دوامة صراعاتها وأزماتها المعاصرة ، عن الإسلام والمسلمين . . وحتى عن هؤلاء المسلمين المهاجرين إليها للعمل ، والذين لايزالون يعانون الكثير من نتائج إهمال القوانين الأوروبية لهم . . بوصفهم مسلمين . . يدينون بالإسلام .. المغترب اليوم فى أوروبا .

وإذن فهذه الرسالة التى سأجتهد — بعون الله — أن أقدم صورة مثالية عنها ، فى هذه الإجابة .. تبدو من الكلام الذى حضر بمشيئة الله أوانه ، وحضر أهله ، وأشرقت شمسه ، ودنت ثماره .. وبخاصة وهو يطلع على المرسل إليهم مع مطالع القرن الخامس عشر الهجرى ، مستقراً مع هذا المطالع على أصالته ، وممتداً إليهم بعبيره ..

أما أعظم العون ، ومصدر الأصالة فى هذه الرسالة ، فهو كتاب الله ، الذى يقول عنه سبحانه :

« وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » (النحل : ٨٩)

وأما أعظم الرفد ، وأقوى الحافز ، على حمل أمانة الكتابة لمن

نكتب اليوم إليهم ، رغم تباعد المكان ، واختلاط الرؤية ، فنجده فى قوله تعالى عن رسالته الحية والباقية فى الإسلام :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .   (الأنبياء : ١٠٧)

أى إن هذا القرآن بدعوته الدائمة للإسلام ، كما أرسل الله به محمداً عليه السلام ، إنما هو رحمة مهداة بالهدى إلى العالمين ، من البشر أجمعين ..

إنه رحمة للعرب ، الذين ألف القرآن بين قلوبهم ، وبقى به فى العالمين ذكرهم ، وكانوا به عندما صح إسلامهم حول رسولهم « خير أمة أخرجت للناس » ..

وهو رحمة للعجم ، إذا مالانت قلوبهم بالإسلام ، فتعربوا بلسان القرآن ، واجتهدوا أن يستبينوا بالعربية حقائق الإيمان ، بعيداً عن تراث العجمة ، ومزالق الافتتان ..

وهو رحمة لجميع أهل الأرض من بعد .. ولأهل أوروبا بخاصة .. منذ عايشوه ثمانية قرون متواصلة تحت أضواء مناراته فى الأندلس .. وعندما عبرت شمسه الحارة إلى داخل بلادهم ، لتذيب تحت أشعة حضارته العلمية ، والإنسانية ، والعمرانية ، والإخائية ـ جليد أرضهم ، وتضيء ظلمات سمائهم ، وهي تنفذ إليهم بالنور ، والدفء ، والعدل ، والحب ، والعلم ، داخل المدن والقرى ، والدور والقصور ، فى الشرق

والغرب ، وفى الشمال والجنوب ، من بلادهم التى لاتزال تحتجب عنها الشمس ، ويتراكم على طرقاتها الجليد .

وإذن فمن الممكن أن نستعيد مراحل هذا التواصل ، ووراء العديد من ثمراته وحسناته ، ومن نقطة البداية بها من أمثال هذه « الرسالة » التى أستهدى الله بكتابتها إلى هذا الإنسان العام فى أوروبا .. فى أى مكان بها .. وكيفما كان بها .. مطمئناً وأنا أكتبها فى مطالع القرن الخامس عشر ، وفى ضوء هذه البشرى بأمر الله ، ورحمة الله ، إلى أنها ستترك آثارها المنعشة ، وردود فعلها الحسنة ، على الفئات التالية إن شاء الله :

• فئات المتعاطفين مع الإسلام — رغم قلتهم — وهؤلاء سيبادرون غالباً بالرد العملى عليها ، والنشاط الإيجابى معها .

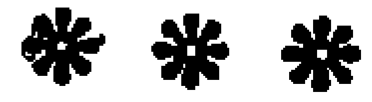
• فئات المهيئين من الأوروبيين لهذا التعاطف مع الإسلام ، وهم غير قليلين ، وهؤلاء ستنبههم هذه المبادرة الودية إلى موقف أفضل ، وعملى ، لهم تجاه الإسلام والمسلمين .

• فئات أصحاب المواقف المقررة ضد الإسلام ، بسبب ما قرأوه من الكتب المعادية له والمليئة بالتحريف فيه ، والافتراء عليه ، وهؤلاء سيجد أكثرهم — فى ضوء مثل هذه الرسالة — حافزاً مثيراً لإعادة النظر ، وتصحيح الرأى ، ولن يبتعد الكثيرون منهم بعد ذلك عن الصواب .. وبخاصة وأن المطلوب إليهم : ليس الدخول فى الإسلام .. وإنما الإنصاف للإسلام .. والترحيب بصداقة المسلمين .

• وأما فئات الشيوعيين ، الممسوخين بإلحادهم وأطماعهم وغرورهم ،

فسيجدون فى مثل هذه الرسالة – إذا ما وقعت فى أيدى عدد منهم – تأكيداً لمخاوفهم من هذه الشمس .. شمس الإسلام .. التى لا تغرب .. رغم ضرباتهم للمسلمين الروس ... ورغم حرابهم الوحشية فى صدر شعب أفغانستان .. ورغم دعاياتهم التنكرية بين شعوب العرب .. وذلك لأن شمس الإسلام الحارة .. والتى لا تغيب .. لا تزال تصيبهم «عقائدياً» بضرباتها .. ويالها من ضربات شمس حارة متصلة .. يذوب فيها الجليد تحت أقدامهم .. ويموت بها الدب فى مخططاتهم .. وتتبخر تحتها الفودكا فى زجاجاتهم .. ومع ذلك فهم لا يفيقون .. بل يزومون .. ويصرون .. ويتخبطون .. !!

ثم أستفتح باسم الله العظيم . . والرحمن الرحيم .. كتابة هذه الرسالة عن « جوهر ومستقبل الإسلام » إلى هذا الإنسان الأوربى المعاصر .. مبتغياً بها وجه الله .. ورضوان الله .. وهو نعم المولى ونعم النصير .



رسالة إلى الأوروبى المعاصر
عن جوهر ومستقبل الاســلام

بسم الله الرحمن الرحيم : مع مطالع القرن الخامس عشر من هجرة محمد ، الذى نزل عليه القرآن ، ودعا للإسلام والإيمان ، أبعث برسالتى هذه إلى الأخ الإنسان فى أوروبا .. إلى أخى هناك فى كل مكان .. وكيفما كان .. إلى الأخ الأكثر قلقاً فى مواجهة مشكلات الحاضر .. والأقل أملا على هذه الأرض فى بناء جنات المستقبل ..

أحييك من أرض مصر الطيبة ، قلب الوطن العربى ، ومدرسة العالم الإسلامى ..

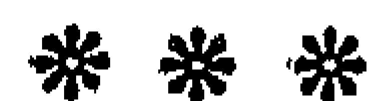
أحييك بقلب آمن ، وعقل مفتوح ، بينما أحداث الصراع فى عالمنا المعاصر تركض بالانفعال فى كل اتجاه ، وتتصادم بالعدوان غير المحكوم هنا وهناك ، مندفعة نحو هاوية قريبة ، قد تكون فيها نهاية هذا العالم . . وقد تكون منعطفاً لإفاقة صواب ، تتجدد بها احتمالات الحياة ، والحضارة ، والتقدم ، تحت رايات السلام والإيمان ، والعلم وحقوق الإنسان ..

ربما .. وعندئذ سيكون المسلمون فى هذا العالم الجديد أقرب الأصدقاء إليكم ، وأول المتعاونين معكم ..

ولم لا ؟ .. والمسلمون فى الوطن العربى ، وفى الأوطان الأخرى ،

لا يزالون يمثلون قوة الاستمرار لهذا الإنسان المؤمن ، الذى لا يزال يبنى منذ آلاف السنين حضارة العلم والإيمان ، وعمران السلام وحقوق الإنسان .. فاتحاً قلبه ، ومادا يده ، بجميع إخوته ومواطنيه من المسيحيين واليهود ، ليعيشوا معاً فى أمان سابغ ، وجهد مشترك . بل مادا يده بالسلام أيضاً لهؤلاء الذين حاربوه طويلا من الأوروبيين ، هذه الحروب العسكرية السافرة باسم الدين ، أو هذه الحروب الفكرية الخفية لتمزيقه بهذه الخصومة على الدين ، أملا فى صحوة الإفاقة على الصواب ، وتحكيم العقل ، بين قلة أو كثرة من الأوروبيين ، حتى ينتصر الإيمان ، ويشرق السلام وتسود حقوق الإنسان ..

من أجل هذا الأمل أكتب هذه الرسالة إليك ، أينما تكون ، وكيفما تكون ، وقد صنعتها لك فى مقدمة لغايتها ، تتبعها خمس حقائق للإبانة عن موضوعها وهو « جوهر الإسلام » ، لكى تنتهى هذه الرسالة إلى خاتمتها ، وحيث يبدأ من هذه الخاتمة شروق الأمل .. وفجر المستقبل .. ننشده معاً لسلام ورخاء جميع البشر .







المقدمة

لماذا لا يبدأ عصر وفاق إنسانى بين الأوروبيين والمسلمين ؟

فى هذا العصر – أيها الأخ الأوروبى – تمضى أمام أعين الجميع مشاهد هذا « الوفاق » الذى حدث بين الشيوعيين الملحدين فى شرق أوروبا ، وبين المسيحيين العلمانيين فى غربها .. لقد فرض هذا الوفاق « الصورى » نفسه تحت ضغط التشبث بالحياة ، وتجنباً لهول المصير المتوقع فى كل لحظة إذا ما نشبت لخطأ ما ، أو لغفلة ما ، حرب نووية ينتهى بعدها كل شيء .. على كوكبنا « الأرض » ..!

• لقد حدث هذا الوفاق القسرى ليتجاوز كل من الطرفين عن قيام هذه النظم القسرية لكل منهما .. ضد شعوبهما ..

• وحدث هذا الوفاق ضد الكنيسة .. أى ضد الإيمان .. وذلك لإطفاء قناديله ، وتجميد رسالته .. لو أمكن ذلك ..

• وحدث هذا الوفاق القسرى أيضاً ضد العالم النامى أو المتخلف ، من أجل ابتزازه ، ومضاعفة تخلفه ! وقد امتد ذلك فى غرور القوة ، وباتجاه تيار سابق ، ليكون وفاقاً ضد العرب والمسلمين ، لتفتيت وحدتهم ، وإنهاء قوة وجودهم واستمرارهم .

وهنا أقول لك :

أليس من الأفضل – إلى جوار هذا الوفاق بالقسر ، وضد واقع السلام ومصلحة الشعوب – أن ينفتح الطريق فى هذا العصر لقيام هذا الوفاق بالاختيار بين الأوروبيين شرقاً وغرباً ، وبين المسلمين فى جميع العالم .. هذا الوفاق الذى تشرق به شمس السلام الحقيق برسالة محمد ورسالة المسيح ، وهى تضىء كل العالم بهذا السلام ، وتجدد من حياته .. وتصحح بالعلم المؤمن من مسيرة تقدمه ؟

أليس هؤلاء المسلمون هم أصحاب الفضل الأعظم على أوروبا كلها – شرقاً وغرباً – عندما خرجت بهم من متاهات المنهج الفلسفى اليونانى التجريدى ، إلى واقع وثمرات المنهج العلمى التجريبى ، وبذلك حققت أوروبا أعجب مراحل التقدم العلمى فى تاريخ البشر ؟

ولكن أوروبا لم تستطع وهى تنطلق بنهضتها العلمية المتطورة بغير قيادة الإيمان ، إلا أن تزيد فى توسيع وتنويع ميادين صراعها على قيادة العالم ، وقهر شعوبه ، وابتزاز موارده ، إلى أن ظهرت عليها أعراض هذا الانهيار الحضارى المعاصر ، وهى تتساقط وتتخلف به فى مهاب المرض النفسى ، والقلق الاجتماعى ، وتمزقات الشعوب ، وصراعات الدول . باتجاه هاوية لا ريب فيها .. ما لم تشرق عليها مرة أخرى شمس الإيمان .. !

فهل تستبعد أيها الأخ الإنسان فى أوروبا أن تشرق عليكم هذه الشمس مرة أخرى لتبدد غيوم الصراع ، والقلق ، والتمادى فى الخطايا

والأخطاء ، وهؤلاء هم المسلمون يتدفقون على أرضكم بالملايين ، للزيارة وطلب العلم ، أو للإقامة والعمل ، ليؤكدوا لكم ، ويعيدوا تذكيركم بما تناسيتموه من هذه الحيوية المميزة لهم ، فى بسطة أيدى أغنيائهم ، وسماحة أخلاق علمائهم ، وإخلاص الجهد والعطاء لعمالهم ، مع استمرار انفتاحهم بالمودة التى قادوها ولا يزالون يحفظونها على أرضهم تجاه أتباع المسيح وموسى ..

إن هؤلاء المسلمين اليوم على أرض أوروبا ، وكما أخذت أكثر الحكومات الأوروبية تنتبه إلى حقوقهم عليها ، وإلى مصالحهم عندها ، هم الومضات القوية التى تنبهكم مع تصاعد الأحداث والأخطار على العالم المعاصر — لشمس الإسلام التى لاتزال تشرق بغير أفول على هذه الأرض ..

فلماذا مع ومضات هذا الشروق المتزايد لا يتزايد ويتعزز الأمل فى هذا « الوفاق » الإيجابى والصادق بين الأوروبيين والمسلمين .. لماذا .. وأكثر الأوروبيين قد جمعتهم اليوم وحدة الاهتمام بمتغيرات مفاجئة تفتح الطريق أمامهم واسعاً للتعجيل بهذا الوفاق .. ؟!

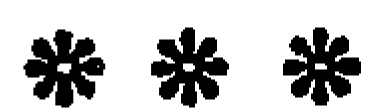
* لماذا .. وقد أصابهم القلق لهذا الغزو الوحشى والفاجع الذى انقض به السوفييت على مسلمى أفغانستان .. ؟!

* لماذا ؟ وقد أصابتهم الدهشة ، والحيرة الذهنية ، أمام نتائج الثورة الإسلامية فى إيران .. ؟!

• لماذا .. وهذا التصاعد العشوائى للصراع بين الشرق والغرب قد ينتهى إلى توقف منابع الحياة بالنفط العربى ،والطاقة المحركة لجميع وسائل وأدوات الحياة والقوة والرخاء فى أوروبا ..؟!

نعم .. لماذا .. وكل هذا صحيح .. وهو إنذار واضح الدلالة .. لماذا لاتوجد الشجاعة عند الأوروبيين لكى يكتشفوا على هذا الطريق الرحب ، ومن أجل حياة أفضل .. وقواعد أرسخ .. حتمية هذا الوفاق الإنسانى مع الإسلام والمسلمين .. عرباً .. وغير عرب ؟!

وفى الحقائق الخمس الآتية سأقدم لك الأسس التاريخية ، والتصحيحية، والحضارية ، لتعزيز احتمالات هذا الوفاق المنشود .. بهذه الرسالة الودية والعلمية ، إليك أيها الصديق .



الحقيقة الأولى

تجارب أوروبا من الجمهورية الفاضلة إلى اليوم

والآن أيها الأخ الأوروبى أبدأ من أجل تقريب الرؤية بين الأوروبيين والمسلمين المعاصرين بأن ألخص ، وأضع فى الضوء ، هذا التاريخ الفلسفى والوضعى ، الذى تقلبت فيه أوروبا بديلا من الدين الحق ، وهى تبحث عن المجتمع الفاضل ، وعن قواعده العلمية والأخلاقية بغير جدوى .. إلى اليوم .

لقد اقترن الفكر الأوروبى بالفلسفة منذ فجر وجود الأوروبيين على أرض قارتهم الجليدية ، وبعد الهجرات المتتابعة لقبائلهم الأولى من الهند ، وذلك فى مكان الدين القائم على الإيمان بالله وشرائعه كما عرفه العرب منذ فجر التاريخ ، وكما زادت معرفتهم به منذ رسالات محمد والمسيح وموسى .

ومعنى هذا أنه لم يكن للأوروبيين منذ ظهور مجتمع وفلسفة الإغريق الأوائل ، أى منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، إلا أن يبدأوا وراء أشهر فلاسفتهم : سقراط وأفلاطون وأرسطو ، فى ممارسة هذه الفلسفة التجريدية ، الجدلية والصورية ، إلى حيث تقودهم بمنطلقها الأسطورى ، وفكرها الظنى ، وجدلها غير العلمى ، إلى مجرد «الحدس» فى تصور « المجتمع الفاضل » ، كما يشتهون الإقامة فيه ، والذى يعلمون

أنه لفرط الخيال فى تصوره يعجزون عن الإقامة له ، لأنه مجتمع يوتوبى من كلمتى ou-topos باليونانية أى « اللامكان » .. أى غير الممكن إقامته فى أى مكان فوق هذه الأرض ، وبذلك لم يبق لهم فى الواقع إلا مجتمع الطبقة ، والقسر ، والمتاع ، والشتات ..!

هكذا منذ أقام الإغريق من أصلهم الهندى مجتمعهم الأول فى أوروبا ، ورغم تأثراتهم الأولى بقدر من العلم الذى نقلوه فى ركوبهم البحر ، وقياسهم أبعاد السفن ، وتحديدهم فصول السنة ، عن المصريين والكنعانيين العرب — فقد ظهر عجزهم فى متاهة أساطيرهم التى تصوروا بها نشأة الحياة بقوة « أرواح » الطبيعة ، وليس « الله » ، عن أن يرتفعوا إلى مستوى المنهج العلمى للتفكير ، وعن أن يتوصلوا بهذا المنهج إلى اكتشاف هذا « الاتساق » الدال على الله فى حركة الواقع المرئى ، والواقع المسموع ، والواقع المحس ، بدلا من هذه الآلهة الوهمية التى عبدوها فى أرواح الطبيعة مثل « زيوس » ، أى روح النهار عندهم و « كرونوس » روح الزمن و « باخوس » روح الكروم والخمر ، و« ديونيسيوس » روح الربيع واللهو .. وغير ذلك كثير ..

لقد عجزوا تماماً — أيها الصديق — فى أعمال كبار فلاسفتهم ، أو صغار سفسطائييهم ، عن غير هذه « الفلسفة » بكل ظنونها ، والتى بدأوها بالسفسطة ، أى فن الجدل الموجه للتسلى ، وقتل الوقت بالخداع العقلى ، والتلاعب بالألفاظ . ومن خلال ذلك كانوا يستمتعون بالخمر والنساء إلى حد الهوس ، ويتعاظمون بسيادتهم فوق الحرفيين

والعبيد إلى حد التأله ، ويعانون من هذا الفراغ الساحق الموحش من أى شيء « حقيقى » فى مجتمع يضيء» لهم حياتهم ، وأفكارهم ، وحواراتهم، وذلك إلى الحد الذى اقتربوا معه من الجنون ، وقد ملكهم الشعور الفاجع بمأساتهم وضياعهم ، كما كان هذا الشعور يظهر فى ذروة أعيادهم بالربيع والكروم ، وهم يغنون فى مواكبهم الصاخبة المتهوسة أغانى « المغنى العنزى » الأسطورى ، وكما يسمونه tragos-oidos ، بينما يثغون بأفواههم ثغاء العنز الحزينة التى اغتربت عن قطيعها .. وفقدت طريقها مع رفاقها إلى الحياة !!

١ ــ الديمقراطية الزائفة لليونان الأوائل :

يقول المؤرخ الهولندى الدكتور هندريك فان لون فى كتابه « قصة الجنس البشرى » فى شهادته التاريخية على الإغريق الأوائل بأمانة المؤرخ الذى يقول الصدق ، ولو كان قاسياً بالنسبة لأسلافه ، وأسلاف الأوروبيين إلى اليوم ، فى فكرهم ، وتقاليدهم ، وتراثهم :

« لقد كانوا على جانب كبير من القسوة وانحطاط الخلق ، فهم كانوا يلقون بأجساد أعدائهم إلى كلابهم المتوحشة التى تحرس أغنامهم. وقلما كانوا يحترمون حقوق الشعوب الأخرى ، فقد قتلوا الأهالى السابقين لجزيرة اليونان ، الذين كانوا يعرفون باسم « الفلاسجة » ، ونهبوا مزارعهم ، واستولوا على ماشيتهم ، وسبوا نساءهم وبناتهم »!

ومرة أخرى يقول فان لون فى شهادته الأوروبية عن طغيان الأغريق الأوائل وعدوانيتهم :

« إن المدينة الإغريقية إذا لم يكن يحكمها ملك ، أو طاغية ، فقد كان يحكمها « السادة » لصالح طبقتهم . ولم يكن هذا ليتأتى إلا إذا توافر لهم جيش جرار من العبيد يفوق المواطنين الأحرار عدداً بنسبة ستة أو خمسة إلى واحد .. وكان شأن العبيد شأن الآلة فى المصنع الحديث ، حتى لقد كان يلقى بهم إلى الوحوش لأتفه الأسباب » !

ثم يقول وهو يكشف عن المفهوم التسلطى والطبقى للديمقراطية اليونانية بغير دين أو مساواة :

« وكانت الديمقراطية الإغريقية لا تعترف إلا بطبقة واحدة من المواطنين خولت لهم حق مناقشة مسائل الحكم جميعاً ، وهذه الطبقة هى الأحرار السادة ، وقد كانت كل مدينة إغريقية تتألف من عدد صغير من المواطنين الذين ولدوا أحراراً ، وعدد كبير من العبيد ، وأشتات من الأجانب الذين لم يكن الأغريق يبدون استعداداً لمنحهم الحقوق المدنية » !

٢ ــ الإغريق يتخبطون فى متاهة الأساطير :

فى هذا المناخ الطبقى ، القسرى والعنصرى والاستمتاعى ، انفجر مع الخمر ، ومع الترصد للعدوان على الآخرين وسرقتهم ، كما جاء فى شهادة المؤرخ الأوروبى الحديث فان لون ــ هذا السيل من الأساطير التى تخبط الإغريق الأوائل فى متاهاتها ، فانطلقوا فى أعياد آلهتهم باتجاه التقديس الأعظم لمتاعهم ، ولعدوانهم فوق حطام عبيدهم ، وهم

يفخرون بمأساتهم ويتبخترون ، ويسفسطون حولها ويتحاورون ، دون وازع أو رقيب !

ومرة أخرى أيها الصديق — وكما تعرف هذا جيداً — فقد كانوا وهم يحتفلون بأعياد الربيع والخمر ، يخرجون إلى مواكبها المجنونة على هيئة مخلوق « خرافى » .. أعلاه بشر ، وأسفله عنز ، ليكون كما ذكرت هو المغنى الماعزى الأسطورى tragos-oidos الذى يثغو بصراخ الحزن والجنون بمأساة حضارتهم ، مجسدين بهذه المواكب المخمورة ، والخرافية ، هذه المأساة tragedy لحياتهم الحقيقية ، وهم يعبرون بهذا الانسياق البدائى عن مدى فداحة مصيرهم الأليم ، بهذه الحياة المغلقة ، وحيراتها الثقيلة ، وحدودها الضائعة ، بغير منهج علمى للتفكير ، وبغير إيمان وشريعة للحياة ، وهم يثغون بأفواههم ثغاءهم الحزين الطويل ،على مفترقات الطرق المقفلة ، كما تثغو العنز التى فقدت القطيع ، وفقدت الطريق ، وفقدت الأمن ، ثغاءها الذى يثير من أجلها الشفقة والرثاء . !

٣ — أفلاطون وجمهوريته المشاعية فى اللامكان :

وننتهى من هذا الإيجاز لمناخ الحياة الفلسفية القسرية الاستمتاعية وشتاتها النفسى فى مجتمع الإغريق الأوائل ، إلى فحص واحدة من أشهر ثمرات الفكر الاجتماعى « الصورى » فى ذلك المجتمع الإغريقى الأول — أى الفكر الخيالى والوهمى غير الممكن تحقيقه فى الواقع ،

أى فى المكان والزمان على هذه الأرض ، ونعنى به « الجمهورية الفاضلة » أو جنة الأرض المستحيلة التحقيق إلى اليوم ، كما توهمها أفلاطون نيابة عن اليونان .. وعن الأوروبيين ..!

وبنفس الإيجاز أذكر لك أيها الأخ الأوروبى المعاصر أن أفلاطون قد سجل فى هذه « الجمهورية الفاضلة » جميع أوهام اغترابه — وهو فى ثوب المغنى العنزى — حول هذا المجتمع « الشاذ » الذى يحلم به جميع العنصريين القسريين ، الاستمتاعيين ، وهو المجتمع الذى أساسه طبقة قائدة من الصفوة ، من الرجال والنساء الذين يتدربون على الحكم المثالى لهذا المجتمع المنشود ، وذلك من بداية أن يعيش الجميع .. حكاماً وحاكمات .. « عراة تماماً » — سواء بسواء — كما تصورهم أفلاطون — وهم يمارسون الجنس فى هذا العرى بغير قيود ولا حدود ، بعد أن تم إلغاء نظام الأسرة ، وذلك من أجل تأكيد أحد المبادئ الأساسية لهذه الجمهورية الخرافية وهو « شيوعية الآباء والأبناء » الأمر الذى ينشأ معه المبدأ الثانى للحياة فى هذه الجمهورية البالغة الشذوذ ، وهو « شيوعية الأموال والممتلكات » ..!

بهذا — كما تمنى أفلاطون جنة البشر المستحيلة على الأرض — تذوب الطبقة الحاكمة فى « اتحاد حاكم » من العراة الإباحيين ، الذين ليست لهم أسرة ، ولا أموال ، ولا أولاد ، وبذلك لا تكون رياسة هذه « الطبقة العارية » من كل شىء موضع شك عند المحكومين ، وكيف ؟ بعد أن « تعرت » من كل شىء .. لكى تملك كل شىء .. وأول من

هم العاملون « المحتقرون » فى هذا المجتمع ، ثم العبيد المضطهدون
ضيض من هذا المجتمع ، بعد أن قرر أفلاطون — فى ذروة اغترابه
إنسانيته — أن يحرم أرباب الحرف من الحقوق السياسية ، كما يملك
يحرم العبيد بعد اضطهادهم حق الحياة ! !

أليس أفلاطون فى فجر هذه الفلسفات الأوروبية ، وبهذا التمنى القاسى فى أحلام يقظته لإقامة « الجمهورية الفاضلة » كما يراها مجردة هكذا وبعيدة عن الدين ، والخلق ، والعلم ، والعمل النافع ، ومواجهة الواقع — أليس هو بذلك — وكما يبدو أمامنا الآن أيها الصديق — هو الجد الحقيقى لكل من « الشيوعيين » و « العلمانيين » فى تصورهم فى هذا العصر ، وهم يتصارعون على سيادة العالم — لهذه « الجنة المنتظرة » كما يعمل كل منهم لتحقيقها بغير « إيمان » على هذه الأرض ، وبغير اختلاف كثير فيما بينهم فى هذا التصور ، فى وسائل التحقيق .. بينما هم فى الواقع يركضون بكل قواهم نحو حافة الهاوية .. والحرب النووية .. وضياع كل شىء .. حتى العزاء بمثل هذه الخرافة الأفلاطونية الشاذة ؟ !

٤ — من يوتوبيا أفلاطون إلى الاشتراكيات الخيالية :

وجنباً إلى جنب مع صناعات الوهم الفلسفى داخل الواقع الطبقى التسلطى ، والاستمتاعى ، فى مجتمعات اليونان والرومان القدماء ، وحتى المجتمعات الشيوعية والرأسمالية المعاصرة — سارت أوروبا تطلب

السلوى والعزاء فى مثل هذه الأحلام الإصلاحية ، والخرافية أحياناً كثيرة ، وحيث ظهر أخيراً عدد من هذه الاشتراكيات « اليوتوبية » اللاامكانية فى صور أقرب فى ظاهرها إلى الجد ، وإلى الواقع ، من خرافية أفلاطون ، ولكنها لم تنجح ، لأنها فقدت طريق انطلاقها من الإيمان ، واعتمدت التخطيط لحركة البشر بقوة خيالية وهمية تزعم القوة من « فوق » على تحريك إرادة البشر من « تحت » .. أو من بعيد !

أذكر لك من هذه الاشتراكيات الخيالية قصة أتيين كابت — الفرنسى المولود سنة ١٧٨٨ وهى « الرحلة إلى إيكاريا » ، وكما جاء فى كتاب جورج سول عن « المذاهب الاقتصادية الكبرى » فهى « نوع من الديكتاتورية الضيقة التى يسودها التجانس فى كل لون . فالشوارع مستقيمة ، وبكل عمارة خمسة عشر بيتاً متشابهة تماماً ، وتضم أحدث المعدات الصحية ، وتغطى الجوانب بسقوف من الزجاج ، بينما تستخدم آلات التقاط الغبار لكنس الشوارع . أما الدولة فهى المالكة لكل شىء ، وهى التى تقسم المنتجات بالتساوى . بينما الناس يرتدون زياً واحداً ، فإن كان لاختلاف الأذواق أن ينعكس ففى تباين الألوان » !!

وكان كابت يأمل فى أن ينقل خياله هذا إلى الواقع ، معتقداً أن مثل هذا النظام الوهمى بإرادته ، وبغير أن يسبقه بناء الإنسان بإرادته الحرة — بالعلم والإيمان — يمكن أن يقوم خلال خمسين عاماً . ومع هذا الوهم الجديد هاجر إلى الولايات المتحدة فى كل من ولاية تكساس

وولاية إلينوى ، ليحاول أن يحقق على أرض الواقع هذا المجتمع الوهمى اليوتوبى ، ولكن الأمراض ، والمنازعات الداخلية مع شركائه ، قضت على أحلامه فى المحاولتين !

ثم ظهر — كما تعلم — من هؤلاء الأفلاطونيين المتأخرين فى فرنسا كل من سان سيمون « ١٧٦٠ — ١٨٢٥ » وشارل فورييه « ١٧٧٢ — ١٨٣٧ » وبيير برودون « ١٨٠٩ — ١٨٦٥ » ، كما ظهر فى إنجلترا روبرت أوين « ١٧٧١ — ١٨٥٨ » الذى حاول تحت شعار « التعاون » ومع محاولة توفير العلاقة الأخلاقية بين الأغنياء والفقراء ، وبين العلماء والجهلاء ، أن يؤسس « المجتمع الفاضل » الذى لا تأكله أطماع اللوردات والرأسماليين ، ولاتدفع به الفلسفة ضد العلم ، والطبقية ضد الإيمان ، والمتعة ضد الطهارة . وهكذا ضاعت أحلام روبرت أوين ، اليوتوبية أيضاً .. لكى يستخلص كل من الشيوعيين والرأسماليين بعده أسباب السلطة لهما وحدهما فوق أرض أوروبا ، وفى أخطر عصورها ، بعد أن عرفوا الطريق المعقد والدعائى إلى تحويل الخيال اليوتوبى عند الجماهير إلى واقع مرير ، تنساق فيه — على أنغام الشعارات وعذاباتها — نحو نهاياتها ، ونهاية نظمها .. ما لم ينعطف بها الطريق الصحيح نحو الإيمان الذى يقود العلم ، ويبنى حياة الفرد والمجتمع على الحرية والعدل ، وعلى الإخاء والمساواة ، وعلى الطهارة الأخلاقية والإيثار .. فى الواقع الحى .. وليس فى الوهم البعيد .. أو القريب !

٥ ـ وأخيراً ومع المرض النفسي إلى يوتوبيا المغتربين :

وأخيراً .. في نهاية الشوط اليائس لرحلة الجمهوريات الفاضلة ، والاشتراكيات الخيالية ، تتمخض محنة الحضارة الأوروبية المعاصرة في مواجهة الانهيار أو الاستمرار ـ عن هذه المسيرات الذاهلة والحزينة ، لقوافل الشباب والمغتربين ، الذين طرحوا ـ تحت العنوان الساخر : الهيبز والبيتلز ـ كل مسئوليات الحياة ، ليخرجوا من أوروبا ، ومن أوطانهم الغالية عليهم فيها ، هرباً من هذه الحياة كما انتهت إليه ، وليسيروا في الأرض بغير اتجاه ، نحو هذا المجتمع المنشود في اللامكان .. واللازمان .. نحو اليوتوبيا .. والعالم المجهول .. !

هؤلاء الشباب الغرباء والمغتربون من « دراويش » أوروبا ـ كما أعتقد أنك تعرف الكثير عنهم أيها الأخ الإنسان ـ لايزالون يتدافعون كل يوم على الطرق هرباً من أوطانهم التي ضاقت ـ في ذروة تقدمها وقسوتها واختلال موازينها عليهم .. لقد خرجوا إلى رحلتهم غير المحدودة ـ بغير هدف .. وعلى غير طريق .. في حياة مشاعية أفلاطونية بغير زواج شرعي .. وبغير أموال أو أولاد .. وبغير وطن أو بيت .. وبغير أثاث أو متاع .. ومع ذلك فهم ظاهرو البراءة في عزلتهم المتحركة نحو اللامكان .. وفي سلوكهم مع من لا يكادون يرونهم من الناس . وفي هذا اليتم العالمي الذي يعبرون به في كل حركة عن مأساتهم .. بل عن مأساة الحياة غير المتوازنة بغير دين ، وبغير إخاء أو تطهر ، في الحضارة الأوروبية المعاصرة .. !

هؤلاء الشباب لايزالون — كما ترى — يعلنون بانطلاقهم الصامت والحزين نحو المجهول ، وحقائبهم بكل ما يمتلكون وراء ظهورهم — أنهم عاشوا طويلا تحت مستوى الحق الذى خرجوا إليه ، والإيمان الذى حرموا منه .. فشربوا الخمر ، وانتهكوا الطهارة ، ومضغوا عقاقير الهلوسة .. لكى ينسوا .. فلم يسعفهم النسيان .. ولم ينقذهم الفهم .. فانفجر بركان الغضب العاجز فى أعماقهم .. لينطلقوا إلى غير مكان معلوم .. وعبر زمان غير محدد .. إلى جنة الحق المجهول .. والإيمان المفقود ..! !

وفى مصر .. البلد الطيب .. نراهم كثيراً فنفهم ما وراءهم .. ونشفق عليهم .. ونشفق على حضارتنا أيضاً — إذا ما فقدت مقوماتها الراسخة من الدين والعلم والعدل ، أن تتعرض لمثل ما تتعرض له اليوم حضارتهم ..

إنهم على أرضنا الطيبة يتعرون للشمس كلما وجدوها فى الأماكن الخالية والحدائق العامة .. إنهم يغمضون أعينهم وحواسهم تحت أشعتها وقد استلقوا على العشب الأخضر .. وكأنهم يتطهرون من أحزانهم ومأساتهم بنورها وحرارتها .. غير آبهين لأى شىء حولهم .. إلا هذه الشمس الأم القوية .. الحانية .. رمز الحياة والإيمان .. التى يسألونها فى الصمت عطاءها للمحروم .. وسرها للمغترب .. وجوابها عن أسباب هذه البشاشة والمودة الدائمة فى قلوب أهلها من المصريين .. وعن هذا الأمن والأمل فى أعينهم .. وأعمالهم .. وأصواتهم .. منذ آلاف السنين .. ! أليس هو « الإيمان » الذى يبنى الحضارة .. ويقود العلم .. ويوجه العمران .. وكلما غفلوا عنه .. عادوا فأقبلوا عليه !؟

الحقيقة الثانية

فى أى حوار مخلص تظهر حاجة الأوروبيين إلى المصالحة مع المسلمين

١ ــ المجتمع الإسلامى يملك مقومات التجدد والبقاء :

بامتداد التاريخ الدينى على أرض الوطن العربى ، كان الإسلام فى دعوة محمد ــ بعد المسيح وموسى ــ هو الرسالة الخاتمة والباقية للدين . وكان المجتمع الفاضل الذى أقامه الرسول وأصحابه هو « مجتمع المؤمنين » الكامل ، والقدوة ، الذى كان ولايزال ، يملك فى حياة المسلمين مصادر ومقومات بقائه وتجدده بالإسلام.

وفى هذا المعنى أقول لك هنا فى هذه الرسالة الودية الصادقة ، إنه برغم التشكيك النشط للقوى الملحدة والمعادية للإسلام والمسلمين فى أوروبا ، فإن أبسط قدر من التعقل والاعتدال ، وفى ضوء نظرية علمية تستقرىء التاريخ ، وتستهدف الإنصاف ، ينتهى إلى اليقين بأن المسلمين قد أقاموا فى الواقع ، وبمقومات الإسلام الدينية والدنيوية ، هذا « المجتمع المؤمن » الذى حققوا به الإخاء الإنسانى ، وباليقين الدينى ، وبالمنهج العلمى ، وبالالتزام الأخلاقى ، ما لم تستطع أن تبلغ أى قدر يقاس إلى إنجازاته ، أو مبادراته ، أو أهدافه ، جميع المجتمعات القديمة والمعاصرة ، سواء أقامت على النظريات « الديمقراطية »



أو « الاشتراكية » بجميع تطوراتها خلال نحو خمسة وعشرين قرناً من حياة أوروبا ، فى غمرة تقلبها تحت أثقال العديد من « القيصريات » والحكومات القسرية ، أرستقراطية كانت أو شعبية ، وإلحادية كانت أو دينية ..!

لقد كان مثل هذا الرأى اليقينى والمنصف للإسلام هو شهادة عدد غير قليل من مفكرى الغرب — كما تعلم — وهم ممن درسوا اللغة العربية ، وتخصصوا فى تاريخ الدين وتاريخ الأمة العربية . ومثل هذا الرأى اليقينى والمنصف للإسلام والمسلمين ، والداعى إلى التقارب معهم بغير نفور ، وإلى المودة لهم بغير استعلاء ، لايزال هو النتيجة الواحدة والحتمية ، لأى حوار مخلص ، ومتكافئ ، بين عدد من الأوروبيين والمسلمين ، كما سأتحدث إليك بإيجاز عن تجربة حقيقية لمثل هذا الحوار المخلص ، والمفتوح ، جرت لى مع بعض رفاق من المصريين فى بلد أوروبى يجر أقدامه الثقيلة فى تجربة له مع الشيوعية حتى اليوم .

٢ — تجربة إقامة مجتمع إسلامى داخل نظام شيوعى :

وهاهى ذى فقرات من شواهد هذه التجربة المثيرة ، التى جرت بمستوى التجارب العلمية والمعملية — أقصها عليك من كتاب خصصته لها وأصدرته فى مصر منذ سنوات .

فى فبراير سنة ١٩٦٩ سافرت مع وفد شعبى للاتحاد الاشتراكى

العربى إلى ألمانيا الشرقية رئيساً لبعثة من الفلاحين المصريين لا يتجاوزون العشرين ، من أعضاء مجلس الشعب — البرلمان — واللجنةالمركزية ، وذلك لحضور دورة دراسية لدراسة التعاونيات والميكنة الزراعية فى مدرسة الهندسة الزراعية بقرية تويتشنتال بمقاطعة هالة . وكانت مدة الدراسة ثلاثة أشهر ، تشمل الجانب العملى ، وزيارة المعالم اللازمة لهذه الدراسة .

منذ البداية تأكدنا وسط وسائل الاستهواء — المخططة سلفاً — أن جهد الشيوعيين الألمان متجه بنشاط ليتحول وفدنا « اعتقادياً » أو « إيديولوچياً » مع الماركسية ونظرياتها — كما تحولت وفود عربية سابقة وأخرى من أمريكا الجنوبية .. ومع ذلك فمنذ البداية توحدت إرادتنا لمقاومة كل خطط وغوايات الحزب الماركسى القائد لحكومة ألمانيا الشرقية ، بل وفى التفوق على خططه — بغير غضب أو انفعال — وذلك بأن نتفوق أولا فى الدراسة ، و أن نبنى خلال ذلك ، بالحوار العلمى ، المخلص والمفتوح ، مجتمعاً إسلامياً تجريبياً نعيش به داخل جناحنا بهذه المدرسة ، يضىء رغم صغره النموذجى بمعنى انتصارنا وانتصار عقيدتنا ، على هؤلاء الذين فقدوا الرؤية التاريخية للعرب والمسلمين ، والذين عاشوا ، ولا يزالون يعيشون على الظن بأنه على « الخمر والنساء » يمكن تصدير الماركسية للشعوب الأقل تقدماً فى العلوم والصناعة ، بينما هى لم تنجح عندهم فى بناء ما هو أكثر من مجتمع القسر المزين بالشعارات ، داخل حياة يخالف الماركسيون

فيها قواعد الصحة النفسية ، وصحة البدن ، وصحة الأخلاق ، بل وسلامة وصحة تحقيق الأهداف ..!

فى تلك الأشهر القصيرة ، وداخل مجتمعنا الإسلامى النموذجى ، بكل مقوماته ، ودعاماته من الطهارة ، والصلاة ، والأطعمة الصحية ، ومتابعة الدراسة ، وعلاج المشكلات اليومية ، وتحصين مواقفنا فى مواجهة قيادة المدرسة ، التزمنا داخل قلعة فنسل النبيل الألمانى السابق — بصحة التلقى للدروس العلمية ، مع تمييز العلمى منها عن الأيديولوجى ، وذلك حتى يتيسر لنا أن نحقق التفوق الكبير فى النتيجة النهائية لامتحانات هذه الدورة العلمية والعملية . هذا بينما كنا نزور مدن ومعالم وآثار ألمانيا الشرقية ، ونلتقى بالسكان من الفلاحين والعمال والمثقفين ، وبعدد من اللجان الحزبية ، ومن المسئولين عن خطط التعليم ، ومديرى المصانع ، وكبار قادة الحزب ، مع إقامتنا لبعض الندوات التى نتحدث خلالها إلى هؤلاء وأولئك عن بلادنا وتاريخنا وعقيدتنا ، وعن واقعنا المتحرك ونظرتنا منه إلى المستقبل الواسع بتقدم حضارتنا العربية العلمية المؤمنة ..

بكل هذا الجهد المتسق خلال هذه الرحلة القصيرة ، والذى تناقلت الصحف الألمانية أخبارنا المثيرة بسببه ، تأكد لنا أن المسلم المعاصر — كما هو فى حقيقته — وليس كما صار تحت ضغوط أعدائه — لايزال حافظاً صورته المشرقة عبر كل العصور ، كما لايزال حافظاً — بمقومات بقائه — قدرته على التجدد والاستمرار ، بما يفتح الطريق واسعاً

أمام الأوروبيين وأمامه لتحقيق هذا الوفاق الحضارى المنتظر بين الأوروبيين والإسلام .. وبين الأوروبيين والمسلمين .. إذا قدر الله للحضارة المعاصرة البقاء .

٣ ـ حوار مع صديق ألمانى مسيحى ماركسى :

من بين هذه الحقائق والشواهد التى لا تنسى فى هذه الرحلة التاريخية لحوار إسلامى أوروبى ، أحدثك عن لقاء وفدنا الدراسى فى مدينة ليبزج ، وفى يوم من أيام شهر مارس ، بالصديق الجديد كارل هارتز كاليتا ، مدير معهد التجارب على التربة والأسمدة لزراعة المناطق الحارة ، وذلك أثناء زيارتنا لهذا المعهد ضمن برنامج دورتنا الدراسية .

هذا الصديق الذى اكتشفناه فجأة فى ألمانيا الشرقية كان الجواب الذى انتظرناه أكثر من شهر ، لإقامة هذا التوازن بين عجز مضيفينا الألمان الماركسيين عن فهم الجانب الحضارى السليم فى سلوكنا بوصفنا عرباً مسلمين ، وبين وضوح هذا الفهم السليم ، وبالرؤية التاريخية والحضارية المعاصرة ، عند ألمان آخرين لا يقلون فى ذلك المجتمع علماً ، ولا مكانة ، عن الأولين .

دعانا كاليتا عقب زيارة المعهد إلى الغداء فى مطعم قريب فى ضواحى ليبزج . وكان كاليتا قد سمع الكثير عن دهشة القادة الألمان فى مدرسة الهندسة الزراعية ـ من سلوكنا الإسلامى غير المتكلف ، ومن تعففنا الحصين من غير انفعال أو افتعال عن الخمر والنساء ، ومن صلواتنا

المنتظمة ، وما فرضناه عليهم من طهارة أطعمتنا التى كانوا يخصصونها لنا بعيداً عن أطعمتهم . هـذا مع مستوى ثقافى غير متوقع تسبب عنه الحرج الشديد لهم . ولعدد من مثقفيهم وأساتذة جامعاتهم ، عندما رتبوا لنا لقاءات معهم للمناقشة المقارنة بين الإسلام وشرائعه وبراهينه ، وبين الأيديولوجيات الأوروبية المعاصرة ، وعلى رأسها المادية التاريخية ، هذا فضلا عن إلمامنا بتاريخ الألمان القديم منذ عهد قبائلهم الجرمانية الأولى ومعبودهم الخرافى مانوس ، وحتى عصر شلر وجوته .. وهيجل وماركس .. إلى آخره !

كانت المفاجأة الأولى التى أهداها إلينا الصديق كاليتا هى هذا الطعام الشرقى الذى أوصى المطعم بإعداده ليكون أقرب إلى مألوفنا . وكانت المفاجأة الثانية أنه قدم لنا القهوة بعد الطعام ولم يقدم لنا الخمر . وكانت أعظم هداياه بعد ذلك أنه كان مهذباً وودوداً ، وأنه كان يعرف الكثير عنا وعن بلادنا ومعتقداتنا ويحترمها .. وكانت المفاجأة السارة أخيراً أنه دعانى لأنوب عن إخوانى فى زيارته وزيارة أسرته فى بيته الخاص بليبزج .

٤ ــ الإيمان طريق الطفولة لتنشأ متحررة من العدوانية :

فى زيارتى الأولى لبيت الصديق كاليتا ــ كما أوجزها لك بأهم دلالاتها ــ قصدت إليه بسيارة المدرسة من قرية تويتشنتال إلى مدينة ليبزج . ولم أكن بحاجة فى هذه الزيارة لأن أصحب أحد المترجمين ــ

العرب الماركسيين – الذين كانوا يعملون معنا بالمدرسة فلقد كان كاليتا – كما تبينت ذلك فى لقائنا الأول به – يتكلم الإنجليزية كما أتكلمها ، وكذلك كانت زوجته التى تعمل معه فى مكتبه ، ومع ذلك فإنه زيادة فى الترحيب بى دعا إلى استقبالى معه فى بيته أحد تلاميذه العرب طالب الدكتوراه اليمنى أحمد بن حمد الحكمى .

لم يكن من الصعب وأنا أصعد الدرج إلى الطابق الذى يقيم به كاليتا أن أستروح نسمات السكينة والأمن ، وأن أشعر بجو من الألفة يغمر نفسى وحواسى ، وكأنى عشت لحظات عزيزة فى هذا المكان من قبل ، أو كأنه مر بى فى رؤيا قديمة مشرقة من أيام الطفولة . .

وتقدمنى كاليتا بعد مصافحته الحارة ، هو وتلميذه الحكمى ، ليعرفنى بزوجته وابنتيه . وبعد أن استرحنا قليلا فى غرفة الاستقبال ونحن نتبادل مع القهوة أحاديث متعددة حول الدين والماركسية ، قمت مع كاليتا لأتفقد مكتبته الثمينة ، بما اتسعت له من تراث متنوع فى الكتب العلمية والأوروبية ، والصور والموسيقى . ومن ثم عدنا مرة أخرى إلى غرفة الاستقبال ، حيث أقبلت علينا السيدة كاليتا بالقهوة مرة ثانية ، وحيث جلست معنا أيضاً كل من ابنتيه : إنجيليكا – ١٣ سنة فى ذلك الوقت ، وكورنيليا : ١٠ سنوات – وهما تبتسمان دائماً فى وداعة ونقاء ، وكأنهما نماذج حية وناطقة لبعض الصور الدينية فى مختلف متاحف أوروبا .

وسألت السيدة كاليتا هذا السؤال الطبيعى : كيف تربين ابنتيك . .

لتحتفظا بالإيمان والسلام النفسى .. فى هذا البحر المتلاطم من الماركسية وتقلباتها . . وعواصفها ؟

قالت فى بهجة الأم المنتصرة بالدفاع عن أغلى ما فى حياتها ، وبعد أن دفعت الثمن الغالى لتحتفظ لبناتها نعمة صحة النفس بالإيمان :

« إن الزوجة فى الأسرة الاشتراكية تعمل تماماً كما يعمل الزوج . أما الأطفال فترعاهم الدولة طول النهار فى الحضانات . وعندما يحضر الزوجان إلى المنزل يتساوى كل منهما فى أداء العمل المنزلى » .

ثم استأنفت بعد هذه المقدمة تقول ببديهتها الحاضرة ، وهى تنظر إلى زوجها أحياناً وتبتسم :

« ولكننى بدافع من زوجى تركت عملى الأول كمهندسة تصميم آلات لأعمل معه فى المعهد الذى يديره عملا أقل أجراً ، وذلك حتى أتفرغ لتربية بناتى فى البيت ، بعيداً عن دور الحضانة ، بعد أن تحقق لى أنا وزوجى أن تربية الأطفال فى حضانة الأم والأب ، المخلصين لأبنائهم بصورة طبيعية ، أفضل من ناحية الهدف التربوى » .

ثم مضت تقول من الحقائق التى أعتقد أنها غير بعيدة عنك تماماً :

« لقد وضعنى زوجى منذ البداية أمام اختيار صعب ، فقد قال لى : « إما أن تكونى زوجة لى . . أو زوجة للمصنع . . » . . وقد اخترت فى النهاية أن أكون زوجة له ، وقبلت لذلك أن أعمل مجرد كاتبة على الآلة الكاتبة ، وسكرتيرة لزوجى فى المعهد الذى يديره ، بدلا من

مهندسة تصميم آلات . . وقد اكتشفت فيما بعد أننا حققنا بهذا الدخل الصغير نسبياً سعادة أكبر فى بيتنا ، وسلاما أعظم لابنتينا . . » .

ثم عادت تقول حتى لا يتهمها أحد بالأنانية : « ومع ذلك فأنا وزوجى لازلنا على صلة قوية من مجتمعنا الصغير داخل أسرتنا بهذا المجتمع الكبير من حولنا » .

وجاء التعقيب بعد ذلك من كاليتا على حديث زوجته ليقول وهو يؤكد مغزاه الخطير :

« إن الأسرة الماركسية مفككة وضائعة من هذه الناحية . فالإحصاءات تؤكد أن النزعة الإجرامية مرتفعة جداً بين أطفال الحضانات . إن الفرق بين أطفال الأسرة وأطفال الحضانة كالفرق بين فرخ البيضة التى تحضنها الدجاجة ، وفرخ البيضة الأخرى التى يحضنها مصنع التفريخ . إن دجاجة البيضة الأولى تحتفظ برغبتها فى أن تحضن بيضها ، وأن تضحى من أجل فراخها ، بينما الدجاجة الأخرى — وليدة المصنع — تفقد تماما هذه العاطفة . . إنها تفقد ذاكرتها عن الأمومة ، وعن الأسرة فى عالم الدجاج . . تماماً » !

٥ — الإسلام قدم لأتباعه نظاما يدافعون عنه :

وأخيراً . . وعلى مائدة الغداء فى بيت الصديق الألمانى المسيحى الماركسى كاليتا ، انفتح الحديث الواسع ، والودى ، حول هذا التقارب الطبيعى بين الإسلام والمسيحية ، وبخاصة حول ما يسرنى

فى هذه الرسالة — بكل حقائقها — أن أوضحه لك أيها الأخ الأوروبى ، وهو هذا الأمل فى إنقاذ مصير العالم ، وحضارة العصر ، ومستقبل الإنسان ، إذا ما تحقق هذا الوفاق المنصف ، والمتكافىء ، بين الأوروبيين والمسلمين فى هذا العصر . .

وبتلخيص شديد أذكر لك هنا جواب كاليتا الصحيح بكامل رؤيته التاريخية والعلمية للدين ، وبخاصة للاسلام والمسيحية ، وذلك بعد أن وجهت إليه بطريق مباشر هذا السؤال البالغ التركيز وأنا أسأله قائلا :

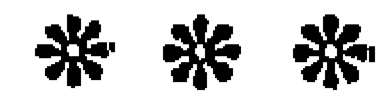
« إننى أريد بقدر من الوضوح أن أفهم تماماً : هل أنت مسيحى . . أم ماركسى ؟ ! » .

ابتسم كاليتا كعادته ، وكأنه كان يتوقع منى هذا السؤال ، ثم قال بعد أن نظر باتجاه تلميذه الحكمى ، محللا موقفه الخاص من هذا التناقض الظاهر بين إخلاصه فى مسيحيته ، وبين عمله داخل نظام ماركسى ملحد :

« لقد نشأت نشأة دينية مسيحية منذ الطفولة وحتى الرجولة . . وبعد الحرب والثورة فى ألمانيا الديمقراطية سنة ١٩٤٥ كان لابد أن أدرس الماركسية لأشارك فى بناء وطنى . وعلى الرغم من إيمانى بالمسيحية فإن مشكلتى أن المسيحية لم تقدم لى « نظاما اجتماعياً » كالنظام الذى قدمه الإسلام لأتباعه حتى أعمل به وأدافع عنه . ولذلك فأنا مقتنع بأن أبنى

وطنى بالنظام الماركسى ، وبأن أحتفظ لقلبى وأسرتى بالإيمان المسيحى » !

هذه صورة ملخصة أيها الصديق لمثل هذا الحوار المخلص ، والمفتوح ، الذى جرى بين مسلم ومسيحى فى هذا العصر على أرض أوروبا ، وهو يؤكد لك ما ذكرته لك على رأس هذه الحقيقة من أنه فى أى « حوار مخلص » تظهر حاجة الأوروبيين إلى المصالحة مع المسلمين .



الحقيقة الثالثة

الأساس العلمى للإسلام يبدأ من علم البرهان على الله

١ ــ رؤية علمية للكون من واقع متحرك :

وحتى أبين لك بعد ذلك أيها الأخ الأوروبى كيف أن الفكر العلمى الشامل ركن أساسى من أركان الإسلام ، وقوة دافعة دائمة فيه للتقدم ، أقول لك إن الإسلام الذى هو دين الإيمان بالإلاه الواحد ، كان ولا يزال يحقق يقين المؤمنين بالله بهذا البرهان العلمى الدال عليه ، وذلك منذ عاش العرب آلاف السنين ــ عبر الرسالات السابقة وحتى نزول القرآن ــ أحراراً يتحركون فوق صحاريهم ،ووسط وديانهم وجبالهم ، فى واقع متحرك مضىء حولهم باتساع السماوات والأرض . لقد عاشوا بهذه الحركة الدائبة فى ضوء الشمس ، وتحت أنوار النجوم ، بكامل حريتهم خارج أسوار وأثقال المدينة ، وبعيداً عن سلطان الملوك وأوهام الكهنة . وبذلك وهم يرفعون رؤوسهم دائماً إلى فوق ، ويمدون أعينهم بعيداً إلى هناك ، وهم متخففون من الترف ، ومتيقظون لما حولهم بكل الحواس ، ومستجيبون لما فى فطرتهم السليمة من هذا الإيمان الفطرى بالخالق ــ أدركوا هذا « الاتساق » الدائم فى الواقع المتحرك من حولهم . . الاتساق بين عناصره من الأشياء والأحياء ، وهى تتحرك رغم متغيراتها فى غير طرق مسدودة ، وفق قوانين ثابتة ، ونحو غاية موحدة ، بغير توقف أو اختلال . .

بهذا المنهج العلمى فى الحركة والرؤية والقياس كشف العرب منذ فجر التاريخ عن أول قوانين العلم الدالة على اتساق الكون ، وعلى أن هـذا الكون يتحرك وفق إرادة خالقه القادر الحكيم ، نحو غاية موحدة ، تمضى إليها بمشيئته مواكب الأحياء والأشياء ، وفى طليعتها الإنسان ، الذى كرمه الله بامتحان أمانته ، وسلامة عقله ، وقوة إرادته ، وبذلك يصطفى الله ويحب هذا الإنسان المؤمن ، الذى يحمل الأمانة ، ويملك الإرادة ، ويوقظ العقل ، ليتجاوز كل العقبات ، ويرتفع فوق كل الشهوات ، وهو يختار بالحرية والأمانة والعلم — طريق الله . . طريق الإيمان . . طريق الطهارة والعمل ، والسلام والعدل .

من هنا بدأت هذه المنظومة العلمية تشرق على طريق النظر العلمى ، المهتدى إلى الإيمان ، فى كل مراحل تاريخ العرب الدينى ، مع الرسل قبل إبراهيم والرسل بعد إبراهيم ، وذلك فى تتابع حقائق إيمانهم بالله ، وبرهانهم العلمى على صحة هذا الإيمان ، على هذه الصورة :

— إنه إلاه واحد لكل هذا الكون ، يقوم عليه بحكمته ، ويدبره بأمره . .

— إذن فهو كون واحد ، وليس جملة أكوان . .

— وإذن فالطبيعة فى هذا الكون الواحد متسقة القوانين ، أى إن وحدات الأنواع متساوية فى قيمتها ، وفى خصائصها العلمية مع أنواعها ، بهذا الاتساق . .

٢ ـ نزول القرآن واكتشاف وحدة أجزاء العلم :

ثم نزل القرآن الكريم بالرسالة الأخيرة للدين والإسلام ، الذى جاء به القرآن كاملا ، ومهيمناً على ما قبله من الكتب والرسالات . وفى نور هذا القرآن الدائم الإشراق ، انتبه العرب الأوائل من المسلمين من أصحاب الرسول ، وممن خرجوا من بعده يشرقون على العالم بحضارة الإسلام العلمية والأخلاقية — أقول لك أيها الأخ الأوروبى — لقد انتبهوا إلى ما كشف لهم القرآن عنه . . وهم أهل لتدبره الصحيح بلسانهم العربى المبين . عن هذه الوحدة الجامعة لأجزاء العلم ، من حيث أن « العلم » كما عرفوه فى تاريخهم الطويل هو « الخبر الصادق » عن الله ، سواء فى رسالات الرسل ، أو فى هذه السنن والقوانين والظواهر التى يتحرك بها الأحياء والأشياء من خلقه ، بمشيئته ، وحكمته ، فى حركة الحياة . .

لقد تبين لهم أن وحدة أجزاء العلم التى لا يتحقق بغير تكاملها عمران الأرض ، وتقدم الإنسان ، تتألف — كما تتألف وحدة أجزاء الذرة — من ثلاثة أجزاء بهذا الترتيب :

١ ـ علم الدين ، وهو الخبر أو النبأ الصادق عن الله بالوحى إلى رسله ، وفى كتبه . وهو علم يجمع مع شعائر العبادة « شريعة الله » التى يبنى بأحكامها الإنسان المؤمن ، والأسرة والمجتمع القائمين على الإيمان . ثم أنباء الغيب التى يؤمن بها المؤمنون ، حتى وإن كان بعضها بعيدا عن متناول حواسهم ، وذلك لأنها فى ضوء العقل والإيمان واضحة الاتساق

والتكامل مع ما أيقنوا به من علم البرهان على الله ، ومن علم الشريعة ، وذلك مثل الملائكة والبعث ، ومثل الحساب والجزاء .

٢ ــ علم الإنسان ، وهو النبأ الصادق من الله بهذه السنن والقوانين الثابتة التى تجرى بها مصائر النوع البشرى من الأفراد والمجتمعات ، والشعوب والأمم ، فى الماضى والحاضر ، كما هو فى المستقبل ، والتى يتحكم فى مسارها قرب هؤلاء الأفراد والأمم ــ أو بعدهم ــ عن الله . بحيث أنهم بحتمية هذا العلم يتحدون ويتماسكون ويتقدمون إذا ما اقتربوا من الله بالإيمان ، وينحلون وينهارون وينقرضون إذا ما ابتعدوا عنه بالكفر .

٣ ــ علم الأشياء ، أو ما يسمى علم قوانين الطبيعة ، وهو النبأ الصادق من الله كما أودعه بمشيئته وحكمته ، وإلى غايته ، فى هذه العناصر ، والكائنات الحية ، وغير الحية ، فى هذا الكون المشهود ، وما وراءه من امتداداته ، من قوانين حركتها ، ومتغيراتها ، سواء فى صورة الذرات الدقيقة ، أو الأجرام السماوية الضخمة ، وهى تنطلق بغير تصادم أو اختلال وفق مشيئة الله وحكمته وغايته من هذا الخلق الباهر ، ملء السماوات والأرض .

والآن أقول لك أيها الصديق . الأوروبى ــ أين هذه الرؤية العلمية المتجددة فى حياة المسلمين ، الذين يرون وهم يسيرون سيرهم الدائب فوق أرضهم المضيئة ــ هذا الواقع المتحرك حولهم من نقطة متحركة فى اتساق دائم مع هذا الواقع . . نعم . . أين هذا الموقف من الرؤية العلمية

المتجددة للمسلمين . . من موقف الأوروبيين الذين لا يزالون حتى اليوم يتخيلون هذا الواقع المتحرك فى جميع فلسفاتهم — قابعين وراء النوافذ المغلقة ، والضباب المخيم — من نقطة ساكنة . . خارج هذا الواقع . ! ؟

٣ — دلالة العلم فى الإسلام على الدنيوى والأخروى :

لقد كان هذا العلم النافع — كما رأيت — واقعاً حياً لهؤلاء المسلمين العرب ، الذين عرفوا الله بالبرهان العلمى والحى فيما حولهم ، وإن لم يبصروه ، أو يحيطوا به ، فأحبوه ، واتجهوا إليه ، واستجابوا لدعوته .. ولم يكن هذا العلم فى هذا الواقع المتحرك ، بالنسبة لهؤلاء المتحركين النشطين فى أرجائه . . علماً خاصاً بطبقـــة . . لم يكن حكراً على أرستقراطية القصور . . أو على المثقفين فى المدن . . أو على طبقة لرجال الدين . . لقد كان ولا يزال بالإسلام الصحيح علماً لكل الناس بحقه . . لكل من يستطيع أن يسير فى الأرض لينظر كما جاء فى القرآن : كيف بدأ الله الخلق . . لكل من يستطيع الحركة بحرية الإرادة ، وصحة الفطرة ، وسلامة العقل ، ليبحث عن البرهان الحى ، والعلمى ، والناطق ، على الله . . وعما وراء هذا البرهان من العلم الشامل والموحد . . العلم الذى لا يأفل نوره ، ولا تنفد آيات الله به . . علم الدين .. وعلم الإنسان . . وعلم الأشياء . .

فى هذا العلم الشامل والمتكامل بوحدة أجزائه ، والذى ينفع الله المؤمنين به باتساع ما قبل الحياة ، ومع الحياة ، وما بعد الحياة ، تظهر

حكمة الله فى خلق الأشياء والعناصر التى سخرها للإنسان فى السموات والأرض ذات دلالتين :

الأولى يظهر بها العلم مرتبطاً بالإنسان فيما يصلحه ، وتظهر به الأشياء مسخرة برحمة الله للإنسان ليهتدى بها إليه ، ولتكون بهذه النعمة المتجهة من الله له موضع امتحانه على طريق اعتقاده ، ونوع عمله .

وأما الدلالة الثانية فتتجرد بها الحقيقة العلمية من ظروف الإنسان المستقرة ، لتظهر معبرة عن حركة الكون فى مجموعه ، فيما أراده الله له ، وما أودعه الله فيه، من هذا الانطلاق إلى غايته . . ومعهما الإنسان .

إن العلم بهاتين الدلالتين يجمع بين طرفى الحقيقة العلمية فيما تدل عليه دائماً — بوجهيها المضيئين — من الزائل والدائم .. من الدنيوى والأخروى .. من البشرى والإلاهى . . فى حياة الإنسان .

وهكذا بهاتين الدلالتين معاً تكلم القرآن إلى الإنسان . . تكلم إليه بنور العلم الشامل فيه لهدايته . . تكلم إليه فحدثه عن هذه الأرض التى « بسطها » الله له أمام عينيه ، وجعلها بالهدوء والسكينة مستقراً لحركته ، وأماناً لعيشه . . فكان هذا القدر من العلم هو وجهه الدال على الدنيوى ، وذلك حيث يجد الإنسان إذا ما تأمل وفهم ، أن من رحمة الله به أن يرى الأرض أمامه — كما لا يزال يراها إلى اليوم مع التقدم العلمى — مبسوطة .. بينما هى فى دلالتها على الأخروى كروية . . وأن يراها بقدر حاجته ساكنة ، ومذللة لعيشه ، ومستقرة . . بينما هى فى طريقها إلى آخرتها متحركة ، ومرتجة ، ومندفعة فى فلكها لا تنظر إلى وراء . . !



إن القرآن يكشف بكل الوضوح فى الكثير من آياته عن هاتين الدلالتين المتكاملتين فى لغة العلم الدينى ، وذلك عندما يبين نعمة الله على الإنسان حين يجعل الأرض أمامه « بساطاً » و « معاشاً » . . وهو يمهدها لإقامته تمهيداً ، ويذللها لركوبه المطمئن تذليلا . . ثم حين يبين نعمة الله الأخرى فى أنه جعل الأرض مثل غيرها من الأجرام السماوية كروية ، ومتحركة،وهى تسبح فى فلكها الدائر مثل الشمس والقمر .. إلى مستقر وغاية لها ولهما عند الله .

وهكذا . . فإن صورة الأرض المبسوطة ، والمستقرة غير القلقة أو المهتزة ، هى حقيقة علمية نسبية يقدمها القرآن ليرى الإنسان نفسه متحركا برحمة الله ، فوق ما « يبدو » له أنه منبسط ساكن . ذلك أن هذا الإنسان الذى ضبط الله حواسه ، وقننها ، ليعيش هذه الحقيقة العلمية فى دلالتها النسبية على الدنيوى — لو أنه رأى بعيداً عن هذه الضوابط لحواسه — أن هذه الأرض « قذيفة » كروية ، حجرية ، ضخمة ، يتسلق — لكى يعيش — جوانبها المستديرة الوعرة ، وهى تركض به منقذفة فى الفضاء ، بينما تخرق أذنيه ، وتزلزل قلبه ، أصوات هذه الانفجارات الهيدروجينية التى يسمعها فى الشمس ، كما يسمع هذه الانفجارات الأخرى فى باطن الأرض — فهل كان هذا الإنسان فى مثل هذه الدوامة من الرعب يبقى « إنساناً » يأنس لشىء ، أو يصلح لأى شىء . . ! ؟

أليس من رحمة الله — كما علمنا الله بالقرآن أيها الصديق — أنه قدم

للانسان من بدء الخلق وهو يقنن ويضبط حواسه ليعيش هذه الحقيقة العلمية النسبية — هذا المسكن ، أو المهدىء ، الذى يتعاطاه اليوم مسافر الفضاء حتى لا ينهار تحت أمواج الحقائق العلمية المغايرة لمناخ الأرض . . وأنه حين أنزل الله القرآن بالإسلام على المسلمين منذ نحو أربعة عشر قرناً ، علمهم هذه الدلالة العلمية على الدنيوى ، التى لم يفهمها الأوربيون فى العصر الحديث إلا فى العبارات الغامضة ، وغير العلمية ، التى نفى بها أينشتين فى نظريته « النسبيه » إمكان التوصل إلى حقائق علمية يقينية ، عندما تصور الأشياء والحواس البشرية عند متصل الزمان والمكان فى حالة « روغان دائم » . . بينما يعود القرآن بعد شرح دلالة « الدنيوى » فى الصورة العلمية النسبية ، فيقدم العلم مرة أخرى فى دلالته الأكثر جلاء على « الأخروى » . . أى على الدائم . . والمتزايد فى مراحل الوضوح واليقين . . بالنسبة للانسان وجميع الخلق فى هذا الكون . . فى هـذه الحياة . . وما بعد هذه الحياة . . !

نعم . . أليس هذا القدر على إيجازه من أضواء العـلم الباهر ، والمتجدد فى بناء الإسلام ، وفى طبيعة مصادره . . هو علامة لا تخطىء . . مع مئات غيرها من العلامات والسمات — على ما يملكه المسلمون بالإسلام من القوة العلمية الدائمة والنشطة باتجاه التجدد والبقاء والاستمرار . . ؟

ثم ألسنا فعلا – ندرك الآن معاً أيها الصديق – فى ضوء هذا القدر من العلم ، أنه من نعمة الله حقاً . . الله الذى ينكره الشيوعيون . . ويتباعد عنه الغربيون . . أن تكون الأرض تحتى الآن ساكنة ، وهادئة ، ومستقرة ، لأكتب لك هذه الرسالة . . مطمئناً أيها الأخ الإنسان فى أوروبا إلى أنك – إن شاء الله – ستجد هذه الأرض من تحتك ساكنة ، وهادئة ، ومستقرة كذلك ، بقدر ما تقرأ رسالتى الودية . . وتفهمها . . من أجل أملنا الكبير فى الوفاق المنشود ! ؟

* * *

الحقيقة الرابعة

المجتمع الإسلامى أول مجتمع تتعلم منه أوروبا حقوق الإنسان

١ ـ الشروق التطبيقى لحقوق الإنسان بظهور الإسلام :

من الحقائق التاريخية فى هذا العالم أن أول الظهور بالنص والتطبيق لحقوق الإنسان كان مع نزول القرآن ، ومع أعمال وأقوال هذا المجتمع الإسلامى الأول ، الذى آمن بالقرآن ، واقتدى بأعمال وأقوال الرسول ، وسار على المنهج السليم فى تطبيق أحكام الإسلام وشرائع القرآن .. ولقد كان أعظم هذه الحقوق التى استقر بها لأول مرة هذا التأمين الفعلى لحياة وأمن وقدرات الإنسان ببناء المجتمع الإسلامى الأول ـ هو « حق الحياة » الذى يعنى حرية الإنسان أن يحيا آمناً بنفسه من القتل ظلماً ، وبغير ذنب يستوجب القتل ، وهو الحق الذى جعلته الشريعة بنص القرآن أول الأركان والقواعد التى يتأسس عليها العمران الإنسانى السليم .

لقد نص القرآن ، وفوق ما يبلغ إليه أى نص دولى جاء بعد ذلك بنحو ثلاثة عشر قرناً ، على أن قتل النفس الواحدة ، بغير جريمة قتل تستوجب القصاص ، أو فساد فى الأرض يستوجب القتل ـ هو عدوان على الإنسانية كلها بما يعادل قتل الناس جميعاً . ويتم القرآن المعادلة ليتم العدل ، وذلك بأن ينص على أن إحياء النفس الواحدة ، وذلك بحمايتها من أى ظلم يقع عليها بقتلها ، أو بحرمانها من أى حق ينتهى إلى موتها

بحرمانها غير المشروع من أسباب حياتها ، عمل يساوى فى قيمته وعدله إحياء الناس جميعاً .

هذا النص فى القرآن هو :

« مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً » (المائدة:٣٢)

وهنا أذكرك أيها الأخ فى أوروبا بأن هذه القاعدة التى استهل بها الشروق التطبيقى لحقوق الإنسان بظهور الإسلام — تستند إلى نفس الأساس العلمى الذى يقوم عليه الدين والإيمان والشرع فى الإسلام ، والذى انتظمت حقائقه هذه المنظومة الدينية العلمية التى حدثتك عنها عند حديثى عن الأساس العلمى للاسلام ، والتى أشرت إليها قبل ، والتى تقول فى إيجاز :

إله واحد . . فهو كون واحد . . وإذن فالطبيعة فى هذا الكون الواحد متسقة القوانين . . أى إن وحدات الأنواع متساوية فى القيمة العلمية مع أنواعها ، بقوة هذا الاتساق . .

أليس معنى أن قتل إنسان بغير حق هو قتل للناس جميعاً ، وأن إحياء إنسان بما له من الحق هو إحياء للناس جميعاً .. هو صورة فريدة لهذا الأساس العلمى فى الإسلام عن مساواة وحدات الأنواع لأنواعها فى القيمة العلمية ! ؟

فماذا فى أوروبا من هذه الحقوق الناجزة التى أحيا بها الإسلام أمان الإنسان ، وحرياته المشروعة ، وقدراته المثمرة ؟ . . ماذا فى أوروبا بعد الشروق الناجز لحقوق الإنسان فى المجتمع الإسلامى الأول ، ومنذ نحو تسعة قرون بعد هذا الشروق ، أى منذ القرن السادس عشر ، غير هذه الصورة ، أو الحلية ، أو الأيقونة،التى حاولت أوروبا أن تنقل بها بالبحث فى « القانون الدولى » فكرة « حقوق الإنسان » . . وهى الفكرة التى أصبحت بعد ذلك اتفاقية أوربية تعرف باسم « اتفاقية روما » التى صدرت سنة ١٩٥٠ ، والتى انتهت إلى إصدار ما يعرف باسم مواثيق حقوق الإنسان سنة ١٩٦٨ .

نعم . . ماذا استطاعت أوروبا أن تنقل ، أو تستوعب ، أو تنجز من « حقوق الإنسان » وهى لم تستطع أن تفتح أعينها على مصدره الدائم الإشراق عند العرب والمسلمين قبل القرن السادس عشر . ثم هى عندما انتبهت إليه ، وأخذت تتدرج فى تنمية فكرته ، لم تستطع آخر الأمر ، وكما نشهد اليوم ، أكثر من التلويح وراء المظالم والانتهاكات لحريات وحقوق الإنسان ، والتمويه أحياناً ، بهذه النصوص النظرية ، والمسكنات الدستورية ، تحت شعار لا مدلول له فى واقع هذه الصراعات الدموية المعاصرة هو : « حقوق الإنسان » . . !

٢ ــ تأثير الإسلام على أوروبا باتجاه مجتمع أفضل :

ولقد جاء علماء الفقه الإسلامى بعد نزول القرآن ، وظهور وانتشار الإسلام ، فاستمروا فى جهادهم الأكبر لكى يتجدد ويتزايد إسهام

الحضارة العربية الإسلامية فى تعزيز ودعم الإنجاز الفعلى لحقوق الإنسان ، وبالنسبة لجميع شعوب الأرض ، وذلك لأنهم اعتبروا أن مشرق هذه الحقوق بالإسلام ليس مجرد واقعة تاريخية يكتفى بها المسلم المعاصر ، وهو يفخر بأسلافه ، بل إن عليه أن يواصل بحكم وصايا الشريعة ، وأسوة الرسول ، هذا الجهد نحو تعزيز المبادىء القانونية التى تحكم حقوق الإنسان ، نحو الأفضل فى مجال التطبيق والتعميم .

وهكذا لا يزال القارىء المنصف للتاريخ الإسلامى الدينى والعلمى بين الأوروبيين ، وفى كل العالم ، يلمس بيديه هذه الشحنة الحضارية الإنسانية ، التى استمدتها أوروبا من هذا المثال الحى ، والصادق ، وواسع الانتشار للحضارة العربية الإسلامية .

لقد كان تأثير هذه الحضارة العربية الإسلامية بالغاً ، ومؤثراً ، وهو يمتد وينفذ إلى أعماق أوروبا من المنارات العلمية فى جامعات الأندلس ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، وحتى بولندا وانجلترا ، فضلا عن مدن البحر الأبيض ، وحيث كانت كتب العلوم العربية تتداولها أيدى الأوربيين بلهفة ، وكما تتداولها باعتزاز ، رغم الحظر الكنسى عليها . وكان هذا العالم الحى المشرق الجديد كما تفتحه هذه الكتب أمام العلماء وطلبة العلم غير مسبوق فى الخيال الأوروبى و لا مطروق .

وعلى الرغم من أن الأوربيين عزلوا عنصر « الإيمان » من عناصر هذه الحضارة العربية الإسلامية ، فقد وجدوا فى كل ما تفتحه أمامهم

من المغاليق على حريات التفكير، والتعبير ، والاعتقاد، والمساواة ، والعمل ، والبحث العلمى ، والنمو الاجتماعى — مثاراً لخيالهم ، ودافعاً لحماستهم ، لكى يخرجوا من تلك القيود الثقيلة التى عاشوا بها فى ظلمات عصورهم الوسطى يتخبطون فيها ، تحت سلطة الأباطرة المتألهين — والبابوات المعصومين ، وتجريدات وسفسطة فلاسفة اليونان الأولين . . ! !

٣ — وكان عطاء الإسلام الخصب هو الرد على الحروب الصليبية:

كذلك فإن رد أوروبا بالعدوان على المسلمين ، وعلى الإسلام الذى أيقظهم شروقه الواسع بأضوائه الأولى ، وذلك بالحروب الصليبية التى انساق إليها الفرسان المفلسون ، والفلاحون الضائعون ، بأمر الملوك ورجال الدين ، والتى استمرت نحو قرنين من الزمان — لم يتبعه من المسلمين إلا الرد الكريم مقابل هذا العدوان البشع ، وهو الرد الفورى باستمرار عطاء الإسلام الخصب لأوروبا والأوروبيين ، عطاء كان أعظم آثاره حضارتهم المعاصرة . .

فعلى الرغم من تصور الأوربيين الساذج سهولة القضاء على الإسلام والمسلمين ، وهم يسوقون جيوشهم الهمجية لاقتحام أرضهم ، ودك مدنهم ، واسترجاع الحكم الرومانى الغاشم قبل الإسلام فوق أرضهم ، فإنهم لم يلبثوا أن فتحوا أعينهم الزرقاء كمياه البحر مشدوهين ، وذاهلين ، أمام الآثار العظيمة المتبقية من حضارة أعدائهم، ونظم حياتهم ؛

وتخطيطات مدنهم ، وعلاقات أفرادهم . بينما كانت « الحرية » التى يتنفسها جميع الناس أعظم ما صدمهم ، بل لقد كان « الناس » أنفسهم فى هذه المدن التاريخية ، الغنية بنعمة الشمس ، والظل ، والهواء ، والحركة ، والوضوح ، أعجب ما هز مشاعرهم إنسانياً ، وما أثار فضولهم ودهشتهم .

لقد رأى المقاتلون الصليبيون ، المفلسون والمقهورون ، أن « حقوق الإنسان » الحية والمشرقة فى بلاد المسلمين « لغز » محير لهم ، ومنبع غريب ، وغامض لهذا الأمن و « الحريات » التى رأوا أن جميع الناس يتساوون بها ، فى كل حدود الكفاية للحياة الكريمة . فهم متساوون فى صفوف الصلاة ، وفى حق الحياة ، وحق الاعتقاد ، وحق التعلم ، وحق العمل ، وحق التملك ، وحق بناء الأسرة ، وحق رعاية الأبناء ، وحق العدل ، وحق التعبير ، وحق النقد ، وحق العيش اللائق ، وحق السكن المريح ، وحقوق أخرى تتفرع وتتكامل على هذه الحقوق ، مع الالتزامات المعادلة لها ، وأهمها حق « السواسية » الذى يستظل تحته الجميع .

ولئن كان الصليبيون قد رأوا فى هذه المدن العربية قصوراً باذخة بمبانيها ، وحدائقها ، للحكام والأغنياء ، فإن هذه القصور لم تكن مغلقة فى وجوه عامة الناس ، ولم تكن موضع رهبة أو رعب منهم . كما أن محدودى الدخل من الصناع والحرفيين قد وجدوا فى المجموعات السكنية

التى أقيمت لهم تحت اسم عربى قديم يعنى « الأهل » أو « الحى » وهو « الربع » ما يسعهم ليقيموا فى مجموعات من هذه الأسر ، فى مساكن متجاورة ، نظيفة ، ومستقلة حسب النظام الإسلامى بجميع مرافقها ، وتحت هذا العنوان الإنسانى والودى « الربع » أى الأهل والعشيرة ، والذى يغلق عليه باب واحد ، ويتوسطه فناء كبير مفتوح على السماء والشمس والهواء ، وحيث تطل عليه جميع هذه المساكن ، التى لم تعرف أوروبا مثيلا لها إلا فى القرن العشرين ، وفقط لبعض فئات العمال الذين يعيشون تحت نير النظام الماركسى .

هذا بينما تتوسط الفناء الكبير لهذه المجموعات السكنية ، الإنسانية بروابط سكانها ، نافورة مياه تعكس على حوضها بالليل والنهار صور وأضواء الشمس والنجوم ، بينما يلعب حولها الأطفال فى إخاء وبهجة . . ولا تزال بقايا هذه المجموعات السكنية ، الغنية بأنسانيتها ومرافقها ، وأواصر القربى بين سكانها ، وبغير « قوميسير » يتسلط على حريات من فيها — ظاهرة حتى اليوم فى كل من القاهرة ، ودمشق ، وبغداد . . فى آثار تلك « الربوع » الفاخرة والإخائية فى ظل الإسلام بها .

٤ — شهادة أوروبى عن فضل المسلمين وتسامحهم مع المسيحيين :

وحول هذه المواجهة بين العدوان الصليبى والإحسان الإسلامى خلال نحو قرنين من المعارك الوحشية ، التى شنها الأوروبيون باسم المسيحية على العرب المسلمين فوق أرضهم — يتحدث المؤرخ الهولندى

المنصف هندريك فان لون فى كتابه «قصة الجنس البشرى»، وهو يحدد صورة هذا التغير الكبير نحو الأفضل فى حياة الأوروبيين المستقبلة، وذلك تحت التأثير الواسع المدى لواقع لحضارة العربية الإسلامية فوق أرضها، وحتى بعد هدوء أضوائها، على هؤلاء الأوروبيين، وبعد عودتهم إلى بلادهم، فهو يقول :

«إن الصليبيين بدأوا قتالهم وهم يضمرون أشد البغض للمسلمين، وأعظم الحب للشعوب النصرانية فى الدولة الرومانية الشرقية، وفى أرمينية. ثم تغيرت قلوبهم تغيراً تاماً فأخذوا يحتقرون الروم فى الدولة البيزنطية، وبدأوا يقدرون خصال أعدائهم المسلمين، الذين أثبتوا أنهم ذوو مروءة، وأنهم خصوم شرفاء.. بذلك انتهت الحروب الصليبية وقد أصبحت منهجاً ثقافياً عاماً يتعلم به ملايين شباب أوروبا معنى الحضارة» ! !

٥ ـ رغم العدوان يتسامح المسلمون ويقدمون علومهم لأوروبا :

وفى شهادة أوروبية أخرى للسيدة المؤرخة الألمانية سيجريد هونكه فى كتابها الشهير «شمس الله على الغرب» تتحدث طويلا عن الحضارة العربية الإسلامية بكل حقائقها، ومقوماتها، وأخلاقها، التى تبنى مجتمع الحضارة الدائمة البقاء بذاتها، والدائمة التجدد نحو غاياتها، وهى تبدأ كتابها بإعلان الحزن والخجل، لأن أوروبا التى تدين للعرب ولحضارتهم، بدين كبير جداً، لا تعترف اليوم بفضل هؤلاء العرب المسلمين عليهم، حتى لقد أصبحت لا تجد الإشارة إلى هذا الفضل فى

أكثر من كتابين اثنين بين كل مائة كتاب ، وهى إشارة لا تتعدى الادعاء بأن عمل العرب لم يكن أكثر من مهمة « ساعى البريد » الذى نقل إليهم التراث اليونانى ! !

إن سيجريد هونكه باتساع هذا الكتاب تحذر أوروبا من مخاطر الانزلاق وراء « القوى الخفية » التى تعمل باستمرار على تثبيت الجهل بين الأوروبيين بركائز وحقائق الحضارة العربية الإسلامية ، وبإثارة العداوة نحو العرب والمسلمين ، بينما هى ترى أن العرب بالنسبة لحضارة أوروبا المعاصرة هم الرواد الحقيقيون للأبحاث التجريبية على أساس من المنهج العلمى الذى كانوا أول من عرفوا بالإسلام أول الطريق إليه ، والذى سار وراءهم فى طريقه من تأثروا بهم من الأوروبيين من أمثال طلائع العلماء روجر بيكون ، وليوناردو فينيشى ، وجاليليو . . وغيرهم . .

العرب المسلمون — كما تراهم سيجريد هونكه — هم فى التاريخ الإنسانى الصحيح مؤسسو الكيمياء التجريبية ، والطبيعة العملية ، والجبر ، والحساب بمعناه الحديث الذى نقلته أوروبا ، وحساب المثلثات الكروى ، وعلم طبقات الأرض ، وعلم الاجتماع ، وغير ذلك من العلوم والاختراعات التى سطا عليها اللصوص ، ونسبوها لأنفسهم . . !

وعن تسامح العرب مع المسيحيين الأوروبيين — رغم تتابع عدوانهم — تقدم المؤرخة الألمانية مثالا فى هذه القرون المضيئة بالحكم العربى الإسلامى لأسبانيا تحت اسم « الأندلس » لتؤكد هذه الحقيقة وهى تقول :

« لقد ظلت العقائد المسيحية قائمة طيلة ثمانية قرون تحت الحكم العربى لأسبانيا ، وإن أحداً من الحاكمين المسلمين لم يفكر فى القضاء على المسيحية أو محاربتها . كما أن مثل أسبانيا يدلنا على أن بلداً فقيراً معدماً مستعبداً فى أوروبا أصبح فى غضون مائتى عام تحت حكم العرب بلداً غنياً ، ارتفع فيه مستوى جميع طبقاته ، كما انتشر فيه التعليم ، وازدهرت الثقافة بين سائر طبقاته وشعبه ، وبفضل هذه الثقافة الرفيعة ، وتلك الحضارة المزدهرة ، أصبحت أسبانيا علمياً وفنياً أرقى من سائر الدول الأوروبية ، كما أصبحت مثلا يحتذى ، ونبعاً يقصده طلاب العلم من كل فج » .

ثم تمضى سيجريد هونكه فتقول وهى تذكر الأوروبيين بفضل الإسلام حتى على صحوة الكنيسة فى أوروبا إلى رسالتها ، وعلى النهضة العلمية فى أوروبا :

« الإسلام هو الذى أنقذ الكنيسة الأوروبية من الضياع . فلقد اضطر الإسلام الكنيسة المسيحية إلى العناية بالعلوم الأوروبية الدينية والأخلاقية ، وكل ما من شأنه تقويتها ، وشد أزرها ضد خصومها . أما المقاطعة العلمية والاقتصادية التى فرضتها أوروبا ضد العالم الإسلامى فقد عادت بأوخم العواقب على أوروبا نفسها ، وتركت أثراً سيئاً جداً على الأوروبيين لعدة قرون . بينما فى اللحظة التى قامت فيها العلاقات واستؤنفت بين الشرق والغرب أخذت أوروبا تنتعش ، ولم تكد تنهل من ينابيع العلوم العربية ، ومن فنون العرب ، ومن نظمهم الحضارية ووسائل عنايتهم الصحية والإدارية ، حتى استيقظ « الوعى الأوروبى » بعد أن ظل هذا الوعى خاملاً طوال قرون طويلة » ! . .

الحقيقة الخامسة

حقوق المرأة فى الإسلام فوق أية حقوق عرفتها المرأة فى العالم

وهكذا . . أيها الأخ الإنسان فى أوروبا ، لم يكن غريباً — وبشهادة بعض الأوروبيين المنصفين — أن تتزايد حملات الكراهية والتشهير بالإسلام ، وبالعرب وعامة المسلمين ، لقطع هذا الطريق ، المفتوح عبر التاريخ الطويل ، لاحتمالات الوفاق والتعاون بينهم وبين الأوربيين . وكان موضوع المرأة وحقوقها فى الشريعة الإسلامية ، بين العديد من مجالات الافتراء الأخرى على الإسلام ، هو الموضوع الأكثر إثارة ضد المسلمين بين أعدائهم ، وبخاصة بين من يجهلون بسبب الطمس المستمر حقائق ، ومقومات ، حضارتهم العلمية ، والأخلاقية ، والإنسانية بين الأوروبيين المعاصرين .

ولذلك نشط صناع المفتريات لتوجيه حملات التشهير بغير علم باتجاه « تعدد الزوجات » ، وحق المرأة فى الميراث وهو نصف حق الرجل كما قضى به الإسلام . ومفهوم الطهارة الأخلاقية عند المسلمين ، ومفهوم الحجاب ، وغير ذلك مما يتكلمون فيه بانقيادهم للوهم والجهل معاً ، ودون أن ينظروا مرة واحدة إلى ما تعانيه المرأة فى أوروبا من المهانة ، والتعاسة ، والابتذال ، رغم أنها تشغل فى أوروبا اليوم كثيراً من المناصب العالية ، ورغم الادعاء الشائع بأنها قد تساوت فى هذا العصر مع الرجل الأوروبى فى كل الحقوق .

١ ـ مواجهة فى أوروبا لبيان حقوق المرأة فى الإسلام :

ربما كانت أكبر أخطاء الأوروبيين ـ عنصرياً ـ أنهم لا يزالون يعيشون مناخ الاستعلاء البدائى بنسبهم الأسطورى إلى الآلهة الخرافية التى يدعون أنهم أبناؤها ، كما يدعى اليونان الأولون أنهم « الهيلينيون » أى أبناء هيلين بن ديوكاليون من زوجته بيرها ، واللذين كانا معاً المخلوقين الوحيدين اللذين أنجاهما زيوس إلاه اليونان الأعظم من الطوفان الذى أغرق فيه جميع سكان الأرض ، بعد أن أغضبوه بينما كان لا يزال جالساً يحكم فوق قمة جبل أوليمبوس !

فى مثل هذا الاستعلاء العنصرى الخرافى نرى الأوروبيين لا يلتفتون كثيراً إلى قراءة تاريخهم ، وهم لذلك يجهلون ، أو يتجاهلون ـ عندما يتعرضون للتشهير بالمسلمين وبالإسلام الذى يدعون عليه أنه حرم المرأة حقوقها ـ أن المرأة فى الهند ـ التى هى أرض هجرتهم الأولى إلى أوروبا ـ كانت تحفظ من الأساطير الباقية فى تراثها إلى اليوم أن الإله مانو فرض على النساء حين خلقهن أن يتجردن بشهواتهن من الشرف ، وأن يعشن دنسات كالشر نفسه . كما أن فى شريعته أيضاً أن تخدم الزوجة الوفية زوجها ـ الذى هو فى نفس الوقت سيدها ـ كما لو كان إلاها ! !

وأما فى بلاد اليونان ، فيجهل الأوروبيون المتحاملون على الإسلام ، أو يتجاهلون ، أن الكثيرين من مفكريهم القدماء ، وكما يقول ول ديورانت فى كتابه « حياة اليونان » ـ كانوا ينادون بأنه يجب أن يحبس اسم المرأة فى البيت كما يحبس جسمها ! . . وأن خطيبهم الشهير ديموستين

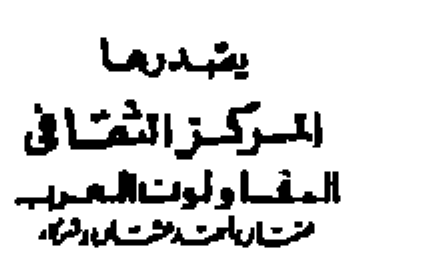
كان يحدد وظيفة المرأة فى المجتمع اليونانى القديم بهذا الترتيب المهين ، وذلك حيث يقول : « إننا نتخذ العاهرات للذة » ، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية ، ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأولاد الشرعيين » ! !

وأما عن الرومان فى عهد الجمهورية الأولى — فإننى أذكرك أيها الأخ الأوروبى المعاصر — بأنهم كانوا يعتبرون « الأنوثة » سبباً مانعاً من المسئولية ، وحق التصرف ، مثل « الجنون » وحداثة السن . . تماماً ! !

وأما فى أوروبا منذ القرن السادس عشر ، وبعد هذا العهد الطويل على ظهور المسيحية بها ، فقد ظل امتهان المرأة الأوروبية وابتذالها فى نظر الرجال هو الأمر السائد ، عند مصلح دينى مثل مارتن لوثر ، فإننا نراه فى أبشع كلمات يردد مثل كلام ديموستين عن المرأة اليونانية وهو يقول : « لقد خلق الله النساء إما زوجات . . وإما خليلات » ! !

وحتى نسمع غيره من الرؤساء الدينيين يقول : « إن الشيطان مولع بالظهور فى شكل أنثى » ! ! . . وحتى نسمع غيره يتساءل : « هل يحق للمرأة أن تعبد الله كما يعبده الرجل ؟ » . . ! !

أذكر كل هذا لأنبهك إلى مكانة المرأة الأوروبية التى لا تزال رغم الادعاء بحقوقها تستقر على الحضيض الذى كانت تتقلب فيه فى قبضة الحياة العدوانية ، والأسطورية ، والاستمتاعية ، فى المجتمع اليونانى القديم ، وأن الرجل الأوروبى هو المسئول إلى اليوم عن هذه المكانة المهينة التى لا يزال يدفع المرأة الأوروبية إليها ، ليحتفظ بوسائل ،





الاستمتاع السهل بها كيفما شاء ، بينما أعود فأعرض عليك مشهداً آخر من مشاهد المواجهة بالحوار العلمى المخلص مع أوربيين معاصرين حول مكانة المرأة فى الإسلام ، بهذه الحقوق التى لا تزال فى واقع الحياة ، وفى أركان بناء الحضارة الإنسانية ، فوق أية حقوق عرفتها امرأة غيرها فى العالم القديم . . والحديث .

كانت هذه المواجهة مع لجنة للسيدات دعيت إليها مع إخوانى أعضاء الوفد الشعبى المصرى ، خلال تلك الزيارة التى حدثتك عنها فى هذه الرسالة — لألمانيا الشرقية سنة ١٩٦٩ ، والتى قضينا فيها ثلاثة أشهر فى دراسة الهندسة الزراعية فى مجالات التعاونيات ، والميكنة الزراعية ، وغيرهما ، فى إحدى المدارس المخصصة لذلك فى قرية تويتشنتال محافظة هالة . .

كانت هذه الدعوة لنا إلى هذه الندوة مع لجنة للسيدات ، وحول موضوع محدد لها هو « المرأة فى الإسلام » واحدة من هذه الخطط الخفية التى كانت تضعها وتنفذها قيادة هذه المدرسة بالمستوى الأعلى للحزب الشيوعى ، فى محاولة مستمرة لقطع الطريق على نجاحنا فى صورتنا الإسلامية ، وسلوكنا الأخلاقى ، ولتجربة تسديد ضربة دعائية لنا ، وبخاصة فى موضوع شائك ، وملىء بالمغالطات والمفتريات والحساسيات ، وفى مواجهة فتيات وسيدات من الحزب مستضعفات لرؤسائهن ، وقد تدربن طويلا ومسبقا على الجدل المحرج فى هذه القضية الواسعة ، بقصد إيقاعنا فى الحرج الشديد . . أو العجز عن الجواب . . كما تمنوا . . !

٢ ـ قضية المساواة وتعدد الزوجات والميراث فى الإسلام :

لم نكد نأخذ موقعنا على المنصة ، وحيث بدأنا نبصر عدداً من الألمان المراقبين يجلسون بقاعة الندوة حول السيدات والفتيات الحاضرات باسم « لجنة السيدات بقرية ناوندورف » ـ حتى انطلقت الرصاصة الأولى باتجاهنا ، وذلك عندما وقفت إحدى الفتيات ـ بمجرد أن أعلن المترجم لهن عن ترحيبنا بأسئلتهن حول « حقوق المرأة فى الإسلام » ـ وأخذت تصيح بانفعال ، كالتلميذة التى تلقى قصيدة من محفوظاتها لأول مرة أمام لجنة الامتحان ، وهى تطرح اتهامها الأكبر للاسلام فى هذه الكلمات المرتعشة التى نقلها إلينا المترجم :

« إن الإسلام يحبس المرأة فى البيت ، ويمنعها من التعليم والعمل ، ولا يسوى بينها وبين الرجل فى الميراث » . . !

قلت بعد أن ساد الهدوء : « علينا أن نفرق أولا بين عمل المسلمين فى عصور الضعف والتخلف ، وهو عمل يخالف فى أكثره مصادر الإسلام التى فى أيديهم ، وبين أحكام الإسلام فى شريعته الصحيحة ، كما طبقتها المجتمعات الإسلامية الأولى بضعة قرون متوالية ، حققت بها الازدهار والتقدم بعمل حضارى مشترك بين الرجال والنساء ، لقى به الإسلام والمسلمون تقدير وإعجاب العالم المحيط بهم فى كل مكان » .

ثم قلت :

« لقد أعطى الإسلام المرأة المسلمة أكثر مما أعطيت أى امرأة فى أى نظام سبقه ، أو جاء من بعده . لقد بدأ الإسلام فنظم الحقوق التى

كانت لها فى المجتمعات العربية قبل الإسلام ، حتى يتيسر لها حمل رسالتها الجديدة مع الرجل لبناء « المجتمع المؤمن » المشرق لأول مرة على العالم بأمانة العدل القائم على شريعة الله ، والمنطلق فى تقدمه باتجاه العمران الأخلاقى ، والسلام مع كل البشر ، وهكذا تأكد للمرأة المسلمة من الحقوق الثابتة بنص القرآن حق « المساواة » للرجل فى جميع حقوق الإنسان ، ومسئولياته ، كما حددها الإسلام ، مثل حق التعلم ، وحق العمل ، وحق بناء الأسرة ، وحق التعبير ، وحق النقد ، وحق العمل السياسى ، وحق اختيار الحاكم أو الاعتراض عليه » .

ثم قلت :

« المرأة لم تكن إذن كما تصورتم « حبيسة البيت » فى المجتمع الإسلامى ، فلقد كانت ولا تزال تعمل غالباً جنباً إلى جنب مع الرجل ، الذى هو والدها أحياناً ، أو مع إخوتها ، أو مع قريب لها من محارمها مثل عمها وخالها ، أو مع زوجها . وأعمالها مع كل هؤلاء الرجال أعمال بحكم الإسلام مشروعة مثل الرعى ، والزراعة ، والتجارة ، والصناعات اليدوية الميسرة لها مثل صناعة النسيج المنزلى . على أن كل هذه الأعمال لم تكن تصرفها بعد الزواج عن واجبها الأول ، كما شرعه لها الإسلام فى شرف بناء الأسرة ، وبناء المجتمع ، وهو « الأمومة » الراعية لأطفالها ، وحضانة أبنائها فى سنواتهم الأولى قبل أن يصبحوا فى الرعاية المباشرة للأب . فبالأمومة أصبحت المرأة بنص القرآن فى مرتبة أعلى لدى المجتمع من الرجل فى مجال استحقاق بر الأبناء ، وتكريم المواطنين » .

ثم قلت :

« بهذا التكريم للأم ، والإلزام الديني بالأمومة ، تجنب المجتمع الإسلامي هذه المخاطرالتي تفاقم تعرض المجتمعات الأوروبية المعاصرة لها ، وهي مخاطر هذه « العدوانية » والنقمة على المجتمع ، والاختلال النفسي ، كما تنشأ عليها أجيال هذا العصر ، بعد أن تهشمت إنسانيتها داخل هذه « الحضانات » التي تنشأ عندكم الآن في الشرق ، كما تنشأ في الغرب ، فوق حطام الأسر ، وبعيداً عن بيوت دافئة ، وصدور أمهات حقيقية ، وذلك بعد أن سيق النساء كالأسرى والعبيد ، مبعدات بكل قسوة عن بيوتهن ، ليحملن مع الرجال — في مساواة ظالمة — أهوال الصناعات الثقيلة ، وضجيج الآلات ، واختناقات المناجم . . فهل هذا الاستعباد الذي تتحطم به الأسرة ، وتحرم به الأم من أبنائها ، وتشقى به النساء في أعمال الرجال الشاقة — هو المساواة التي حققتموها بين المرأة والرجل ، وهل هو الطريقة الأكثر تحضراً لإخراج المرأة من حقوقها وواجباتها . . حتى لا تكون حبيسة البيت ؟ ! ».

٣ — ضرورات وضوابط تعدد الزوجات في الإسلام :

ثم قلت بعد لحظة صمت يتخلله همس وترقب : « والآن فلنفتح ملف « تعدد الزوجات » . . أليس هذا الموضوع المثير واحداً من أسئلتكم ؟ » .

وارتفعت عندئذ أصوات الحاضرات مرة واحدة ، وهن يصحن من أطراف القاعة ووسطها : « نعم . . نعم . . . تعدد الزوجات » !

قلت : « فلنبدأ أولا بالتفهم والتصور لواقع هذا المجتمع القبلى الحر ، الذى ظهر فيه الإسلام أولا فى الجزيرة العربية . المجتمع الذى عاش فيه العرب على تراثهم الدينى فى قلب العالم ، أحرار الإرادة ، فى حياة متحركة وراء المطر والمرعى، أو وراء قوافلهم النشطة وهم يحملون بها تجارتهم وتجارة العالم بين أوروبا والهند . . فى هذا المجتمع الحر . . والمتحرك فى الواقع المتحرك .. عاشت القبائل والعشائر من ذوى القربى أقرب ما يمكن أن نسميه الاشتراكية الحقيقية بلغة العصر . الاشتراكية غير الوهمية ، وغير الخداعية ، وغير الحزبية كما تعيشونها أنتم اليوم . . لقد عاشوا ما كانوا يسمونه بالصدق مع الواقع حياة « المقاسمة » لخيرات الله فى الأرض والسماء . . أى خيرات المراعى الخضراء . . وعيون الماء .. ومنافع الطرق . . وما يملكون من الأغنام والإبل . . ومن أموال التجارة الواسعة . . إنهم كانوا يتقاسمون أموالهم بهذه المقاسمة الفعلية وفق درجات القربى ، وبحسب الحاجة بعد ذلك لليتيم ، وللفقير ، ولمن يسأل عن حقه المشروع فى هذه الأموال ! . »

واستأنفت قائلا : « فى هذا المجتمع كانت الطهارة الأخلاقية فى العلاقات بين الرجال والنساء شريعة نافذة بقوة التراث الدينى والقومى بين الجميع . كما كانت الحروب مفروضة على هذا المجتمع الحر ، المتطهر ، لصد عدوان أولئك الطامعين فى طرقه أو موارده أو سواحله من الفرس ، أو اليونان والرومان وغيرهم ، أو عند الاختلاف بين قبيلة وأخرى على ما هو « الحق » الذى ينبغى أن يتبعه الجميع . وعلى ذلك فقد كانت الثمرة الأولى من أوزار هذه الحروب أن يهلك

عدد كبير من المقاتلين ، وأن يزيد بذلك عدد النساء بنسبة ظاهرة على عدد الرجال . . والنتيجة القاسية إذا ما ألزمنا كل رجل بزوج «واحدة» فقط أن يحرم عدد كبير من الفتيات من حقهن فى الزواج . . وبخاصة من مات آباؤهن فى الحروب . . أى أن يحرم هؤلاء الفتيات اليتيمات وغيرهن من حق بناء الأسرة ، وإنجاب الأطفال ، وممارسة شرف وأمجاد الأمومة . . إنها نتيجة قاسية بالنسبة لهؤلاء الفتيات ، وهن قريبات لهؤلاء الرجال ، وشريكات لهم أحياناً فى العمل ، بل وقد يأوين معهم فى حى واحد ، وتحت سقف خيام متلاصقة . . فما هو الحل . . ؟ . . قلن لى ما هو الحل يا نساء المجتمع الاشتراكى فى أوروبا المعاصرة التى ذاقت كلها ويلات الحروب ؟ . . هل الحل لهن هو الدير ؟ . . أو الخطيئة ؟ . . أو الزواج الثانى ؟ ! » .

وهاصت القاعة تماماً بالضجيج ، وانقذفت الصيحات مع حركة الأذرع فى كل اتجاه ، واختلط الأمر فى لحظة ما على كثير من هؤلاء المحكومات بمحفوظات الحزب وهن يواجهن أمامهن صوت الفطرة . . وصوت الحقيقة .. وأخيراً سمعنا أصواتاً تصيح صاحباتها ضاحكات بغير اقتناع « الحب . . التحرر . التحرر » وهن يعنين بالطبع ما تحت هذا الشعار البراق بالتحرر من العبودية المذلة للمرأة ، فى واقع المشاعية الجنسية » غير الأخلاقية ، والهادمة للأسرة ! !

واستأنفت مرة أخرى بعد الهدوء لأقول : « لقد كان الحل العادل ، والعلمى ، والأخلاقى لهذه المشكلة المتعددة الجوانب ، وكما جاءت به

من الله شريعة الإسلام ، هو إباحة تعـدد الزوجات ، وفق حدود وضوابط تنظم إباحته ، وتستوعب ضروراته ، بينما تبقى هذه الإباحة ملتزمة بشرطين : الأول هو تعزيز هذا التكامل فى بناء المجتمع المؤمن بين التزام الطهارة الأخلاقية فى علاقات الرجال والنساء ، ومع استمرار قيام الرجل بمسئوليته تجاه ذوى قرباه من النساء من أجل كفالة حيـاة طاهرة لهن ومصونة عن الحاجة . . . والشرط الثانى هو أن قاعدة التعدد ما هى إلا الاستثناء الذى تفرضه الضرورات ، وتحكمه الضوابط ، بالنسبة لقاعدة الزواج الأساسية وهى : « الزوجة الواحدة » التى يكون أكثر الرجال — كما هو السائد والواقع — قد اختاروها فى زهرة شبابهم بجميع الشروط الحافظة للتعلق بها ، والوفاء لها ، حتى نهاية الحياة » .

ثم بدأت أيها الأخ الأوروبى المعاصر فى حصر الضرورات التى أباحت فى شرع الله العادل تعـدد الزوجات ، وهى بعد الزواج الأول إذا كان موفقاً ثلاث فقط . . قلت :

« والآن أحدثكن عن هذه الحالات التى تبيح التعدد بضروراتها إذا كان الزواج الأول موفقاً وهى :

أولا — زواج الرجل باليتيمة ، أو المنقطعةمن ذوى قرباه إذا كانت تعيش فى رعايته ، وهو صالح للزواج ، وذلك لتجنيبهما إذا ما نشأ الميل بينهما خطر الانحراف ، أو شقاء التعفف مع دوام الإثارة بحكم المعايشة تحت سقف واحد ، أو بيت مجاور .

ثانياً — عقم الزوجة الأولى ، حيث أن من شروط الزواج الناجح إنجاب الأبناء الذين هم الامتداد الطبيعى لآبائهم نحو المستقبل ، وكثيراً مايحدث أن تلح الزوجة العاقر على زوجها بالزواج ممن تنجب له ، وذلك إيثاراً منها له ، ورغبة فى سروره ، حتى ولو كان على حسابها بمشاركة غيرها فيه .

ثالثاً — زواج رجل حكيم يرأس أسرته الكبيرة ، أو جماعته المنتشرة ، بامرأة من الأسرة المعادية لأسرته أو جماعته ، وذلك للشروع فى إزالة الخصومة والصراعات والحروب بينهما ، وحفاظاً على مصالحهما المشتركة من الضياع والإهدار ، وبخاصة إذا نجح فى اختيار زوجته من بنات أحد الرؤساء الحكماء للجماعة المعادية . . فمثل هذا الزواج « السياسى » أو زواج المصالح المشروعة ، شرف يتحقق به — كما تحقق كثير ولا يزال يتحقق فى حكمة الله بالإسلام — إعادة السلام الضائع بين المتخاصمين الذين أنهكتهم الحروب ، ومزقتهم الأحقاد ، ليعيشوا مرة أخرى تحت أعلامه حياة الأمن والحب ، والإخاء والرخاء » .

ثم مضيت أقول :

« وهكذا يبقى أن الأصل فيما شرعه الإسلام — بعد هذه الضرورات الثلاث التى تبيح التعدد — هو : الزوجة الواحدة . . وهذا هو الأمر الغالب على حياة المسلمين فى الماضى والحاضر . . على أنه فى جميع حالات التعدد تبقى للمجتمع المحيط بالزوجين قدرات وواجبات الإصلاح بينهما ، وتبقى للمرأة والرجل معاً بالتساوى إرادتهما الحرة فى إنهاء

الحياة الزوجية بالطريق الذى شرعه الإسلام عند الضرورة القصوى وهو الطلاق . . وذلك عند استنفاد جميع وسائل التدخل والتحكيم من المجتمع القريب إليهما لإصلاح ما بينهما . . إن الطلاق إذن – عند الضرورة القصوى – هو برغم قسوته « عدل » شرعه الإسلام ليتفادى الزوجان اللذان أخطآ التقدير عندما قبلا الزواج – ما هو أقسى من الطلاق ، لو أنهما احتملا ما قد يفرض عليهما بالإكراه أن يستمرا معاً فى ممارسة هذه الحياة الزوجية التى تبيح اتحادهما الجسدى والنفسى ، رغم ما أثبتته التجربة فى خلواتهما من فقدان شرط التكافؤ ، ومن وضوح التنافر فى الطباع والقدرات ، والثقافات والآمال ، بما يقطع باستحالة هذا الاتحاد أو التوحد ، الذى يتحول به رجل وامرأة بالزوجية الموفقة المتكافئة من اثنين إلى واحد . . « الطلاق » فى مثل هذه الحالة هو المعادل للحرية بديلا من العبودية . . . وللخلاص المشروع بديلا من هلاك غير مشروع . . وللأمل الجديد فى شروق فجر جديد بدلا من إطباق الظلمة بأثقال واقع أليم لانهاية له » .

٤ – المرأة ترث مثل الرجل أو أكثر فى الإسلام :

وأخيراً أيها الأخ الأوروبى جاء دور السؤال عن ميراث المرأة فى الإسلام على لسان هذه المرأة الأوروبية المعاصرة – فى قرية ناوندورف بألمانيا الشرقية وأمثالها – وهى التى لم ترث طوال خمسة وعشرين قرناً – منذ اليونان الأوائل – غير الإهمال والابتذال ، والتى عاشت تقدم القرابين المتنوعة للرجل الأوربى القاسى الذى استعبدها ، فهى تتقدم

له بالبائنة ، أو ما نسميه الصداق ، أو ما تسمونه dot ، حتى إذا ما تزوجها أصبحت هى وكل ما تملكه ملكا لزوجها . . ولقد جاء بهذا السؤال دور المقارنة . . وفى الجواب عنه . . أى عن ميراث المرأة فى الإسلام قلت :

« وعندما نجيء إلى قضية ميراث المرأة كما اقتضاه عدل الله فى الإسلام فإن على المستمعات فى هذه الندوة أن يتذكرن ما سبق أن أشرت إليه من الحقائق الآتية :

أولا — ما فرضه الإسلام على الرجال من رعاية ذوى القربى من أهليهم ، وبخاصة من النساء ، ابتداء من الام والأخوات ، والعمات والخالات ، وكل من لهن معهم شركة فى الميراث ، و هى رعاية تصل إلى حد كفاية العيش الكريم لهن ، إذا ما ألمت بإحداهن ضائقة ، وهى رعاية تمتد بمظاهر المودة ، وبخاصة لأخوات الرجل ، حتى فى بيوت أزواجهن ، مما يضع قدراً غير قليل من الأعباء الاقتصادية على كاهل الرجل تجاه هذا الواجب الشرعى والمشروع نحو ذوات القربى .

ثانياً — المرأة فى الإسلام تملك حق التصرف فى مالها بعد الزواج بكامل إرادتها ، وبعيداً عن إرادة الزوج ، ما لم تنحرف بتصرفها عن المشروع الذى يحله الله ، وما لم تأذن له بمشاركتها فى القليل أو الكثير من مالها باختيارها ، ذلك أن النفقة فى بيت الزوجية هى فى شرع الإسلام فريضة على الزوج نحو زوجته وأبنائه .

ثالثاً — فى حالة عمل المرأة فى الأعمال التى يبيحها لها الإسلام ،

وبموافقة زوجها ووالديها ، فإن دخلها من هذا العمل يكون خالصاً لها ، وليس لزوجها ، الذى لا حق له فى مالها إلا برضاها » .

ثم قلت « الواضح من هذا أن المرأة المسلمة حين ترث عن أبويها بشريعة الإسلام نصف ما يرثه أخوها ، إنما ترث قدرا من المال لا مسئولية فيه عليها لأحد ، بينما هى تستمتع بمال زوجها المكلف إسلاميا بالإنفاق بمستوى ما يملكه عليها ، وبينما هى فى نفس الوقت تستمتع بالكثير أو القليل من مال أخيها ، أو إخوتها ، بمالها عليهم بالشريعة من حق مداومة الرعاية ، وبخاصة عندما يكون أخوها ملزماً بكفالة مطالبها ، وإيوائها ، إذا ما غاضبها زوجها ، أو طلقها ، أومات عنها وكان فقيراً ، وكانت هى أيضاً فقيرة ، وحيث يصبح بيت أخيها عندئذ هو البيت الذى يتسع لأيوائها هى وأطفالها ، مع الإنفاق عليهم تماما كما ينفق على زوجته وأبنائه . والأمثلة على ذلك كثيرة وحية فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، حتى مع ضعف وتخلف المسلمين عما كانوا عليه » .

٥ ــ الحريم بدعة جاء بها غرباء عن العرب وأقرباء للأوروبيين :

ثم قلت أخيراً فى قضية الميراث : « المرأة إذن فى عدالة الإسلام وافية الحق فى الميراث عندما فرض الله لها نصف ما فرضه للرجل ، ذلك أنها ترث على التحقيق ، فى جملة فضائل الشريعة الإسلامية ، أكثر مما يرث أخوها بالحساب الدقيق ، أو على الأقل ــ وفى أكثر الحالات ــ تتساوى معه فيما يصل إلى يدها ، بهذه القسمة العادلة التى قضى الله بها

فى بناء « المجتمع المؤمن » بهذا الدين ، المستقر بالإيمان والعلم ، والذى تمتد أواصر القربى فيه بالسلام والحب ، وبالسواسية والعدل ، وبالبذل والإيثار ، لتحفظ وحدة ونماء هذا المجتمع الحى والمتماسك إلى أبعد مدى من التراحم الإنسانى الشامل ، فى حضارته التى أشرقت بأعظم أسوتها على العالم بما لم يسبق له مثيل » .

وهنا قلت وقد ظننت بعد كل هذا التلطف فى الشرح والتقريب ، وبعد أن بدا أن سكرات خمر السفسطة الجدلية ، والمحفوظة بالتلقين ، قد تبخرت بعد هذا الحوار المخلص مع الحاضرات ، وقد تغيرت نحو واقع مختلف بصدقه — نظرات أعينهن ، وذبذبات أصواتهن . . هنا قلت وقد تملكت أكثر السيدات والفتيات لحظة غياب هائمة عن واقعهن ، ولحظة حضور واستحضار لواقع مشرق غريب . . قلت : « هل بقيت لديكن أسئلة أخرى ؟ » .

عندئذ وقفت سيدة صغيرة السن لتقول على استحياء وهى تضحك لتدارى ما أخذ يدهمها لأول مرة من الخجل : « أخبرنا . . بالصدق . . هل لا يزال نظام الحريم سائداً عندكم فى مصر ! ؟ » .

ولم يكد ينتهى المترجم من نقل هذا السؤال حتى أخذت أجمع أوراقى لأستعد مع زملائى للانصراف ، بينما أتم حديثى بأقصى ما أستطيعه من إظهار العطف فى كلماتى عليهن ، مع الأسف والحزن أيضاً لما يعشنه داخل الأضواء الزائفة من الأخبار المكذوبة ، والمضللة ، عن بلد لا يزال يضىء فى قلب العالم القديم ، باتجاه العالم الجديد ، بما لا يزال

يملكه ، وما يجاهد لتمام الالتزام به ، والاستثمار له ، من مقومات حضارته العربية الإسلامية ، وهو بلدنا مصر . .

قلت فى آخر كلماتى المشفقة عليهن :

« إن مفهوم « الحريم » سائد الآن . . حقاً . . وتحت شعار « التحرر ». وباتساع « اللامكان » أى ليس له مكان واحد ، أو قصر واحد . . وهذا فى جميع النظم الأوروبية المعاصرة . . شرقاً وغرباً . . أما « الحريم » الذى نسبه الأوروبيون ظلماً إلى الإسلام والمسلمين فأصله أوروبى أيضاً . . إسمعوا . . إن المسلمين لم يعرفوا هذا « الحريم » أى هذا الاصطلاح الدال على « اقتناء » عدد كبير من النساء ، يجمعهن بالسرقة والاختطاف والقسر رجل من ذوى السلطة العسكرية غير الشرعية ، ليستمتع بهن فى مكان واحد هو قصره ، أو حصنه — إلا على أيدى جماعات من الشعوب الآرية التى دخلت فى الإسلام وفى جوفها الكثير من خصائصها ومعتقداتها الإباحية القديمة . وعندما حكم « الأتراك » العرب مثلا ، وهم شعوب تلتقى مع الأوروبيين فى جذور واحدة ، نهبوا أموالهم ، وأسقطوا الحكم الشرعى بينهم ، واستباحوا فى قتالهم المستمر وراء السلطة والمتعة أن يجمعوا العبيد من الرجال والنساء من كل مكان ، وذلك ليخزنوهم فى هذا « الحريم » أو « قصر اللذة » المحرم على غير صاحبه ، والذى أصبح حقيقة واقعة طوال حياتهم السوداء ، هذه الحياة التى لم تكن تعرف إلا القتل . . والنهب . . والمتعة . . » !

ثم قلت وأنا أقف للانصراف : « إن التاريخ الصحيح يشهد بأن

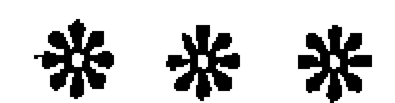
المصريين — وغيرهم من الشعوب العربية — لم يكونوا فى عهد المماليك والأتراك يعرفون ، بأية صورة من الصور ، جريمة هـذا « الحريم » . . وعندما حكم محمد على مصر ، وهو لم يكن فى حقيقته إلا مغامراً أوروبياً وضع على رأسه عمامة المسلمين ليخدعهم — فقد بدأ استئناف هذه الجريمة فى قصوره ، وقصور أبنائه . . ويكفى أن أذكر لكن أنه قد كان فى قصر الخديو إسماعيل الذى تم خلعه سنة ١٨٧٩ ما بلغ عدده داخـل « الحريم » المخصص لمتاعه ٤٥٠ جارية سوداء وبيضاء . . هذا عدا ٤٠٠ جارية بيضاء زوجهن من قبل من عدد من حاشيته ، أو من بعض أغنياء الريف من المصريين ليقربهم إليه . . » !

ثم رفعت يدى بالتحية . . ورفعت صوتى وأنا أقول لهن فى سـلام الختام :

« أما اليوم . . فقد تم إلى الأبد إغلاق هذه « المعتقلات » النسوية . . . التركية . . الأوروبية . . ألسنا نستحق التهنئة منكن على ذلك ! ؟ » .

وانصرفت مع زملائى نحمد الله — مستبشرين — على نجاح مثل هـذا التقريب ، والتقارب ، والوفاق فى الفهم . . وفى ضوء حقائق الإسلام . . مع مجموعة أوروبية من البشر ، تلقنت الباطل قهرا عنها ، فى واحد من نظم حضارتكم المعاصرة أيها الأخ الأوروبى ، لكى تعادى الإسلام ، وتكره المسلمين ، من غير حجة أو برهان . . بينما كان

المترجم ينقل إلينا صدى أصوات هؤلاء السيدات البائسات ، الممسوخات ، وهن يقفن بتثاقل لينصرفن ، بينما يلوحن بأيديهن لتحيتنا . . وهن يقلن باسمات مبتهجات ، أو نصف مبتهجات . . « نعم نعم . . حسناً حسناً » . . رداً على الاستفهام الأخير . . ودلالة على بداية أعباء الفهم . . مع أول تباشير النور .



خاتمة الرسالة

وإذا سألتمونا اليوم لماذا تخلفتم عنا رغم الإسلام . . قلنا لكم :

١ – إننا ننسى الحذر وأنتم لا تنسون العدوان :

والآن . . إن لك بعد كل هذا أن تسألني ، وأن تسأل المسلمين معى – أيها الأخ الإنسان فى أوروبا – عن أسباب تخلف المسلمين فى هذا العصر عن الأوربيين ، مع أن الإسلام لا يزال حياً فى مصادرهم ، وفى بقية باقية منه يستمسكون بها لتجديد وتطوير حياتهم . . إذا ما كان الذى شرحته لك ، ونقلته إليك – فى هذه الرسالة – صحيحاً تماماً . . !

والجواب أيها الأخ أننا تخلفنا عنكم ، رغم قدراتنا الكاملة على التقدم . . بل رغم أننا – ورغم تجاهلكم – أصل ما أنتم فيه اليوم من التقدم ، بل ورغم أننا نملك من سلامة العقيدة ، ومن المنهج العلمى ، ومن وفرة الموارد ، ما يحقق السبق فى هذا العصر إلى التقدم . . إننا لازلنا متخلفين فى بعض المجالات العلمية والصناعية عنكم ، ولكن أكثر أسباب هذا التخلف ترجع إليكم أنتم قبل غيركم . . إنها ترجع إلى مرحلة هذا الاستعمار العسكرى الأوروبى منذ بداية القرن التاسع عشر . . ثم إلى هذه المرحلة العدوانية التالية ، التى جاءت – بعد ذلك الاستعمار السافر – بخطط ووسائل هذا « الغزو الفكرى » الأيديولوجى بمذاهب الشرق والغرب ، والذى تستهدف به أوروبا بكل مذاهبها

سد الطرق على صحوة العرب ، والمسلمين ، فى ضوء مقوماتهم ، وسوقهم منومين بالاستهواء ، أو مستسلمين للارهاب ، عبيداً تحت أسماء مختلفة . . للشرق أو للغرب !

ويكفى أن أذكرك أيها الأخ الأوروبى فى ختام هذه الرسالة بالقليل من خطايا وأوزار الاستعمار الأوروبى ، الذى لا يزال مده مستمراً وظاهراً فى مثل ما يجرى اليوم من غزو أفغانستان . . وما جرى قبل من غـزو فلسطين . .

ــ إننى أذكرك بما صنعته هولندا بملايينها القليلة من غزو نحو مائة مليون مسلم فى أندونيسيا ، ثم قيام الغزاة بمحاولات كثيرة لإذلالهم ، وتمزيقهم ، وتجهيلهم ، وتنصيرهم . . بعد أن نهبوا مواردهم . .

ــ وأذكرك بما صنعته إنجلترا فى الهند ، وهى تدفع بمئات الملايين فوق أرضها الغنية إلى الجوع ، وتثير الحروب الطائفية بها بين الهندوس والمسلمين ، وتفرض اللغة الإنجليزية على الجميع . .

ــ وأذكرك بما لا ننساه أيضاً فى مصر ، وهو ما صنعته إنجلترا منذ احتلت بلادنا ، وهى تقضى على ثورة تحررها سنة ١٨٨٢ ، ليكون أول نشاطها موجهاً ضد الإسلام ، وذلك بإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية ، التى لم ينقطع العمل بها فى مصر منذ القرن السابع الميلادى ، لكى تفرض القوانين الأوروبية ، الرومانية الأصل ، والتى لم تحقق شيئاً يذكر فى بلادها . كما سارع الإنجليز لكى يطفئوا منارة التعليم الشامل للدين والدنيا ، أى للشريعة وعلوم الحياة النظرية ، والعملية ، كما وجدوها متكاملة فى

الأزهر ، وذلك ليعزلوا الدين عن الحياة ، وليخططوا لنوع من التعليم المدنى المتخلف ، والقاصر على تخريج موظفين لخدمة المستعمر ، وذلك فى كليات الجامعة التى سيطروا عليها ، ووضعوا مناهجها . .

— ثم أذكرك بما صنعته إنجلترا أيضاً فى فلسطين وسيناء ، وهى تؤسس لهذه المشكلة التى تفاقمت بقيام دولة « إسرائيل » بسكان مهجرين إليها من أوروبا على أسس صهيونية ، عنصرية ، توسعية ، تهدد استقلال كل العرب ، بل وتهدد أمن العالم كله — كما يجرى اليوم — بعد أن أصبح من الصعب اقتلاع هذه الأحلام التوسعية من رؤوس قادة إسرائيل . .

— وكما أذكرك بما صنعته فرنسا فى المغرب ، والجزائر ، وسورية ، وهى تنفذ مع احتلالها العسكرى نفس المخطط الإنجليزى بمحاولات متعسفة للقضاء على لغتهم العربية ، وعقيدتهم الإسلامية ، ليصبحوا فى أسر الاستعمار خدماً فرنسيين لفرنسا ، بعد أن مسخت بشريتهم ، وحاولت اقتلاع جذورهم فى الجنس واللغة والدين . . تماماً ! !

حقاً . . لقد تخلصت أكثر بلادنا العربية من أكثر هذه الضربات الاستعمارية العدوانية ، وبعد أن دفعت لتحررها أثماناً غالية من الأنفس والأموال والوقت . . ولكن خطط هذا الغزو الفكرى ، والسياسى ، والاقتصادى ، فى مرحلة ما بعد الاستعمار العسكرى لا تزال مستمرة . . نعم . . لا تزال حرب الكراهية للاسلام والمسلمين تتجدد . . مع هذه النظرة العنصرية البغيضة من الأعلى إلى الأدنى . . من السيد الآرى

الأبيض ، الذى لا يزال وسط أسلحته المتطورة فى هذا العصر ، ومخترعاته المتنوعة للدمار الشامل — بعيداً عن أن ينسى أنه « توهم » يوماً أنه ابن آلهة الأساطير . . !

وهكذا ترى أيها الأخ أننا مع انفتاحنا عليكم ، ورغم كثرة ما أصابنا منكم ، لازلنا نصفح وننسى الحذر فى معاملتكم، بينما أنتم مع شدة حاجتكم إلى صداقتنا ، ومعاوناتنا ، وبخاصة فى هذا المأزق الحضارى الذى يهدد بدمار عالمى وشيك — لا تنسون . . إلا قلة منصفة منكم . . فكرة خصومتنا . . وخطط متابعة العدوان المتوارث علينا . . !

٢ — والآن مثلا هل حولتم اللاسامية . . إلى معاداة للاسلام :

نعم . . لقد عاشت أوروبا طويلا تكره وتضطهد وتحارب من أسمتهم بالساميين ، وذلك عندما كان الساميون الظاهرون فى العالم بشعوبهم ، ونظمهم ، وحضاراتهم ، هم العرب . ولكن عندما بدأ فى ألمانيا النازية هذا الاضطهاد المحموم لليهود لأول مرة ، تغير الموقف فجأة ، وظهر هذا الاصطلاح الذى يستنكر للمرة الأولى وقوع الاضطهاد على « الساميين » . . إذا ما كان هؤلاء الساميون هم يهود أوروبا ، وذلك بظهور هذا الاصطلاح الذى يستنكر ويستبشع هذه الجريمة وهو الاصطلاح بتهمة العداء للسامية antisémitic . . .

ولكن العرب — وهم الغالبية العظمى لهؤلاء الساميين ، إذا صحت التسمية ، قد اتسعت صدورهم ، وبمبادرة من مصر العربية لمحاولة إقامة

السلام بشروطه العادلة مع « إسرائيل » بمفهوم دولة غير عنصرية ، وغير صهيونية ، وغير توسعية ، ليهود أوروبا ، وعلى مساحة كافية لهم فوق أرض فلسطين ، ودون المساس بحقوق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم المستقلة ومعها القدس الشرقية فوق أرض الضفة الغربية وغزة بفلسطين . . فهل تبقى وتستمر مع ذلك مواقف خصومة أكثر الأوربيين للاسلام ، وللعرب المسلمين . . ؟

وهل تصر هذه الكثرة من الأوروبيين على أن تجرد اصطلاح المعاداة للسامية من مفهومه الشامل للعرب واليهود معاً ، حتى يبقى الاستنكار لهذه المعاداة الظالمة مقصوراً على اليهود فقط ، لتبقى إباحة هذه المعاداة موجهة للعرب المسلمين . . وبغير استنكار ؟ !

أفلا يخشى المستسلمون للقوى الخفية فى أوروبا أنهم يدفعون العرب والمسلمين بذلك إلى أن يرفعوا فيما بينهم ، وفى وجه الأوربيين ، شعار الاستنكار لهذه المعاداة تحت اصطلاح جديد هو « المعاداة للإسلام » أى anti-islamic . . أليس هذا أمراً مؤلماً . . وخطراً يهدد بانفجار العالم ؟ .

٣ ـ أعطاكم المسلمون الكثير وعليكم أن تعطوهم الأكثر :

إننى أعود فأذكرك مرة أخرى ـ أيها الأخ الأوربى ـ بهذا العطاء العلمى ، والحضارى الذى قدمه العرب المسلمون لأوروبا ، وبغير إكراه ، فى الكثير من عصورها . . لقد قدموا إليها أعظم شىء كما ذكرت وهو « حقوق الإنسان » التى لم تستطع أوروبا ، وبعد أربعة عشر قرناً

من إشراق هذه الحقوق على أفق الإسلام أن تستوعبها بالتنفيذ حتى اليوم . . كما قدموا لها مع هدية التغيير الفكرى الشامل بالمنهج العلمى التجريبي — أصغر شيء ثمين كانت ستظل أوروبا لولا العرب المسلمون عاجزة عن فهمه . . لقد قدموا لها — مثلا — وهم يعلمونها الحساب — بعد الطب ، والكيمياء ، والجبر ، وحساب المثلثات ، واللوغاريتمات — هذا الاختراع العربى الفريد فى دعم وتقويم حركة الأرقام فى عمليات الحساب وغيرها بين الرقم واحد إلى ما لا نهاية . . وأعنى به هذا « الصفر » . . أو كما تنطقونه بلغة العرب zéro . . . ومعناه فى لغتهم : « لاشيء » .. ومن هذا « اللاشيء » أصبحتم الآن سادة العلوم التكنولوجية ، وانحلت فى حياتكم البدائية أعظم مشكلات الحساب ، الذى كنتم أمام معضلاته الأولى « تحت الصفر » . . والذى لا يزال الكثير من بدائيتكم فيه باقياً إلى اليوم فى نطقكم للأرقام ، وبخاصة فى اللغة الفرنسية ، وحيث لا يزال الفرنسيون حين يعبرون عن الرقم ٩٣ مثلا يقولون بطريقة بالغة السذاجة ولا شك : كاترفان تريز . . أى عندما نترجمها إلى أية لغة : أربع عشرينات ثلاثة عشر . . ! !

٤ — وقدم لكم العرب أخلاقهم الدينية فى الفروسية :

والآن أعود فأذكرك مرة أخرى — فى ختام رسالتى إليك — بهذا العهد الذى أضاء قليلا فى تاريخ أوروبا ، ببعض الأخلاق الدينية فى هذه « الفروسية » التى كانت بعض سمات الحضارة العربية الإسلامية ، والتى حاولتم فى فترة مضيئة من تاريخكم أن تنقلوا أخلاقها وتقاليدها إلى حياتكم

هذه الفروسية التى تأثر بها الأوربيون منذ أول اتصالهم بالعرب فى أسبانيا — الأندلس — أو بعد الحروب الصليبية ، منحت عدداً من الأوروبيين الصفوة والنبلاء هذا التفتح والازدهار بمشاعر جديدة ، تجاه كلمات ومعان وأخلاق جديدة ، مثل المروءة ، والشرف ، ومثل الالتزام بالواجب ، والوفاء بالعهد ولو ببذل الحياة ، ومثل حماية المرأة والضعيف ، والنظر إلى « الحب » نظرة أطهر ترتفع فوق « مشاعية الجنس » أو التحرر بهذا المفهوم ، فى الشعارات الأوروبية القديمة والمعاصرة . . !

ومن البداية فإن الأوروبيين لم يحاولوا إخفاء المصدر الذى نقلوا عنه هذه الأخلاق الأقرب بواجباتها وطهرها إلى الوصايا الدينية ، وهو المصدر العربى ، فأطلقوا الكلمة العربية وهى « الخيالة » أو « راكبو الخيل » ، على مدلول هذه « الفروسية » عندهم ، فقالوا فى الفرنسية chevalerie أى « خيالة » بأقرب ما يكون من النطق الأوروبى إلى النطق العربى ، وهى مأخوذة من كلمة cheval بمعنى « خيل » بالعربية . . وكذلك كانت بالإنجليزية من نفس المصدر العربى ، وبطريقة النطق عند الإنجليز cavalry — أى فروسية . . أو خيالة . . .

عن هذا العطاء العربى الإسلامى الوافر للأوروبيين فى مجال أخلاق ، وتقاليد ، وفضائل الفروسية العربية بكل أمجادها فى التاريخ العربى الدينى قبل الإسلام وبعد الإسلام — كتب أحد المثقفين العرب وهو الأديب المصرى المسيحى : واصف بطرس غالى كتابه الفاخر « الفروسية عند

العرب » والذى أصدره بالفرنسية التى يتقنها فى سنة ١٩١٦ ، وذلك ليقدمه — فى ضوء كضوء هذه الرسالة فى سنة ١٩٨٠ — هدية وذكرى إلى الأوروبيين ، ينبههم ويذكرهم بها إلى سوابق فضل العرب عليهم ، ويدافع — وهو المسيحى المخلص لعقيدته — عن هذه الحضارة العربية الإسلامية التى يشهد بفضلها ، وفى صورة من صورها التى تأثر الأوربيون بمكارم أخلاقها فى فترة مضيئة ، وغير بعيدة من تاريخهم ، هى « الفروسية العربية » .

فى هذا الكتاب يبدأ المؤلف المصرى بتذكير الأوربيين والفرنسيين يقول جول ليمتر عن أصل الفروسية :

« من الطريف أن يكون الشعر العربى ، أثناء الحروب الصليبية ، قد أدى — ولست أدرى بأى تأثير خفى — إلى تكوين المثل الأخلاقى لفرسان فرنسا » .

وفى هذا الكتاب يبدأ المؤلف فى سياق تذكير الأوربيين بجوهر الإسلام — بالحديث عن سماحة المسلمين مع المسيحيين بعد دخولهم أسبانيا وحكمهم لها ، فيقرر أن المسيحيين ، أو الفرنجة كما كان العرب يسمونهم : « لم يلبثوا حتى فهموا حقيقة الإسلام ، وعرفوا فى المسلمين شعوباً تفوقهم تحضراً » .

ثم يعود فيؤكد هذا المعنى على لسان الكاتب الفرنسى فورييل الذى يقول : « إنه من الوقائع التى بلغت من التأكيد مبلغاً يسترعى الانتباه ذلك النوع من الود والألفة الاجتماعية الذى نشأ منذ وقت مبكر بين

العرب وأهل أسبانيا، بما لم تزده الأيام إلا نمواً ، وتلك السماحة التى لان بها المسيحيون للمسلمين فاعتادوا كريم طباعهم ، ونقلوا عنهم لغتهم ، وآداب عيشهم ، بل ونهج تفكيرهم » .

ثم يقول المؤلف مرة أخرى على لسان فورييل : « إن هناك ما يدعونا للحكم بأن العرب الأندلسيين أثروا بما ضربوه من أمثلة حياتهم تأثيراً فعالا فى الحضارة الأخلاقية والاجتماعية التى انتشرت فى جنوب فرنسا ، ولاسيما ذلك الجانب المسيطر والمتميز من تلك الحضارة ، والذى يختص بمبادىء الفرسان ، وآدابهم ، ونظمهم » .

ثم يقدم المؤلف العربى المصرى واصف بطرس غالى دليلا على هذا الفرق الواسع — كما شرحه فى كتابه أو رسالته إلى أوروبا — بين أخلاق العرب بانتمائهم إلى الإسلام ، وبين أخلاق الأوروبيين . إذا ما قرروا الانتماء إلى مفاهيم الحضارة اليونانية والرومانية ، وذلك من واقع تلك المواجهة القاسية بين الصليبيين الأوربيين والعرب المسلمين فى الحروب الصليبية ، وفى هذا المعنى نجده فى إخلاص وصدق يقول :

« ولعلنا حين نقابل بين ما اقترفه ريتشارد قلب الأسد عندما دفعه الجبن إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا سنة ١١٩١ رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحريتهم — بما فعله صلاح الدين عندما دخل بيت المقدس سنه ١١٨٧ ، حيث لم يقنع بمنح أهل المدينة التى استردها حياتهم ، وحريتهم ، بل أمر بتوزيع الإعانات والهبات على المعوزين

من المسيحيين — لقلنا حين نعقد هذه المقارنة إننا نرى مثلا واضحاً مما نريد أن نوضحه مع المؤرخين جميعاً . وقلنا أيضاً إنه لا حاجة لكل من درسوا تاريخ الحروب الصليبية إلى من يعرفهم أن جميع محامد الحضارة ، من علو النفس ، والتسامح ، والمروءة الحقيقية ، والأدب ، وكرم الضيافة ، والرعاية لحرمة النساء ، بل ولحرمة أقلهن شأناً — كانت فى أثناء تلك الملاحم — إلى جانب العرب » ! !

٥ — خطوة شجاعة من أجل الوطن الفلسطينى وإقرار السلام :

والآن فى ختام رسالتى إليك .. رسالتى عن جوهر ومستقبل الإسلام — كما عنيت بأن أكتبها بكل الصدق ومع الإيجاز لك .. أيها الأخ الإنسان و الصديق فى أوروبا .. فى كل مكان .. وكيفما كان .. الآن أقول لك هل استفاد الأوروبيون شيئاً نافعاً لهم اليوم من كل أحداث الماضى ، ودروس التاريخ ؟ .. أم هل مع ضجيج الآلات والمحركات .. ومع المخدر الذى لابد أن يتعاطاه المسافر إلى الفضاء .. ومع ارتفاع معدلات الأمراض النفسية من العصاب ، والذهان ، والبارانويا ، وأسماء أخرى يصعب تتبعها .. ثم مع عقارات الهلوسة للخروج باليأس وبالاختلال من هذه الأمراض .. هل بسبب هذا كله طرحتم ونبذتم أخلاق « الفرسان » كما حاول المسلمون أن يعلموها لكم .. ! ؟

هل نسيتم نشوات العطاء .. والوفاء .. والتسامح .. والمروءة الصادقة .. ورعاية العهد ؟

هل عدتم مرة أخرى ، وباندفاع أشد ، إلى تأسيس حضارتكم المعاصرة — فيما بعد الحرب العالمية الثانية — على مفاهيم اليونان والرومان القديمة ، ولكن فوق هذه الأركان الأربعة من مخترعاتكم الفلسفية ، والمذهبية الحديثة . . وهى :

أولا — نظرية تشارلس دارون فى تفسير الكون ، وبدء الحياة ، ونظام التطور ، على أساس نفى الخالق .. !

ثانياً — نظريات سيجموند فرويد « العصابية » عن التحليل النفسى ، الذى يعالل به النشاط البشرى ، وحركة الشعور واللاشعور ، وأمراض النفس والعقل — انطلاقاً من مصدر أول ، وأساسى ، ووحيد هو : « الجنس » . . !

ثالثاً — نظرية كارل ماركس فى التفسير المادى والتاريخى للحياة تفسيراً غير علمى ، وراء قناع جدلى من التفسير غير العلمى ، الذى ينفى به الخالق ، والأخلاق ، ويرفع به شعارات الإلحاد ، ويعمم لا أخلاقيات الإلحاد . . !

رابعاً — نظرية جون ديوى الفيلسوف الأمريكى حول سلطان المنفعة ، ولا أخلاقيات المنفعة ، وهى النظرية التى أعاد بها فى صياغة عصرية نظرية ميكافيللى عن « الوسيلة » التى تبررها « الغاية » ، وذلك حيث يقرر ديوى أن « كل ما له قيمة أو ما هو نافع فهو صادق » . وكما يقرر بصورة أخرى للتأكيد : « الصادق هو ما يفيد » . . ! !

هل حدث هذا حقاً . . أيها الصديق .. فالكارثة لأوروبا والعالم

إذن على الأبواب . . أم إن أملا ما لا يزال هناك قبل اللحظات الأخيرة . .
فما هو ؟ !

إننا حقاً – وعلى سبيل المثال – أمام واحد من التطبيقات على مذهب المنفعة – نأسف لما يقع للرهائن الأمريكيين من العذاب النفسى فى قبضة السلطة الجديدة فى إيران ، وباسم الإسلام الذى لا شك أن له فى معالجة مثل هذه الأزمة منهجا واضحاً ، وعاجلا ، ومختلفاً . . ولكننا نأسف ، بل نحزن أكثر وأكثر ونحن نتحرك لنعترض ونقاوم ، إذا ما قارنا ما يقع منذ أكثر من ثلاثين عاما على هؤلاء البشر الأبرياء من العرب المسلمين من الفلسطينيين ، ومن بقاياهم اليوم فوق أرض فلسطين ، وهم يعانون من تصاعد مخطط الطرد لهم من وطنهم ، ويواجهون اليوم رغم معاهدة السلام – عذابات حياتهم « رهائن » مخطط الاقتلاع من حق الحياة ، ولو فى جزء من وطنهم القديم منذ فجر التاريخ . . نعم إذا قارنا ما يقع للملايين من هذه الرهائن من الفلسطينيين الذين يموتون كل يوم برصاص جيش إسرائيل ، تحت سمع العالم المتحضر فى أوروبا وأمريكا وبصره . . بما يتعرض له نحو ٥٠ مواطنا أمريكياً فى إيران جرفتهم إلى دوامة هذه الأزمة قضايا حقيقية لا تزال ناشبة بين إيران بعد ثورتها ، وبين أمريكا ، وهى كلها قضايا تملك أمريكا إذا تخلت عن استعلائها أن تحلها ، وأن تفك رهائنها ، فى بضع ساعات . . !

إننا نأسف كثيراً أيها الأخ والصديق الأوروبى لهذا الخلل المتزايد فى مقاييس وموازين العدل لدى أكثر الدول الأوروبية ، وهى فى قمة

قوتها التى تفضل أن تبطش بها . . وعلى حافة الهاوية التى لا تريد أن تتجنب الانزلاق إليها . . !

ــ إننا مع الأسى والألم .. وأيضاً مع إيثار الصفح والنسيان . . نأمل أن تفيق أوروبا وتتحد ، من أجل أعمال جادة ، وأخلاقية، تتغذبها حياة « حضارتها » . . وأن تحتفظ بأعظم ما يمكن أن يبقى من قوة هذه الحضارة لها . وذلك لكى تنزع فتيل دمار العالم من يد إسرائيل . . ولكى تنتزع حق هؤلاء « الرهائن » الفلسطينيين داخل فلسطين ، وخارج فلسطين ، فى وطن قومى ، ومستقل ، لهم على أرضهم فلسطين . .

ــ وفى أن تبقى القدس الشرقية حقاً ثابتاً لأصحابها العرب ، كما كانت منذ فجر التاريخ عربية ، وكما عاشت فى حماية الإسلام والمسلمين عربية . .

ــ وأن تعود جميع الأراضى العربية المحتلة إلى أصحابها العرب ، كما كانت قبل احتلال إسرائيل لها سنة ١٩٦٧ .

بهذا أيها الأخ الأوروبى الصديق ينفتح الطريق واسعاً أمام هذا « الوفاق المنشود » بين الأوروبيين وبين الإسلام والمسلمين . . كما أدعو إليه جميع العقلاء والمنصفين فى أوروبا بهذه الرسالة . . والذى تحقق لك من رسالتى أنه وفاق مسبوق فى التاريخ . . وأنه يملك كما شرحت لك كل احتمالات الألفة ، والسلام ، والرخاء لأوروبا . .

بقدر ما يستطيع منصف مثلك ، بعيد الرؤية ، وصحيح التقدير ، أن يشرح هذا الأمل لهم . . وأن يقربه إليهم . .

٦ ـ علينا أن ندرك أن محمد القرآن وعيسى الإنجيل يقفان جنبا إلى جنب :

ثم أختم رسالتي هذه إليك حول « جوهر ومستقبل الإسلام » . . ومع التفاؤل الكبير بتباشير هذا المستقبل . . بأن أشير إلى ما بدأ يظهر فى أوروبا بالفعل ، من مقدمات هذا الحوار المخلص بين الأوربيين وبين ملايين المسلمين المهاجرين إليها للعمل ، أو لطلب العلم ، كما يجرى الآن فى فرنسا وألمانيا ، وفى هولندا وانجلترا ، وهو حوار يتجه فى غير خفاء نحو تحقيق الصور ، والمقدمات ، والمعالم الأولى ، لهذا الوفاق الحضارى المتكافئ بقنواته السلوكية ، وبأخلاقه ، وأهدافه ، بالصورة التى كشفت لك عنها فى هذه الرسالة . .

فلقد تأسس لتوثيق هذه الروابط بين الجانبين ــ فوق بحر من رواسب الكراهية والعنصرية والاغتراب ــ مجلس للمسلمين فى أوروبا أطلقوا عليه اسم « المجلس الإسلامى الأوروبى » وقد أعلن الرئيس المسلم لهذا المجلس أن هناك غايتين لإنشائه هما :

أولا ــ حماية الحياة الدينية والثقافية للمسلمين فى أوروبا .

ثانياً ــ خلق فهم أفضل للاسلام فى الغرب .

وفى ضوء هذا النشاط الذى بادر إليه المسلمون « المغتربون » إلى اليوم فى أوروبا ــ بدأ الحوار حول حقائق الإسلام ينشط ، وتبين ــ حسب

المألوف — أن حرارة الترحيب ، وكرم الأخلاق ، يظهران أولا فى جانب المسلمين . فالقس الإنجليزى جاك أندروز يقول فى هذا المعنى كما نقلت عنه صحافة بلده وولسول :

« إن المسيحيين عندما يقتربون من الإسلام بتلك الرؤية التى يختص بها الدين ، فلا شك فى أنهم سيلقون ترحيباً حتى من أكثر الفئات الإسلامية تطرفاً » .

ثم يضيف القس أندروز فيقول من حقائق الوفاق بين المسيحيين الأوروبيين والمسلمين المعاصرين ، وهو يدعو إلى حماية هذا الوفاق من مخاطر التسويف :

« إنه لأمر مؤسف له أن يكون المسيحيون — لا المسلمون — هم الذين يأتون إلى الحوار أول الأمر على مضض . أما المسيحيون الذين سبق لهم أن اختبروا حياة المسلمين فى بلادهم فقد اكتشفوا أن عيسى القرآن ، ويسوع الإنجيل ، يمكنهما الاتفاق إذا هما وقفا وجهاً لوجه » !

هل تؤمن بذلك أيها الصديق ؟ . . وأنا معك . .

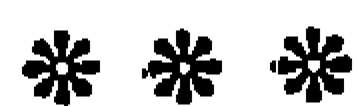
بل أؤكد لك ما هو أعظم وضوحاً — فى ضوء الواقع ودروس التاريخ — من هذا المعنى — . وذلك بأن أقول مع سياق هذه العبارة المتفائلة للقس الإنجليزى أندروز : « إن محمد القرآن . . وعيسى الإنجيل . . يمكنهما إذابة خصوماتنا ، وتقريب خطى الوفاق المتكافىء بيننا ، إذا ما أدركنا حقيقة أنهما يقفان معا فى كل وصاياهما المستمرة

إلينا ، جنباً إلى جنب ، ويداً بيد ، وأملا مع أمل . . ويبقى فقط أن نؤمن بما نزل إلينا . . وأن نصدق . . وأن نتقدم . . » .

ثم أقول بعد كل ذلك . . إننى أحيي فيك أيها الأخ الأوروبى — حسن استماعك لى . . وأشكر لك هذه الفرصة المتاحة لتقرأ وتفهم رسالتى . .

ومع انتظار جواب هذه الرسالة منك — عن رأيك فيها . . وعن نشاطك بعدها .. أجدد تحية السلام والإسلام إليك من أخ صديق لك فى مصر . . ينسى السيئة . . ويضاعف الحسنة .. ويرجو للجميع الخير ..

مع مطالع هذا القرن الخامس عشر من هجرة محمد ، الذى نزل عليه القرآن ، ودعا بعد المسيح إلى الإسلام والإيمان . والحمد لله رب العالمين . .



بسم الله الرحمن الرحيم

لقاء مع القارئ الكريم

أستفتح كلماتى فى هذه الكلمة ، كما تعودنا دائماً ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، والسميع العليم حامداً شاكراً لله على ماهدانا إليه ، بالرؤية المستنيرة فى ضوء كتابه الكريم لحقائق الإيمان والحياة والتى ستبقى فيما تم منها نوراً هادياً ، وعملا صالحاً ، يسهمان فى دفع حركة الإنسان المسلم فى تنمية ثقافته الإسلامية باتجاه الحق والسلام ، وبعيداً عن الخرافة والأوهام ، وذلك بشهادة أهل الرأى والفكر فى كل مكان .

ولقد شاء الله لحكمة منه أن يكون لى كلمة فى آخر هذا الكتاب عن العدد السابع ، وبالذات عن القسم الأول من بحوثه عن « القرآن الكريم وسيرة إبراهيم » ... وهو القسم الذى تناول تصحيح ما تسرب إلى سيرة إبراهيم من الأخطاء الشائعة ، لكى يعيد إلى هذه السيرة الكريمة حقائق الروابط والأحداث التى جمعت بينه فى حكمة الله وبين زوجتيه أم إسماعيل وأم إسحاق ، بكل مافى هذه الحقائق من إشراق فى التاريخ الدينى ، الأمر الذى قدمناه للقارىء فى مقدمة العدد السابع ـ بكل إعزاز ـ من حيث إننا أتحنا بفضل الله للقارىء ، ولأول مرة فى تاريخنا المعاصر ،

أن يقف على هذه الحقائق التاريخية فى سيرة إبراهيم عليه السلام ، كما كانت واضحة كل الوضوح لشعب الدعوة على عهد النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا القسم الأول من بحوث العدد السابع عن « سيرة إبراهيم » كتبه — كما هو معلوم للقراء — الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم ، وهو الكاتب الذى أعلم شخصياً أنه أصدر أول كتبه الإسلامية منذ أكثر من ٣٥ عاماً ، وأنه حتى اليوم المحرر الدينى بجريدة الأخبار ، وأنه قد اختير أخيراً مع صفوة من علماء مصر عضواً فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، كما أنه لايزال عضواً بلجنة الشريعة والقانون بالمجلس الأعلى للثقافة والإعلام — مثل هذا الرجل من حقه ، كما هو ظاهر ، أن يجتهد فى مجال تنقية التراث الإسلامى مما تسرب إليه ، كما أن من واجبنا أن ننظر طويلا فى اجتهاداته قبل أن نعترض عليها ، أو أن نحكم بخطئها ، وبخاصة إذا كانت تستند فى مقدماتها ونتائجها إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، وحكم العقل ، وحقيقة التنزيه للرسل . خاصة وأن الموضوع تاريخى وليس له علاقة بالعقيدة .

ولكن البعض سارعوا إلى مجلس إدارة شركتنا ، المسئولة عن إصدار هذه السلسلة من الكتب القيمة — فأفتوا بمجرد صدور العدد السابع بأن ماجاء فيه عن « سيرة إبراهيم » مخالف لما جرت عليه كتب التراث قروناً طويلة ، وعلى ذلك فإن السماح بنشره قد لايرضيهم ، وبذلك وضعوا إدارة شركتنا المرهفة الإحساس تجاه علماء الدين ، والخالصة التقدير لهم ، فى موقف الحرج من إغضابهم بمثل هذا الجديد والصحيح الذى جاءت به « سيرة إبراهيم » فى العدد السابع . .

وحتى نقطع هذه الحجة على هؤلاء عرضنا « سيرة إبراهيم » كما جاءت بحقائقها فى القسم الأول من بحوث العدد السابع على عدد من كبار العلماء المسئولين عن الثقافة الإسلامية والقائمين فعلا بالدعوة والإرشاد فى جميع أجهزة الإعلام ، وطلبنا إليهم أن يكتبوا لنا رأيهم فى صحة ماجاء فى هذه السيرة ، فأثنوا عليها وعلى كاتبها ، وقد نشرنا رسائل هؤلاء العلماء بعد هذه الكلمة ، لإثبات أننا عندما نشرنا ما نشرناه عن إبراهيم عليه السلام ، لم نكن بعيدين والحمد لله عن القول الحق ، والعمل الصالح . .

وأعود إلى هجمة بعض العلماء التقليديين على ما جاء بالجزء السابع من تنقية سيرة إبراهيم مما تعرضت له هذه السيرة من الوضع المتناقض مع سياق التاريخ الدينى ، ومع ما يجب من تنزيه جميع الأنبياء عن كل ما لا يليق بهم فيما يروى من سيرتهم — فأقول إن تنزيه أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام عن أن يتزوج من « جارية » تكون هى أم إسماعيل ولده البكر ، وجد المصطفى خاتم النبيين ، وأفضل المرسلين ، هو كما جاء مؤيدا بالقرآن الكريم والسنة النبوية تأكيد لما أسفر عنه التاريخ الدينى من مولد خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام ، ومن ظهور الإسلام الحق بنزول القرآن الكريم ، ومن ظهور خير أمة أخرجها الله للناس ، مثالا على هذا الإسلام ، وأسوة فى صالح العمل به بين العالمين .

هذا وإن القول بأن التصحيح لبعض ما ورد فى « العهد القديم » غير جائز — ينقضه أن القرآن الكريم حدثنا فقال : عن بنى إسرائيل عندما شرعوا فى التحريف أو الإضافة على ما نزل إليهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » البقرة : آية ٧٩ .

وأكثر من هذا فإن حجة الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم فيما كتبه من هذا التصحيح للسياق التاريخى والدينى لسيرة إبراهيم عليه السلام — هى هذا الحرص الصادق منه بعد أن فتحت مصر طريق السلام العادل مع إسرائيل على أن تزول جميع أسباب الخلاف والتنازع بين أولاد العم ، أى بين العرب واليهود ، وذلك بأن يتنازل الأخيرون عن هذا الادعاء المحرج ، وغير الصحيح ، والذى افتعله عدد منهم وهو يضيفه إلى تاريخهم الدينى — بأن العرب فى أجيالهم منذ إسماعيل ومحمد وحتى اليوم ، إنما هم « أبناء الجارية » ! .. وأى جارية .. ؟ إنها كما زعموا جارية أمهم سارة زوجة إبراهيم الأولى ، وأم جدهم إسحاق .. !

وبعد .. فماذا يكون من الأهداف النبيلة — عربياً وإسلامياً — أنبل من هذا الهدف ، وفى هذه الأيام بالذات .. من أجل أمل كبير ، وحقيقى ، فى زوال عقدة « الشعب المختار » .. وما تنعقد عليه هذه العقدة عند اليهود من بروتوكولات التوسع الجائر والظالم باسم إبراهيم أيضاً : « ومن النيل والفرات » .. !

ماذا من الأهداف فيما تضمنته سيرة إبراهيم عليه السلام فى لبابها بالعدد السابع ، وببراهينها الدينية – أنبل من هذا الهدف فى فتح الطريق لأواصر القربى المتعادلة فى أصولها ، والعادلة فى غاياتها ، بين أبناء العم .. بعيداً عن أى جاهلية عربية .. أو عقدة صهيونية . . بين ذوى القربى .. بين ذرية الأنبياء .. ليعيشوا ويتقاربوا فى هذا العصر .. فى سلام حقيقى .. تبرز به مرة أخرى أقوى قوة حضارية فى العالم المعاصر .. بهذه الألفة .. إذا فرضها السلام العادل وتكافؤ الأنساب – بين العرب وبنى إسرائيل ..

ومع ذلك .. فقد شاء الله لحكمة يعلمها ووقعت هذه الفتنة . . وشن التقليديون هذه الهجمة .. على الكلام الطيب ، والقول الصحيح ، والهدف النبيل ، كما تضمنت ذلك كله سيرة إبراهيم بقلم الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم ، فى الجزء السابع من هذه المسابقات .

الأمر حقاً لله ، والمشيئة مشيئته ، وكل ما يشاؤه سبحانه هو خير لنا كما تقرره شركتنا .. سواء أكان التوقف عن مثل هذا النهج الإسلامى العلمى فى كتب هذه المسابقات القرآنية .. أو كان فى الاستمرار فى هذا النهج الجاد ، والمعتدل ، بصورة أو بأخرى ..

وإذا كان المركز الثقافى لشركتنا العتيدة قد أراد أن يؤكد سلامة القصد ، وصحة المنهج ، بهذه الشهادات من كبار العلماء فى مصر على صحة ما جاء فى سيرة إبراهيم من هذا التصحيح لها من الإسرائيليات ،

كما ننشرها بعد هذه الكلمة .. فإن المركز الثقافى فى كلمة أخيرة لا يزال يتساءل عن « هذا البديل » لهذا المنهج السليم ، فى مجال هذه الثقافة القرآنية التنويرية التى اضطلعت بها شركتنا الرائدة ببعد نظرها لأعمال الخير ، وفى مقدمتها كانت هذه السلسلة المضيئة من كتب الثقافة القرآنية الناجحة .. « مع القرآن الكريم رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة » .

إنى حقاً أتساءل ويدى على قلبى إشفاقاً .. على شبابنا المسلم من خطر دعاوى الإلحاد والعلمانية .

ثم أقول أخيراً وأنا أحمد الله ، وأتوكل عليه ، وأذعن لمشيئته : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ..

عبد الفتاح عساكر

رسائل العلماء وأهل الرأى

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ الكريم المهندس الكبير حسين عثمان

رئيس مجلس ادارة المقاولون العرب عثمان احمد عثمان وشركاه

تحية من عند الله مباركة طيبة .. وبعد :

فان المجلس الأعلى للشئون الاسلامية يسعده أن يبعث اليكم بتحياته راجيا لكم من الله كل توفيق وسداد فى اداء رسالتكم فى زيادة العمران وخدمة الانسان ويسرنى أن ابلغ سيادتكم أننى :

اتابع اعداد السلسلة المباركة « مع القرآن الكريم » منذ ظهورها واعتقد أن القارىء الذى سعد باللقاء مع صفحاتها أول مرة لابد أن يسعى اليها ليجدد هذا اللقاء مع كل عدد يصدر منها ، وقد اختار « المركز الثقافى — المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » اسما عزيزا على القارىء المسلم عنوانا لحلقات هذه السلسلة ، فالقرآن الكريم معنا ونحن معه منذ أربعة عشر قرنا ولكننا نحتاج الى تلك الرؤية المستنيرة لآياته واحكامه كلما تجدد العصر .

ولقد احسن القائمون على اصدار هذه السلسلة فى أمور كثيرة بعد أن احسنوا اختيار اسمها واذا كانت الكتب والأبحاث تقصد موضوعا معينا نتصدى له وتبدى وجهة نظرها فيه فان اختيار السؤال والجواب وسيلة لعرض الموضوع هو اختيار موفق ويزيده توفيقا أن السؤال يكون من بين الاسئلة التى تلح على ابناء هذا العصر من المسلمين وهو سؤال يبدو أهم واكبر من الاجابة عليه بالنفى أو الاثبات فلابد للاجابة عنه من التأصيل والتفصيل وهذه ميزة السلسلة فيما يصدر منها فهى تواجه اسئلة حائرة بأجوبة تذهب بالحيرة وتذهب بالسائل الى أبعد من ذلك لانها تعطيه يقينا فى الموضوع يستند الى معرفة مفصلة وحجج قوية فيظفر السائل بالجواب وبالمعرفة التى تبقى أصولها فى عقله ونفسه .

ومن أسباب التوفيق الذى يلازم هذه السلسلة — بعد توفيق الله ورعايته — ان القائمين عليها قد اختاروا من يكتب لهم فيها وليس ذلك بالامر الهين اذا ذكرنا اسباب

نجاحها ورفعة مستواها — فحين يطرح السؤال نفسه على ألسنة الناس فى عصر معين يكون محتاجا الى اجابة كبيرة تتفق مع اهمية السؤال وخطره ولابد عندئذ من اختيار المفكر الذى يتصدى للسؤال بالاجابة الوافية الشافية لان الاسئلة التى نطرحها السلسلة المباركة فى مباحثها ليست من فروع الدين ولا مسائله التى يكفى أن يرجع فيها الى كتاب قديم أو حديث وانما هى أسئلة تحتاج الى معارف عالية تعرض على فكر ناقد وعقل نافذ يستطيع أن يقدم الاجابة التى تغنى فى الموضوع .

ولست أريد أن أطيل فى ذكر الميزات التى هيأها الله لنجاح هذه السلسلة لانها ظاهرة امام القارىء البصير ولان السير فى طريق الكمال لازم حتى بعد الاجادة والاتقان .

ولذلك فاننى أحيى الجهة التى اصدرتها « المركز الثقافى — المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » واحيى القائمين عليها ومن يكتبون فيها والقراء الذين اتجهت اليهم هذه الكتب بالكلمة الصـــادقة فهم جديرون بكل جهد يبذله « المركز الثقافى — المقاولون العرب عثمان احمد عثمان وشركاه » فى خدمة القرآن الكريم .

لذلك فاننى أرجو ان يتاح لاعضاء المجلس الاعلى للشئون الاسلامية زمن يتزودون — بالثقافة الاسلامية الرفيعة من طريق الاطلاع على أعداد تلك السلسلة المباركة .

وأشكر لسيادتكم سلفا ما ترونه فى هذا الشأن .

وتفضلوا سيادتكم بقبول وافر الاحترام

المستشار الدكتور

جمال الدين محمد محمود

الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الاسلامية

السيد المهندس / حسين احمد عثمان
رئيس مجلس ادارة شركة المقاولون العرب
عثمـان أحمـد عثمـان وشركاه

تحية طيبة وبعد ...

تلقيت بكل المودة والتقدير كتاب العدد السابع من سلسلة كتب « مع القرآن الكريم » رؤية مستنيرة لحقائق الايمان والحياة والتي يصدرها سنويا المركز الثقافى بشركتكم ، ونحرص على متابعتها كل عـام .

وقد طلب منى الأخ عبد الفتاح عساكر أن أكتب رأيى حول ماجاء فى هذا العدد عن سيرة ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

ويشرفنى أن أوجز رأيى فيما يلى :

« كاتب هذا البحث ، عالم فاضل ، صاحب رأى مستنير ، وفكر حـر ، وله نظرته الشمولية فى تاريخ العرب قديمه وحديثه ... وكثيرا ما صحح مفاهيم خاطئة ، اعتقد كثير من الناس بأنها حق لطول العهد بها ، وعدم محاولة ربط القصص القرآنى فى اطار متكامل. لقد أتى بالجديد الذى لم يسبق اليه ، حين فند الرأى المشهور ، والمذكور فى أكثر كتب التاريخ من أن ابراهيم زار مصر وتعرض للمهانة فى قصر فرعون ، كيف يصح هذا ، وقد ترك فى العراق ملكا جبارا ، يأبى الاعتراف بالوهية الواحد الخالق ، ثم يسلم نفسه الى جبار مثله فى مصر وانتهى بعد تفنيد هذا الرأى الى أن ابراهيم مـر بالشام وفلسطين والأردن جنوبا متجها الى الحجاز ليقيم بأمر الله مع ابنه اسماعيل تلك القواعد الراسخة من بيت الله ، قبلة المسلمين الى يوم القيامة والقرآن الكريم يؤكد ذلك فى قوله :

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل . ربنا تقبل منا انك أنت السميع العـليم » .

وهاجر أم اسماعيل ليست جارية مصرية أهديت الى زوجه سارة ، ولكنها فتـاة عربية اختارها ابراهيم من بين فتيات القبـائل العربية التى مـر بها فيما بين الشـام والأردن ، وأنجبت له الغـلام الحليم اسماعيل ، ومن غير المعقـول أن تكون سـارة قد دبت عقـارب الغيرة فى صدرها فأمرت ابراهيم بأن يبعد اسماعيل وأمه عن نظرهـا ، ويصدع بالامر ويبعدهما الى واد غير ذى زرع عند مكان بيته المحرم ، وهذا الخطأ الذى صححه الباحث الفاضل قد وقع فيه كثير من كتاب التاريخ . لقد كان هو وزوجه أم اسحاق أكرم على الله من أن تأمره وهو لا يستطيع أن يراجعها فى أمرها ، ان هذا التصور هو تزييف من الأحبار ، لينتقصوا من قدر اسماعيل جد العرب الأول ، وليثبتوا فضل نسل اسحاق ويعقوب .

ويجيب الكاتب الفاضل عن السؤال الثانى وهو عن حكمة الحج ، اجابة لا تقل فى عمقها وأصالتها عن اجابة السؤال الأول ، انه يلخص المنافع التى تجنى من الحج ، بمنافع اقتصادية ، حيث تقام الاسواق التجارية ، ومنافع أدبية حيث تعقد المحافل الشعرية والأدبية الجامعة ، وهناك منافع نفسية وهى نشر الأمن والسلام ، فالقتال يحرم فى هذا المكان وفى أشهر الحج .

وهكذا تجرى الاجابة على السؤال الثالث ، عمق فى التفكير ، وأصالة فى الرأى ..

والحق أقول ان الكاتب الفاضل الأستاذ أحمد موسى سالم قد فتح العقول على حقائق كانت غائبة عن كثير من أعلام المفكرين ، وقد كشف زيف دعاوى الأحبار ، وأثبت بالأدلة القاطعة أبوة ابراهيم للعرب ، فحياه الله ، وبارك فيه وفى قلمه وفكره وعلمه .

وانه ليسعدنى ان اطلب من سيادتكم مجموعة من هذا الكتاب ليوزع على ائمة المساجد الكبرى على مستوى الجمهورية .

وختاما . تحياتنا « للمقاولين العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه وللمركز الثقافى بها » على هذا العمل الصالح الذى نرجو له دوام العطاء .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

ملاحظة :

اذاع التليفزيون العربى حديثا للدكتور عبد الرحمن النجار موضح فيه تصحيح للخطأ الشائع عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

مدير عام المساجد
بوزارة الأوقاف

د. عبد الرحمن النجار

دكتور / عبد الرحمن النجار

السيد المهندس / حسين احمد عثمان

رئيس مجلس ادارة شركة المقاولون العرب ـ عثمان احمد عثمان وشركاه

تحية طيبة وبعد :

فلقد شرفت بالاطلاع على البحث القيم الخاص . بأبى الأنبياء سيدنا ابراهيم عليه افضل الصلاة والسلام وعلى رسولنا الكريم . والذى نشر بالكتاب السابع من سلسلة كتب مع القرآن الكريم الذى تصدر سنويا عن المركز الثقافى بشركتكم الطيبة . وخلصت من القراءة الى أن الحقائق التى وردت بالبحث هى الحقيقة التى تتناسب مع مكانة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : « الله يعلم حيث يجعل رسالته » .

وأنا مع الباحث الكريم فى ان القرآن الكريم لم يشر مطلقا الا الى رحلة ابراهيم والأسرة الكريمة اسماعيل وأمه الى بيت الله الحرام .

وليس ما يقوله الاسرائيليون على ابراهيم وتناقله عنهم جمع من علماء الاسلام الذين فسروا القرآن متأثرين بكتابات الاسرائيليين الا ضربا من الافتراء على الله وعلى انبيائه .

وقد اتعب الاسرائيليون انفسهم ليثبتوا ان الذبيح ليس اسماعيل وانما هو اسحاق، وقد تورط بعض المفسرين فى ذلك ، والحقيقة هى ما أشار اليه القرآن الكريم « فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك .. الخ » .

ولقد كان الذبيح هو الابن الأول لا الثانى ، اذ جاء بعد ذلك فى سورة الصافات « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » .

ولقد روج الاسرائيليون هذه المفتريات ليشككوا فى نبوة بعض الأنبياء بالحاق بعض النقائص بهم ليصلوا فى النهاية الى التشكيك فى صحة الرسالة المحمدية ، ولكن الله كشف للنبى حقيقتهم حين قال له :

« ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه . يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب أكالون للسحت » .

وان تطهير ساحة الأنبياء واجب مقدس اذ لو تطرق الشك الى ســـاحة أحدهم لمــا كان أهلا لتحمل الرسالة « وماجاز على أحد المثلين يجوز على الآخر » .

وناهيك بأبى الأنبياء الذى قال عنه مولاه « ان ابراهيم كان أمة » « واتخذ الله ابراهيم خليلا » .

ومادام السادة المسئولون عن الثقافة الاسلامية بشركة « المقاولون العرب عثمان احمد عثمان وشركاه » قد أفسحوا لنا صدرهم فانى أرجو أن يؤذن بطبع هذه النبذة التى اردت فيها ان أبرىء ساحة الأنبياء مما ألصقه المرجفون ببعضهم ولم يتورع الكثير من اصحاب التفاسير أن يسجلوه فى كتبهم .

فمن ذلك ما ورد فى قصة يوسف عليه السلام فى قوله تعالى :

« ولقد همت به وهم بها » فلقد سبق هذه الآية قول الحق تبارك وتعالى :

« ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما » وقوله : « وقالت هيت لك ـــ قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون » .

فكيف بعد هذه التزكية الربانية ، والاستعانة بالله ، وتقريره عدم فلاح الظالمين يفكر فى عمل الفاحشة . مع كلمة « هم » فى القرآن الكريم لم ترد الا بمعنى القتل . فى سورة التوبة : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اســـلامهم وهموا بما لم ينالوا » . وفى سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم ان يبسطوا ايديهم فكف أيديهم عنكم » .

ولو كان الهم مرادا به فعل الفاحشة لكان الترتيب ان يقال ، ولقد هم بها وهمت به اذ المعروف فى طبائع البشر ان المرأة لا تكون فاعلة بل تكون قابلة فيبدأ الرجل ، وهذا كله بعيد كل البعد عن ساحة يوسف عليه الســـلام . فان المرأة حين راودته قال « معاذ الله » ومن ذكر الله لا يغشى المعصــية ابــدا « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » .

مع ان فى غضون الآيات كل الأدلة على ان يوسف لم يفكر لحظة واحدة فى هذا الفكر ففى لحظة المشادة التى حدثت بين المرأة وبينه حيث همت بقتله ، وهم بالدفاع عن نفسه واستبقا الباب ، قرر الشاهد كما قال القرآن الكريم « ان كان قميصه قـــد من قبـــل فصدقت وهو من الكاذبين » الى ان قال : فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن.

ان كيدكن عظيم . يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين » .
واعترفت المرأة للنسوة بقولها . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، وقالت النسوة للملك . حين طلب يوسف وهو فى السجن شهادتهن . حاش لله ما علمنا عليه من سوء . وهنا اعترفت المرأة . الآن حصحص الحق ــ انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين .

ويعلم الملك براءته فيجعله على خزائن الأرض . ويسجل الله قصة يوسف الصديق « نحن نقص عليك أحسن القصص » . فما أحوجنا الى تنقية كتب التراث من هذه الترهات .

اليك ايها الاخ الكريم القائم على شأن الثقافة الاسلامية اسجل هذا الجهد المشكور ، وارجو منه المزيد لنفع المسلمين .

والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير عام
الارشاد الدينى والثقافة الاسلامية
بوزارة الأوقاف

عبد الغنى تاج

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المهندس حسين عثمان رئيس مجلس ادارة شركة المقاولون العرب
عثمـان احمـد عثمـان وشركاه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعـد :

فقد قرأت الجزء السابع من سلسلة « مع القرآن الكريم » والتى يصدرها سـنويا المركز الثقافى بشركتكم وبخاصة هذا الفصل الذى تناول سيرة ابراهيم عليه السلام للكاتب الاسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم ، وقد أعجبت بما رأيته فيه من خطـة حميدة تتجـه الى تصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة ، والاسرائيليات الضـالة التى تسربت فى خبث ماكر ودهاء بالغ الى بعض الكتب من التراث طعنا فى دين الله ، وكيدا لرسله بصورة لا يدركها الا أصحاب الفطنة من العلماء والباحثين الذين خبروا أساليب الأعداء فى الكيد والبغى ، أمثـال كاتب هـذا البحث .

وبهذا يكون الكاتب قد قدم بهذه الدراسة لسيرة ابراهيم مع غيرها من الابحاث خدمة سامية على أعلى مستويات البحث والدراسة .

والله يهـدينا جميعـا سـواء السبيل .

دكتور السيد رزق الطويل

رئيس جماعة دعوة الحق الاسلامية
والمدرس بجـامعة الأزهر

السيد المهندس حسين عثمان رئيس مجلس ادارة شركة المقاولون العرب
عثمـان أحمـد عثمـان وشركاه

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته . وبعـد :

فانه يسعدنى أن يكون لى شرف الاسهام فى العدد السنوى لبحوث « مع القرآن الكريم » والتى يصدرها المركز الثقافى للمقاولين العرب « عثمان أحمد عثمان وشركاه » .

واستطيع أن اقرر أن هذا العدد السنوى يسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية الاسلامية بما يقدمه من بحوث علمية متنوعة ومبتكرة تخدم الثقافة العربية الاسلامية خدمة جليلة .

ومما يضفى على هذه البحوث قيمة كبرى انها تدور على تعدد مناحيها حول القرآن الكريم الذى يعد حجر الاساس للحياة العقلية والاخلاقية والثقافية والاجتماعية للمسلمين، وربط جوانب الثقافة المتشعبة على اختلافها بالقرآن الكريم هو تصحيح هام لخطأ شنيع وقعت فيه الدراسات العلمية العلمانية الحديثة ، والتى فصلت بين الابحاث العلمية والقرآن الكريم ذلك الكتاب الذى يشكل الضابط المنظم لكل جهود المسلمين فى مختلف الحياة.

ان سلسلة بحوث « القرآن الكريم » ليست مجرد خطب ومواعظ تكرر نفسها بصورة مملة ، وانما هى ابحاث علمية جادة واصيلة ومبتكرة ، تقدم الحياة العلمية فى توجيه القرآن الكريم وفى ضوء حقائق العصر بناءا على منهج علمى . لذا فانها تقوم بدور خطير فى سد كثير من الثغرات ، وتصحح الكثير من الاوهام والاغاليط فى كثير من مجالات الفكر الاسلامى خاصة ، والفكر المعاصر على وجه العموم .

كما انها تقدم القرآن الكريم الى العصر بصورة علمية مقنعة تضع ارضية طيبة لبناء ثقافة علمية اسلامية عصرية ، لا تنفصل عن العصر ، ولا تضيع فى تياراته ، وانما تصحح الصحيح وتبطل الباطل . بالبحث والمقارنة الجادة الموضوعية .

لذا فانى أرى من الضرورى تعميم الفائدة بهذه السلسلة وذلك عن طريق توزيعها على نطاق العالم الاسلامى سواء للجمهور العادى أو المتخصص .

ان هذه السلسلة تصلح نواة لدائرة معارف اسلامية قرآنية حديثة ، ولابد من لفت الانظار الى قيمة ما تنشره حتى تتحقق به على اوسع نطاق فى العالم الاسلامى .

ان البحوث التى تقدمها السلسلة هى بحوث علمية جادة وهامة والمجلات أو الدوريات التى تقدم هذا النوع من الدراسات العلمية الاسـلامية تكاد أن تكون نادرة ان لم تكن معدومة . لذلك ارى ان من اوجب الواجبات التعريف بهذه الموسوعة على اوسع نطاق.

ولكى اقدم دليلا على ما أقول اتخذ لذلك مثالا العدد الذى بين يدى وهو العدد السابع فهو يعد لنا كثيرا من الحقائق العلمية ، والبحوث المبتكرة حول موضوعات بالغة الاهمية . وبعضها لم تسبق الاشارة اليه ، أو معالجته على هذا النحو . واختار من هذا العـدد موضوعين هامين تعرض لبحثهما الكاتب الاسلامى الفاضل الأستاذ/ احمد موسى سـالم جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا .

اما الموضوع الاول فهو يتعلق بسيرة **ابراهيم عليه السلام** ، تلك السيرة التى تشكل حجر الاساس ليس فقط فى بناء الثقافة العربية الاسلامية ، وانما فى بناء الحضارات الانسانية كلها بعد ابراهيم عليه السلام .

ان ازالة الاوهام والشبهات ، والخرافات ، والافتراءات حول هذه السيرة يقدم اكبر خدمة للثقافة العربية الاسلامية خاصة ، والانسانية عامة .

لقد طمس اليهود معالم هذه السيرة ، كما جاءت الدراسات الفرعونية الحديثة والموجهة توجيها صليبيا خبيثا لتساهم فى طمسها . لقد جرد اليهود بأكاذيبهم سيرة ابراهيم عليه السلام من كل دلالتها وقيمتها الاسلامية والانسانية وجعلوا من ابراهيم عليه السلام مجرد يهودى يعمل فى خدمة اله خاص باليهود وحدهم .

ولقد وفق الاستاذ أحمد موسى سـالم فى ابراز حقيقتين اساسيتين فيما يتعلق بهـذه السـيرة وهما :

١ ـ ان رشد ابراهيم عليه السلام العقلى يمثل تحولا أساسيا فى تاريخ الانسانية سوف تكون له نتائجه العميقة على التاريخ الانسانى كله ، فابراهيم عليه السلام وليس اخناتون كما يريد ذلك الحقد الصليبى ـ هو الذى يمثل فخر الرشد العقلى والذى يمثل ارتباط هذا الرشد بتوحيد الله والدين الحق .

٢ ـ أن حركة ابراهيم هى السلام ـ وهى اساس الانقلاب التاريخى المظيم لحساب التوحيد والاسلام هى من أولها فى القرآن الكريم الى مستقر هدفها فى الارض المباركة فى الشام والارض المباركة فى الحجاز من ناحية أخرى لم تكن وليدة الصدفة أو النزوة أو التخبط ، وانما نمت بتوجيه ربانى ، يقصد الى تحقيق اهداف انسانية واجتماعية مقصودة لخير البشر .

أما الموضوع الثانى فيتعلق بتوضيح الفارق بين الدين الحق والفلسفة وتلك قضية من اخطر القضايا التى يجب كشف ابعادها أمام أمتنا وشبابنا .

لقد نجحت الدعاية الموجهة فى رفع الفلسفة فوق الدين ، واعتبارها هى دليل العقل وسـبيله .

ولقد وفق الأستاذ احمد موسى فى كشف بهتان هذه الاباطيل ببحث علمى هادى رصين.

انه لمن الضرورى ان يعرف شبابنا ان الفلسفة ليست هى العلم وليست هى العقل وانها ليست اكثر من اباطيل واوهام وظنون وان يعرفوا أن الدين الحق لا يستمد قيمته فقط من مجرد كونه صادر عن الله وان كان ذلك فى حد ذاته يمثل قيمة كبرى ، انما يستمد الدين الحق الى جانب ذلك قيمته من انه يقوم على الحقائق العلمية اليقينية المقررة فى العقل السليم، والبحث الامين.

لقد كانت تلك نماذج وامثلة لاهمية المباحث التى حفل بها العدد السابع ، ولاهمية المباحث التى تتصدى لها سلسلة مع « القرآن الكريم » على وجه العموم .

لذا فانى آمل ان تجد هذه المباحث طريقها الى الجامعات ومراكز البحث العلمى والمتخصصين ، والمثقفين عامة فى جميع بلاد العالم الاسلامى . حتى تسد فراغا طال انتظار من يقدم بعده ، وحتى تحقق الفائدة لجميع المسلمين .

خالص تهانى وتحياتى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

دكتور محمد رشاد خليل

استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الرياض

خواطر اسلامية
القــرآن الكريم
وسيرة ابراهيم

فى سائر الاديان السماوية لا يوجد دين موصول بالحنيفية السمحة الا الاسلام ولا يوجد رسول من رسل الله موصول بعد سيدنا ابراهيم صاحب الحنيفية وأبى الأنبياء الا سيدنا محمد صاحب الرسالة الخاتمة عليه وعى جميع الانبياء والرسل صلاة الله وسلامه وبركاته .

والقرآن الكريم كتاب الله الباقى الذى تكفل بحفظه وصيانته من التحريف والضياع يشرح فى رسالة ابراهيم جميع اهداف رســالة السماء وهى وحدانية الله فى غير شرك ، واجتماع الامة على كلمة الله وعبادته ..

وقد شاء الله سبحانه أن يبدأ هذه الرسالة بابراهيم وان يختمها بمحمد ومن ثم كان القرآن دليلا وحيدا بحكم حفظ الله له على جميع الشرائع تسقط امامه الادلة التى حاول مزيفوا التاريخ الدينى لرسالة السماء الى الناس أن يثيروا بها الغبار حول ابراهيم المسلم ليقطعوا الصلة الوثيقة بين بدء الرسالة واختتامها .

وقد شمل هذا التزييف الاصالة الشخصية لزوجة أم اسماعيل والطريق الذى سلكه من العراق وحتى مكة المكرمة .. وجد هذا التزييف دروبا ومسالك الى بعض كتب التفسير نتيجة دخول عدد من أحبار اليهود فى الاسلام فاستمع منهم المهتمون بشــئون الدراسات القرآنية أول العهد بالتاريخ الاسلامى .

ومن هنا وجب نفض هذا الغبار عن الشخصية الاولى التى حملت رسالة الله الى الناس — لان المعرفة النظيفة لهذه الشخصية تاريخا ودعوة هى ضرورة لا مناص منهــا لمعرفة حقائق دين الله الذى حمله ابناء ابراهيم من بعده الى البشرية حتى محمــد صلى الله عليه وسلم .

فى الطريق الى ذلك يخطو فى قوة المركز الثقافى لشركة (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) باشراف الأستاذ عبد الفتاح عساكر حيث أصــدر الجزء السابع من رؤيته المستنيرة لحقائق الايمان والحياة وعنوانه الرئيسى (مع القرآن الكريم) يتصدره بحث علمى عن القرآن الكريم وسيرة ابراهيم للكاتب الاسلامى الثقة الأستاذ أحمد موسى ســالم وحسبنا أن نذكر شخصية الكاتب ففى الغناء كل الغناء عن أى مدح للبحث أو ثناء .

نشر بجريدة الجمهورية العدد رقم ٩٦٨٠
يــوم الجمعــــة ٢٦ ديســمبر ١٩٨٠

عبــد اللطيف فايد
المحرر الدينى بجريدة الجمهورية

مع سيرة ابراهيم
ابى الأنبياء وخليل الرحمن
راى صاحب التفسير القرآنى للقرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب

— ١ —

تقديم :

طلب الى المركز الثقافى للمقاولين العرب ، عثمان أحمد عثمان وشركاه ، والذى يصدر سنويا كتابا اسلاميا ، تحت عنوان : « مع القرآن الكريم » أن ابدى رأيى فيما كتب فى العدد السابع تحت عنوان : « القرآن الكريم ، وسيرة ابراهيم » وذلك تصحيحا للمفاهيم الخاطئة التى أثارها حول هذا الموضوع أولئك الذين يدعون العلم ، الذين ترسبت فى عقولهم تلك الخرافات والأساطير التى تلقوها من بعض كتب التفسير المحملة بالمتناقضات ، دون أن يكون لهم اعتراض عليها ، أو توقف ازاءها ، بل اعتبروها على الرغم من تناقضها — مسلمات لا تخضع لمنطق العقل ، ولا لمعاودة النظر ، تلك هى البلية التى ابتلى بها المسلمون منذ بضعة قرون ، فكانت سببا فى هذا التخلف الذى تعانى منه شعوب المسلمين ، وقد زهدوا فى عقولهم ، فتقبلوا كل مايلقى اليهم ، ولو كان سما زعافا ، وداء قاتلا .. وذلك شأن الغريب التائه فى دروب الغربة لا اختيار له فيما يأتى أو يدع من أمور .. والشاعر العربى يقول :

اذا كنت فى قوم ولم تك منهمو
فكل ما علفت من خبيث وطيب

— ٢ —

وكاتب هذا المقال : « القرآن الكريم وسيرة ابراهيم » هو العالم المفكر الأديب المؤمن الاستاذ أحمد موسى سالم ، المعروف بسلامة تفكيره ، وغيرته الصادقة ، على دينه ، ولغة دينه ، التى نزل بها كلام الله فى كتابه الكريم ، بالرسالة الجامعة الخاتمة ، على خاتم النبيين محمد ، صلوات الله سلامه عليه ، وعلى آله وصحابته والتابعين الى يوم الدين ..

وقد استمد الاستاذ أحمد موسى سالم الأصول التى ضم عليها موضوعه ، من القرآن الكريم ، الذى اتخذه أصلا فى كل ما تحدث به عن ابراهيم عليه السلام ، غير ملتفت الى كل ما يناقض حقائق الكتاب الكريم ، مما جاء فى التوراة ، وما دخل عليها من تحريف وتبديل.

والأستاذ احمد موسى سالم ، انما التزم فى هذا بما قرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : **« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل اللـه ، ولا تتبع أهواءهم عمـا جاءك من الحق » (سـورة المائدة : ٤٨) ..** فهذه الهيمنة للقرآن الكريم ، على الكتب السماوية التى سبقته ، انما تعنى سلطانه القائم عليها . فما وافق القرآن الكريم منها ، قبل وأجيز ، وما خالف القرآن الكريم ، اعتبر من التحريف ، الذى أدخله أهل الكتاب على مابين أيديهم من كتب الله،كما قال تعالى متهما لهم بهذا التحريف : **« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » (سورة البقرة : ٧٩).**

ويقول سبحانه فى أهل الكتاب أيضا : **« ودت طائفة من أهـل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون .. ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون.. يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (سورة آل عمران ٦٩ — ٧١) ..**

فهذا ما يقرره الله تعالى فى أهل الكتاب ، من افترائهم على الله ، وتحريفهم لما أنزل على أنبيائهم من كتبه ، حسدا من عند أنفسهم ،واستعلاء منهم عن اتباع رسول من عند الله ليس من جنسهم ، كما يقول تعالى فاضحا ذلك منهم : **« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق» (سورة البقرة : ٩)..** ويقول الحق جل شأنه فى أهل الكتاب : **« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمـات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (سورة المائدة : ١٥ ـــ ١٦) ..**

وهنا سؤال ، وهو : لماذا جاز التحريف فى الكتب السماوية السابقة على نزول القرآن، ولم يجز هذا التحريف فى القرآن الكريم ؟

والجواب على هذا : أن الله تعالى ، قد وكل الى أهل الكتاب حفظ ما انزل الله تعالى على أنبيائهم من كتب .. أما القرآن الكريم ، فقد تولى الله تعالى حفظه ، ولم يجعل ذلك الحفظ منوطا بأتباع هذا الكتاب ..

فقال تعالى عن أهل الكتاب : **« انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء » (سورة المائدة : ٤٤)** فاليهود ، وعلماؤهم من الربانيين والأحبار ، هم الذين جعل

الله تعالى اليهم حفظ التوراة التى فى أيديهم ، وذلك اذا كانوا متمسكين بدين الله ، أما اذا انحرفوا عن هذا الدين فانهم يغيرون ويبدلون فى التوراة حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم ومصالحهم الدنيوية ، فلا يحفظون لله تعالى عهدا ، ولا يرعون لكتابه ذمة ..

اما القرآن الكريم ، فان الله تعالى هو الذى تولى حفظه ، وحراسته من أى تبديل أو تحريف ، لكلمة من كلماته ، أو آية من آياته ، وفى هذا يقول الحق سبحانه : **« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (سورة الحجر : ٩) .**

وسؤال آخر ، وهو : لماذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل الى أهل الكتاب مهمة حفظ ما بأيديهم من كتب سماوية ، ولم يتول سبحانه حفظها ، مثل ما حفظ القرآن الكريم ؟

والجواب على هذا ، هو أن الرسالات السماوية قبل الرسالة الاسلامية ، كانت موقوتة الى أن تأتى الرسالة الاسلامية الخاتمة التى يدعى اليها أهل الكتاب ، كما يدعى اليها غيرهم من المشركين ، والكافرين .. ومن أجل هذا اقتضت حكمة الله تعالى أن يقع التحريف والتبديل فيما بين أيدى أهل الكتاب من كتب الله ، حتى اذا جاءت الرسالة الاسلامية الخاتمة ، كان عليهم أن يصححوا عقيدتهم وشريعتهم باتباع ما جاء به القرآن الكريم ، الذى ستمتد رسالته الى آخر الزمان ، فلا كتاب بعده ، ولا رسول بعد رسوله .

فالقرآن الكريم ، هو القائم فى الناس ما دام لهم وجود على هذا الكوكب الأرضى ، وبه يصحح ما دخل على الكتب السابقة من تحريف وتبديل .. ومن هنا اقتضت حكمة الله تعالى أن يتولى سبحانه حفظ هذا الكتاب ، الذى لو جاز عليه التحريف ، لكان من مقتضى الحكمة الالهية أن ينزل كتابا يصحح به هذا التحريف .. وأما وقد اقتضت حكمة الحكيم العليم ، رب العالمين ، أن تختم كتبه السماوية بالقرآن الكريم ، كما تختم الرسالات السماوية بمحمد — صلى الله عليه وسلم — خاتم النبيين — فمن هنا كان من موجبات الحكمة أن يحفظ الله تعالى القرآن الكريم ، ليظل الرسالة السماوية القائمة فى الناس الى يوم الدين

— ٣ —

ما جاء عن ابراهيم فى القرآن الكريم :

ونعود بعد هذا الى ابراهيم عليه السلام ، وما جاء عنه من أخبار فى القرآن الكريم ، وفى التوراة التى بين أيدى اليهود والنصارى اليوم ، وقبل اليوم ومنذ نزول القرآن الكريم .

فى القرآن الكريم ذكر واضح لابراهيم عليه السلام ، وما كان له من ذرية ..

وقد ورد ذكر ابراهيم — عليه السلام — فى القرآن الكريم فى تسع وستين مرة .. ومن ذلك ما كان من تعرفه على ربه ، واستدلاله على وجوده سبحانه الها قائما على هذا الوجود خلقا وأمرا ، بما دله عقله عليه بوحى من فطرته السليمة ، وذلك من قبل أن تأتيه الرسالة من ربه .. وفى هذا يقول الله تعالى : **« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا : قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين .. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما انا من المشركين .. وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون .. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون .. الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »** (سورة **الانعام : ٧٤ — ٨٢**) .

فابراهيم — عليه السلام — يرى اباه يتعبد للأصنام ، ويلوذ بحمى تلك الأحجار ، فينكر بفطرته هذا الضلال الذى كان من أبيه ، ويقول له : « **أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين** » ثم يأخذ نفسه بالبحث عن الاله الحق الذى يجب أن يعبد ، ويرجى منه النفع والخير ، حتى اذا جنه الليل جعل يوجه وجهه الى السماء ، لعله يرى فيها وجه الاله الذى تكون له العبادة ، فيرى كوكبا ، ويقول : هذا ربى .. وظل يرقب هذا الكوكب ، حتى غاب عن نظره ، فلما رأى ذلك أنكر أن يكون هذا الكوكب هو الاله القائم على هذا الوجود .. ثم رأى القمر ، فبهره نوره ، فقال هذا ربى ، حتى اذ غاب هذا القمر ، أنكر ألوهيته .. ثم رأى الشمس ، فقال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت غض بصره عن السماء وكل ما فيها ، وقال : « **انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** » .

وهنا اتجه ابراهيم الى قومه ، ينكر عليهم أن يتعبدوا لهذه الأصنام التى نحتوها من الأحجار بأيديهم .. وقد طال الوقوف بينه وبين قومه .. هو يدعوهم الى الله ، وهم يأبون أن يدعوا تلك المعبودات التى كانوا يعبدونها ، هم وآباؤهم ..

وينتقل ابراهيم — عليه السلام — الى أسلوب عملى ، يرى فيه قومه ما هم فيه من زيغ وضلال ، وقد آتاه الله تعالى رشده ، واختاره رسولا من رسله ، فيعمد الى تحطيم الأصنام ، وهم فى غفلة عنها ، ثم يدع كبير الأصنام ، ويعلق فى رقبته الفأس التى حطم بها الأصنام .. وفى هذا يقول الله تعالى : « **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به**

عالمين .. اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون .. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين .. قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين .. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين .. قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين .. وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين .. فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون .. قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين .. قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم .. قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون .. قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم .. قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون .. ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم .. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون .. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين .. قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وارادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين » (سورة الأنبياء : ٥١ — ٧٠) .

وهكذا يخرج ابراهيم برحمة الله من هذا الابتلاء سليما معافى لم تصبه النار التى ألقوه فيها بسوء ، ويمضى القوم فى غيهم وضلالهم الى أسفل سافلين ، فى الدنيا والآخرة .

— ٤ —

القرآن الكريم واتجاه ابراهيم الى البلد الحرام :

وفى القرآن الكريم بيان واضح صريح عن اتجاه ابراهيم عليه السلام الى حيث البلد الحرام مكة ، وهناك يقيم ابراهيم وابنه اسماعيل عند البيت الحرام ، ويرفع قواعده ، ثم يؤذن فى الناس بالحج الى هذا البيت العتيق .. يقول الله تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود .. واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فامتعه قليلا ، ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير ، واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم .. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » (سورة البقرة : ١٢٥ — ١٢٩) ..

ومن الحقائق التى يقررها الحق سبحانه فى هذه الآيات المباركات :

اولا : أن الله تعالى قد عهد الى ابراهيم وابنه اسماعيل — عليهما السلام — أن

يطهرا البيت الحرام مما كان فيه من أوثان ، وأن يعداه للطــائفين ، والعاكفين والركع السجود ، المؤمنين بالله ايمانا خالصا مبرأ من الشرك .

وثانيا : دعا ابراهيم ربه عند هذا البيت الحرام ، أن يجعل هذا المكان بلدا معمورا آمنا من عدوان المعتدين ، وأن يرزق أهل هذا البلد من الطيبات .

وثالثا : قام ابراهيم وابنه اسماعيل — عليهما السلام — باقامة البيت الحرام على القواعد التى كانت لا تزال باقية منه ، اذ كان أول بيت وضع للناس على هذه الأرض ، كما يقول تعالى : « **ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين .. فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من أستطاع اليه سبيلا** » **(سورة آل عمران : ٩٦ — ٩٧)** .

ورابعا : دعا ابراهيم ربه أن يجعل منه ومن ابنه اسماعيل وذريته أمة مسلمة .. وقد استجاب الله تعالى لهما ، فكانت الامة المسلمة ، أمة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه.

وخامسا : دعا ابراهيم واسماعيل ربهما أن يبعث فى هذه الأمة رسولا منهم ، يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم من آفات الشرك التى تداعت عليهم ، بعد اسماعيل ، عليه السلام .

— ٥ —

عاش ابراهيم عليه السلام حتى كاد يبلغ التسعين من عمره ، قبل أن يرزقه الله تعالى بولده اسماعيل ، من زوجته هاجر ، وبعدها بعشر سنين — أى وقد بلغ المائة — رزقه الله تعالى بولده الثانى من زوجته سارة ، وهو اسحق .

وحول هاجر ، وسارة زوجتا ابراهيم عليه السلام ، دار اليهود بأكاذيبهم ومفترياتهم التى أدخلوها على التوراة ، ليقولوا ان ابراهيم لم يذهب الى مكة ، ولم يقم هو وولده اسماعيل ببناء البيت الحرام على قواعده التي كانت لا تزال قائمة هناك .

ففى التوراة حسب مفتريات اليهود :

« وحدث جوع فى الأرض ، فانحدر أبرام — أى ابراهيم — الى مصر ، ليتغرب هناك، لان الجوع فى الأرض كان شديدا .. وحدث لما قرب أن يدخل مصر انه قال لساراى — أى سارة — امرأته : انى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر . فيكون اذا رآك المصريون أنهم

يقولون هذه امرأته ، فيقتلونني ويستبقونك .. قولي انك أختي ، ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك !!

« وحدث لما دخل أبرام مصر . أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأخذت المرأة — أى سارة — الى بيت فرعون ، فصنع الى ابرام خيرا بسببها وصار له غنم ، وبقر ، وحمير ، وعبيد ، واماء ، وأتن وجمال .. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب (ساراى) امرأة أبرام ، فدعا فرعون ابرام ، وقال له : ما هذا الذى صنعت بى ؟ لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هى أختى ، حتى اخذتها لتكون زوجتى ؟ والآن هى ذى امرأتك ، خذها واذهب » (التوراة — سفر التكون — الاصحاح الثانى عشر) ..

هكذا اليهود ، لا يرعون حرمة لنبى ، بل لقد كان من همهم تجريح أنبيائهم ، ورميهم بالكبائر ، والتعـــدى عليهم بالقتل ، كما يقـــول الله تعـــالى : **« أو كلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون » (سورة البقرة : ٨٧) ..**

وها هى ذى التوراة ، كما حرفها اليهود ، تسجل على نبى الله (لوط) عليه السلام ، أنه زنا بابنتيه وحملتا منه .. تقول التوراة ما نصه حرفا :

« وصعد لوط من صوغر ، وسكن فى الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن فى صوغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس فىالارض رجل ليدخل علينا كعادة كل الارض ، هلم نسقى أبانا خمرا ، ونضطجع معه ، فنحيى من أبينا نسلا ، فسقتا اباهما خمرا فى تلك الليلة ، ودخلت البكر ، واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ، ولا بقيامها .. وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة ، انى قد اضطجعت البارحة مع أبى .. نسقيه الليلة خمرا أيضا : فادخلى اضطجعى معه ، فنحيى من ابينا نسلا ، فسقيا اباهما خمرا فى تلك الليلة ايضا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحملت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ولدا ودعت اسمه مؤاب وهو أبو الموآبيين الى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى ، وهو أبو بنى عمون الى اليوم !! » (التوراة — سفر التكوين — الاصحاح التاسع عشر)..

فهذا نبى كريم من أنبياء الله الكرام تحدث عنه التوراة ، كما أرادها اليهود — هذا الحديث الذى يجعله مدمن خمر ، فيشرب الخمر ، حتى يفقد وعيه ، ويأتى الفاحشـــة مع ابنتيه ، دون أن يشعر ، ثم تلد كل بنت منهما ولدا يكون أبا لشعب كبير !!

أفهذا يليق بانسان يعيش بين الناس ، فضلا عن أن يكون نبيا مرسلا من عند الله تعالى الى هداية الناس ، واقامتهم على صراط الله المستقيم ؟

وهذا الذى تدعيه التوراة — كما أرادها اليهود — هو من هذا الافتراء الذى تفتريه على أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام ، وفيه أكثر من جريمة تدنس شرف أى انسان ، سليم العقل ، حى الضمير :

فأولا : تدعى التوراة أن ابراهيم — عليه السلام — ذهب من موطنه بالعراق مع زوجه سارة الى مصر فرارا من الجوع الذى نتج عن الجدب فى العراق .. ولو كان ذلك صحيحا لكانت هجرة سكان العراق هجرة جماعية تضم الوفا من الناس ، دون أن تقتصر على ابراهيم وزوجه !!

وهذا يؤيد ما ذهب اليه الاستاذ أحمد موسى سالم من أن ابراهيم عليه السلام لم تكن له هجرة الى مصر ، الأمر الذى أنكره عليه أولئك الذين امتلأت أدمغتهم بالخرافات والأساطير، فباضت وأفرخت فيها ..

وثانيا : تدعى التوراة — كما أراد اليهود — أن ابراهيم عليه السلام — حين دخل مصر ، ورأى أن امراته سارة جميلة يخشى أن يقتل بسببها ، طلب اليها أن تدعى أنها أخته، وليست زوجته ..

وهذا كذب وتدليس تأباه النفوس الكريمة ، فكيف يكون هذا من نبى كريم ، وأبى أنبياء كرام ؟

وثالثا : ان ابراهيم — عليه السلام — قد سمح لامرأته سارة ، أن تكون خليلة لفرعون، فى مقابل ما ينال من لقمة عيش !! أفبهذا الثمن البخس يبيع الحر زوجته وشرفه وكرامته ؟ ثم كيف تكون هذه المرأة بعد هذا أما لاسحق عليه السلام — الذى من ذريته يعقوب والأسباط، الذين يرجع اليهم نسب بنى اسرائيل وما أرسل الله اليهم من أنبياء ؟

هـذا كلام لـه خبيء　　　　معناه ليس لنا عقول

ورابعا : ماذا يحمل فرعون على أن يعيد سارة الى زوجها ابراهيم بعد أن ضمها الى نساء بيته ؟ وهل يكفى لهذا أن يعلم فرعون أن سارة هى زوجة ابراهيم وليست أخته ؟ وهل كان فرعون وهو الذى دعى أنه الاله الذى لا اله غيره — هل كان فرعون هذا يرعى حقوقا لأحد من رعاياه — فضلا عن هذا الغريب — وهو يرى أن الناس كلهم ملك يده ؟

واعجب من هذا أن ابراهيم — عليه السلام — لم تكن له عبرة من هذا الذى كان منه فى مصر ، كما تدعى التوراة التى عبثت بها أهواء اليهود ، بل ان ابراهيم — كما يفترى اليهود — يقدم زوجته سارة الى ملك جرار بالعراق ، بادعاء أنها أخته وليست زوجته !!

تقول التوراة ما نصــه :

« وانتقل ابراهيم من هناك — اى من سدوم وعمورة — الى ارض الجنوب ، وسكن بين قادش وشور ، وتغرب فى جرار ، وقال ابراهيم عن سارة امراته هى اختى ، فارسل ابيمالك ملك جرار ، واخذ سارة ، فجاء الله الى ابيمالك فى حلم الليل وقال له : ها انت ميت من اجل المراة التى اخذتها ، فانها متزوجة ببعل ، ولكن لم يكن ابيمالك قد اقترب اليها .. فقال يا سيد امة بارة تقتل ؟ الم يقل هو لى : انها اختى ؟ وهى أيضا نفسها قالت : هو اخى ؟ بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا !! » (اتوراة — سفر التكوين : ٢٠) .

ونسال : اذا كان ابراهيم قد جاز له — وهو غير جائز — أن يبيع زوجته لفرعون تحت ظروف الحاجة والجوع، فكيف يفعل هذا بامراته وهو فى حال أمن وسلام ؟ واذا كان من طبيعة اليهود أن يستبيحوا من أجل المال أعراضهم ، فهل يمتد هذا بالطبع الخسيس اللئيم الى انبياء الله ايضا ؟

— ٦ —

ابراهيم وهجرته الى مكة :

ثم انه من اجل ان يسلب اليهود هذا الشرف العظيم الذى شرف الله تعالى العرب به ، فجعل بيته الحرام ، وهو أول بيت أقامه الله تعالى للناس فى الارض ، فى مكة من ارض العرب ، حيث يقول سبحانه : **« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » (سورة آل عمران : ٩٦) .**

من اجل ان يسلب اليهود هذا الشرف العظيم الذى شرف الله تعالى العرب به ، ومن اجل أن يقطعوا نسب محمد صلى الله عليه وسلم بابراهيم واسماعيل — عليهما السلام — ادعوا فيما أدخلوه على التوراة من زور وبهتان ، أن ابراهيم واسماعيل لم يهاجرا الى مكة ، ولم يتخذ ابراهيم هذا البلد الحرام موطنا لابنه اسماعيل ..

تقــول التوراة ما نصــه :

« ورأت سارة ابن هاجر المصرية ، الذى ولدته لابراهيم يمزح ، فقالت لابراهيم ، أطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى اسحق .. فقبح الكلام جدا فى عينى ابراهيم بسبب ابنه .. فقال الله لابراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل

جاريتك .. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها ، لانه باسحق يدعى لك نسل ، وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لانه نسلك !!

« فبكر ابراهيم صباحا واخذ خبزا وقربة ماء ، واعطاهما لهاجر ، واضعا اياهما على كتفيها والولد وصرفها ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ..ولما فرغ الماء من القربة ، طرحت الولد تحت احدى الاشجار ،ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس ،لانها قالت : لا أنظر موت الولد ، فجلست مقابله ،ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا هاجر ؟ لا تخافى ، لان الله سمع لصوت الغلام حيث هو .. قومى احملى الغلام ، وشدى يدك به ، لانى سأجعله أمة عظيمة .. وفتح الله عينيها ، فابصرت بئر ماء ، فذهبت وملات القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام ، فكبر ، وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران ، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر !! » (التوراة — سفر التكوين — الاصحاح : ٢١) ..

هكذا يتخذ اليهود من التوراة مسرحا يمثلون عليه ما يترضون به أهواءهم من الاباطيل والمفتريات ، دون خشية لله ، أو حياء من الواقع المشهود .

ولقد فضح الله تعالى فى كتابه الكريم هذا الزور والبهتان ، اذ يقول تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام : **« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (سورة ابراهيم : ٣٧) .**

ومعلوم أن البيت المحرم هو البيت الحرام ، فى مكة ، البلد الحرام .. ويقول سبحانه :

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين .. فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا » (سورة آل عمران : ٩٦ — ٩٧) ..

ويقول جل شانه : « واذ بوانا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود .. وأذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام » (سورة الحج : ٢٦ — ٢٨) ..

فمكة البلد الحرام ، والبيت ، هما مهاجر ابراهيم واسماعيل ، كما نص على ذلك القرآن الكريم ، وكما قامت فيها دعوة ابراهيم واسماعيل ، حيث كان الناس يحجون الى هذا البيت ، الى أن جاء محمد ، خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، فكان مما افترضه

على المسلمين حج هذا البيت ، كما يقول تعالى : **« ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » (سورة آل عمران : ٩٧)** ..

فاين هى برية بئر سبع التى يقول اليهود فى توراتهم ان هاجر قد هاجرت اليها بوليدها اسماعيل ؟ وأين هى الآثار التى تركها اسماعيل فيها ؟

— ٧ —

وتمضى التوراة التى بايدى اليهود فى افتراءاتها التى ادخلوها عليها ، فتدعى أن الذبيح من ولدى ابراهيم هو ابنه البكر اسحق عليه السلام وليس اسماعيل !

وهذا كذب مفضوح سجله اليهود بأيديهم فى التوراة ..

تقول توراة اليهود :

« وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم ، فقال له : يا ابراهيم ، فقال : ها أنذا .. فقال خذ ابنك وحيدك الذى **تحبه** ، **اسحق** واذهب الى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على احد الجبال الذى اقول لك ، فبكر ابراهيم صباحا ، وشد على حماره ، وأخذ اثنين من غلمانه معه ، واسحق ابنه ، وشق حطبا لمحرقة ، وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله .. وفى اليوم الثالث رفع ابراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد ، فقال ابراهيم لغلاميه ، اجلسا انتما هاهنا مع الحمار ، وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ، ثم نرجع اليكما .. فأخذ ابراهيم حطب المحرقة ووضعه على اسحق ابنه ، وأخذ بيده النار والسكين ، فذهبا كلاهما معا ، وكلم اسحق ابراهيم اباه ، وقال : يا أبى ، فقال : ها أنذا يا ابنى .. فقال : هاهو ذا النار والحطب ، ولكن أين الخروف للمحرقة ؟ فقال ابراهيم : الله يرى الخروف للمحرقة يا ابنى .. فذهب كلاهما معا !!

« فلما اتيا الى الموضع الذى قال له الله ، بنى هناك ابراهيم المذبح ، ورتب الحطب ، وربط اسحق ابنه ، ووضعه على المذبح فوق الحطب ، ثم مد ابراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه ، فناداه ملاك الرب من السماء ، وقال : ابراهيم ابراهيم .. فقال : ها أنذا ، فقال : لا تمد يدك الى الغلام ، ولا تفعل به شيئا ، لانى الآن علمت انك خائف الله ، فلم تمسك ابنك وحيدك عنى ، فرفع ابراهيم عينيه ونظر ، واذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه ، فذهب ابراهيم واخذ الكبش ، واصعده محرقه عوضا عن ابنه » (التوراة — سفر التكوين — الاصحاح الثانى والعشرون).

وفى هذا الرواية المكذوبة المفضوحة امور ، منها :

اولا : أن اسحق لم يكن الابن الوحيد لابراهيم ، كما افترى المفترون ، بل كان له ابن آخر ، هو اسماعيل . الذى ولد قبل اسحق بنحو عشر سنين .. فاذا كان هناك ولد وحيد لابراهيم فهو اسماعيل ، وذلك قبل أن يولد له أسحق ..

وثانيا : ما يذكر فى هذا الخبر من أن اسحق هو الابن الوحيد الذى يحبه ابراهيم ، دليل على كذب هذه الرواية ، فليس اسحق هو الابن الوحيد الذى كان يحبه ابراهيم .. والا فأين حبه لولده اسماعيل ، وهو بكره الذى ولد له على الكبر ؟

وثالثا : ما تكرره التوراة فى هذا الخبر من ذكر كلمة « اسحق ابنه » — دليل يفضح واضعى هذا الخبر المفترى ، حيث يشعر الواضعون بانهم يكذبون ، فيريدون أن يؤكدوا هذا الخبر المكذوب بالتكرار له ، شأنهم فى هذا شأن من يكذب فى حديثه ، فيكثر من الحلف ، كما يقول تعالى فى أهل النفاق الذين يدارون نفاقهم بكثرة الحلف : « **فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت ايديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا** » (**سورة النساء: ٦٢**) **وكما يقول سبحانه: «يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد اسلامهم»..** **ويقول جل شانه : « اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقون لكاذبون .. اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله، انهم ساء ما كانوا يعملون » (سورة المنافقون : ١ — ٢) ..**

رابعا : يقرر القرآن الكريم ، أن الذبيح هو اسماعيل ، وان ذلك كان قبل أن يولد لابراهيم ولده اسحق .. يقول الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام : « **وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم .. فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين .. فلما اسلما وتله للجبين .. وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين .. ان هذا لهو البلاء المبين .. وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين .. سلام على ابراهيم .. كذلك نجزى المحسنين .. انه من عبادنا المؤمنين .. وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين » (سورة الصافات : ٩٩ — ١١٢)**

واضح من هذا القول الالهى الكريم ، أن الذى قدمه ابراهيم للذبح هو ولده اسماعيل، ولم يكن له ولد غيره ، وقد أكرم الله تعالى ابراهيم لاستجابته لامر ربه ، ففدى اسماعيل بذبح عظيم ، ثم رزقه ولدا آخر ، هو اسحق : « **وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين** » ..

ولا شك أن التضحية بالولد الوحيد اسماعيل ، أعظم وأشق على النفس من التضحية بأحد ولديه ، لو كان له ولدان !

ومن اجل هذا يتقرب المسلمون يوم عيد الأضحى بما يذبحون من انعام ، شكرا لله تعالى على نجاة ابيهم اسماعيل من الذبح ، الأمر الذى لا وجود له فى شريعة اليهود ، وهذا ما يقطع بأن اسحق لم يتقدم من أبيه ابراهيم للذبح ..

— ٨ —

ام اسماعيل عربية لا مصرية :

بقى هناك أمر آخر ، كان لأدعياء العلم من المسلمين ، انكار له ، ومجادلة فيه ، وهو فيما قرره الاستاذ أحمد موسى سالم فى حديثه : « القرآن الكريم ، وسيرة ابراهيم » : اذ يقول الأستاذ أحمد موسى سالم :

« بعد تنقية مختلف المصادر القديمة والمعاصرة فى العالم ، حول سيرة ابراهيم ، للتوصل الى أصدق الأخبار عنه ، نصا أو استنتاجا ، نتبين أنه عليه السلام ، نشأ بالعراق سنة ٢٠٠٠ ق.م .. وانه كان واضح الانتماء الى عشيرة من عشائر العرب الكلدانيين ، حديثة الهجرة الى العراق ، حيث كان العراق مع الشام ومصر ، مصبا منذ فجر التاريخ ، لهذه الهجرات القبلية التى تلاحقت من الجزيرة العربية ، باتجاه أحواض الأنهار المحيطة بها ، فى موجات ينتظم تدفقها فى سنن الله ، فى حقب زمنية متساوية ، تبلغ الحقبة منها مئات السنين » (من كتاب : مع القرآن الكريم — العدد السابع ، الذى يصدره المركز الثقافى للمقاولين العرب — ص : ١٦) .

والذى يقرره الاستاذ احمد موسى سالم عن انتماء ابراهيم عليه السلام الى العرب الكلدانيين ، هو الحق اذ كانت القبائل فى الجزيرة العربية دائمة الهجرة الى ما حولها من بلاد فيها الخصب ، للانهار الجارية فيها ، على خلاف حياة الجدب التى كان يحياها العرب فى جزيرتهم .. وقد أثبت التاريخ أن الشام ، والعراق ، ومصر ، والنوبة ، والسودان ، كانت متجه أنظار القبائل العربية ، فرارا من السنين المجدبة ، التى كانت تأتى على الناس والانعام ، الأمر الذى دفع بعض العرب الى ان يقتلوا صغارهم ، وهم يتضورون جوعا ، حتى لا يشهدوا باعينهم جرعات الموت التى يسقونها يوما بعد يوم ، أو ساعة بعد ساعة ،

كما كانوا يفعلون ذلك بصغارهم خشية الجوع المتوقع ، ولو كانوا فى حال لم يطلع عليهم فيها الجدب .. وفى هذا يقول الله تعالى : **«ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم»** **(سورة الأنعام : ١٥١)** ..

ويقول سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » (سورة الاسراء : ٣١) ..

وليس هذا الذى كان يفعله العرب فى جاهليتهم من قتل أولادهم ، فى حال الفقر ، أو خشية من الفقر المتوقع ، ليس هذا من غلظة أكباد ، وجفاف طبائع ، وانما هو حب للأولاد ، وحماية لهم من أن ينهشهم الجوع ، ويميتهم ميتات لا ميتة واحدة !!

هذا والتاريخ يشهد بأن دولتين عربيتين قامت احداهما على مشارف العراق من شمال الجزيرة العربية وهى دولة المناذرة ، كما قامت الأخرى على مشارف الشام وهى دولة الغساسنة ، وذلك قبل ظهور الاسلام بأزمان طويلة ، وكان لهاتين الدولتين شأن عظيم فى كل من مملكتى فارس فى العراق ، والروم فى الشام ، وأصل هاتين الدولتين من قحطان بأرض اليمن .

واذن فمن المعقول والمقبول ان يكون ابراهيم عليه السلام عربيا من أصل قبيلة عربية هاجرت الى العراق قديما ، هى من العرب الكلدانيين لم تنس أصلها العربى ، بل كانت تذكر هذا الأصل دائما ، وتعتز به ، وتعيش بعادات العرب ، وتقاليدهم .

ولا شك أيضا أن الله تعالى اذ هيأ لابراهيم واسماعيل الهجرة الى موضع مكة ، واقامة البيت الحرام فيها على قواعده التى كانت لا تزال قائمة .. انما كان ذلك رجوعا به الى موطنه الأصلى ، ليغرس فيه مغارس الخير .. وليقيم من أهله امة هى خير أمة أخرجت للناس ، كما يقول الله سبحانه ..

وقد وصف الله تعالى ابراهيم بأنه أب لتلك الأمة العربية ، وذلك فى قوله تعالى مخاطبا المؤمنين : **« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » (سورة الحج : ٧٨) .**

وأمر آخر أيضا ، وهو ما نفاه الأستاذ أحمد موسى سالم من أن تكون هاجر أم اسماعيل جارية من اماء فرعون أهداها الى ابراهيم ــ فان ما قرره الأستاذ أحمد موسى ، هو الحق ، وقد أشرنا من قبل الى أن ابراهيم عليه السلام ، لم يذهب الى مصر ، ولم يلتق بفرعون مصر ، وحسبه من البلاء أنه التقى فى العراق بجبار يشبه فرعون . فى ادعائه

الألوهية ، وهو النمرود ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى : **« الم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احيى واميت. قال ابراهيم فان الله ياتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » (البقرة : ٢٥٨) .**

فكيف يهاجر ابراهيم من ضلال قومه ، الذين القوا به فى النار فنجاه الله منها ، كيف يهرب أو يهاجر الى فرعـون ، الذى يقول الله تعالى على لسانه : **« أنا ربكم الأعلى » (سورة النازعات : ٢٤) ..**

يقول الأستاذ أحمد موسى سالم : « وهكذا سار ابراهيم مستدبرا افك أهل العراق ، مقبلا على رسالته الباقية المشرقة من أول الطريق .. لقد سار يستهل دعاءه بمجمل رسالته ودعوته ، وبأعظم الهـدى فى غايته وحجته ، فهو يقول فى انطـلاقه الشعاع الممدود ، والبشارة بوجـه الرسـول الموعـود : **« انى ذاهب الى ربى سـيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم » (سورة الصافات : ٩٩ ــ ١٠١) ..**

ولهذا يقرر الأستاذ أحمد موسى سالم ــ رضى الله عنه ــ أن أم اسماعيل عليه السلام كانت من عرب سيناء ، من قرية (أم العرب) شرقى فرع النيل البليوزى ، الذى انطمر من عهد بعيد ، والتى موضعها الآن (تل الفرما) فى سيناء العربية المصرية ، كما جاء ذلك فى سـيرة ابن هشـام .

« وقل جاء الحق ، وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » (سورة الاسراء : ٨١) .

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » (سورة الأنبياء : ١٨) ..

صدق الله العظيم ، وشكر الله للاستاذ أحمد موسى سالم غيرته على دين الله وجهاده المبرور فى الذود عن حرماته ...

عبد الكريم الخطيب

وبعد .. أيها القارئ الكريم !!

أرجو أن تأذن لى عزيزى القارىء أن أستعرض معـــك تاريخ هذا العمل الصالح الذى ازدهرت آثاره ، وأينعت ثماره . ترجع بى الذاكرة إلى بداية هذا العمل منذ سنة ١٩٧١ ، أى منذ كان هذا المركز الثقافى الذى أشرف على إصدار هذه السلسلة من كتب مسابقات « مع القرآن الكريم » لايزال هو مركز محو الأمية الأبجدية بين زملائى العمال فى مختلف مواقع العمل .

منذ ذلك الوقت ، كانت الرغبة تتملكنى ، فى التوصل إلى أسلوب يتحقق به محو الأمية الفكرية فى المجال القادر على محوها وهو الإسلام . وقد اتصلت فى سبيل ذلك بكل وسائل الاتصال بمن أعرف ومن لا أعرف من العلماء ، وبأهل الرأى من الكتاب الإسلاميين ، من أجل التوصل إلى خطة ومنهج يحققان هذا الهدف الكبير ، ولكنى بكل الصدق والأمانة — وكما أسجل هذا لأول مرة للتاريخ — فإن الآراء التى تلقيتها من الجميع كانت « تقليدية » وأبعد ماتكون عن المنهج العلمى فى التفكير ، ولم تكن بكل صورها تتجاوز المحاكاة التلقائية للأساليب السائدة طوال عصور التخلف ، ولو كنت قد أخذت بها لتحولت هذه السلسلة القيمة من كتب (المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه) « مع القرآن الكريم » إلى سلسلة

أخرى من الاستعراضات الحنجرية . . الميكروفونية . . التى تحرك العواطف ، وتنيم العقول ، وتنشر فى السامعين هذا الطابع « المزاجى » الذى يتيسر لهم به أن يعجبوا بالمتناقضات فى وقت واحد ، دون أن ينتبهوا بعقولهم إلى هذا التناقض .

إلى أن شاء الله تعالى ، وهو يعلم صدق نيتى ، كما يعلم شدة حاجة الشباب إلى ماتطلعت إليه نفسى ، فوفقنى إلى اللقاء برجل صالح لم تسبق لى معرفته إلا فى ذلك اليوم الذى جلست أستمع إلى محاضرة له عن « الإسلام فى مواجهة الشيوعية والعلمانية » ، وكان ذلك فى معهد التربية الذى كان ينظم دورة لتخريج مدربين ثقافيين للعاملين فى مواطن العمل.. هذا الرجل الذى تعلمت منه الكثير ، والذى لايزال يؤثر بما هداه الله إليه فى فكرى باتجاه الصحيح والصالح — هو : الأستاذ أحمد موسى سالم .

لقد رأيت هذا الرجل الصالح طرازاً مختلفاً فى دعوته إلى الإسلام عن رجل الدعوة النمطى ، التقليدى ، النصوصى ، غير المتفاعل مع عصره ، والأقرب شبهاً فى محفوظاته غير المتجانسة مع بعضها ، بجهاز التسجيل.

لقد رأيت فى هذا الرجل الزاهد فى الإعلان عن نفسه — معيناً من الحق الذى كنت ولا زلت أنشده ، وتنشده معى الأجيال المعاصرة ، الراغبة فى الصادق والصحيح من الدين . . ومع هذا الحق وجدت البرهان الدينى هو السند ، والمنهج العلمى هو الإطار ، والأصالة هى المنبع ، والمعاصرة هى الطابع واللون والمذاق . .

وهنا حمدت الله وشكرته . . وتحدثت إلى الرجل بعد انتهاء الدورة ، وعرضت عليه فكرتى التى أريد بها انطلاقاً من مهمتى فى محو الأمية بين زملائى ، أن أتحرك بها بين أسرة شركتنا « المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان وشركاه » من أجل تنمية الفكر ، وزيادة الإنتاج على أساس أخلاقى إسلامى .

وبمنطق العلماء الصادقين الجادين طلب منى مهلة حتى يستطيع أن يقدم لى رأياً مفيداً لتحقيق هذا الأمل . . ولم يمض وقت طويل حتى قدم لى الأخ ، المفكر الإسلامى ، الصادق الأمين الأستاذ أحمد موسى سالم رأيه بتوفيق الله فى هذا المنهج الذى سرنا عليه طوال تلك السنوات السبع الخصاب ، الصاعدة والمنتشرة بمنارة بحوثها وحقائقها حتى اليوم . . ويتلخص هذا الرأى فيما يلى :

أولا : عندما قضى الله بحفظ كتابه الكريم ، كما أنزله على رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم ، فى قوله تعالى فى سورة الحجر : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » تحدد بهذا العهد على الله أنه سيحفظ بحفظ القرآن أمة القرآن ، فهى كلما غفلت بالترف والتفرق عادت فذكرت وأنابت ، وكلما رقدت بالتخلف والأوهام تنبهت بالذكر المتلو على آذانها فنهضت وصحت . .

ثانياً : الأمم الإسلامية المتخلفة والممزقة فى العصر الحاضر بقوى أعدائها تواجه منعطف الطرق إلى الفناء أو إلى الصحوة ، وهى إلى الصحوة أقرب .

ثالثاً : الدعوة الصحيحة التى تعزز هذه الصحوة الإسلامية فى أى مجال وأى نطاق ، تستند أساساً إلى المنهج القرآنى ، الذى تم تطبيقه على عهد الرسول الكريم وأصحابه ، حتى ذروة الكمال والنجاح ، وهو منهج المواجهة لمصدر الخطايا والأخطاء فى ذلك الاسترخاء على ماكان عليه الآباء من الغفلة عن الصحيح ، والاستكانة للوهم . وهو منهج يقتضى الحزم والرفق ، ويستوجب البرهان والأسوة ، ولا يتناقض فى كل قضاياه مع قوانين الله وسنن الله .

وفى ضوء هذا الرأى الصادق الحكيم استخلص الكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم منهج عملنا بنظام المسابقات الذى سرنا عليه منذ سنة ١٣٩٣ هـ . سنة ١٩٧٣م . فى الحدود التى وضعها لهذا النظام كالآتى :

١ ــ تجرى المسابقات القرآنية بحوافزها القيمة بين فريق العاملين المثقفين داخل مؤسسات الشركة المختلفة وهم المهندسون ، والقانونيون والمحاسبون ، والعمال المهرة ، وهى مسابقات تقع فى شهر رمضان المبارك من كل عام ، شهر نزول القرآن الكريم ، وتتوجه فيها الأسئلة وجهة البحث عن الحلول الإسلامية للقضايا الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة فى ضوء مصادر الإسلام الصحيحة فى القرآن الكريم ، وفى السنة الشريفة ، وفى الإجماع .

٢ ــ بعد تصحيح إجابات المتسابقين يصدر المركز الثقافى كتابه السنوى الذى يتولى فيه أهل الثقة من العلماء تقديم الإجابات النموذجية عن أسئلة المسابقة ، بالمنهج الصحيح لهذه الإجابة ، وحتى يتيسر لهذا الفريق الكبير

من العاملين أن يحصلوا على زاد صحيح ومشرق وعلمى من حقائق الإسلام الحق ، ينمون به ثقافتهم الإسلامية الصحيحة ، ويحصنون به عقولهم وقلوبهم من غزو الأفكار المستوردة ، فى تيارات الشيوعية الإلحادية ، أو العلمانية اللادينية ، أو غيرهما من مصادر الخرافات المتوارثة . .

٣ - يقوم المركز الثقافى بالشركة بتوزيع هذه الكتب على نطاق واسع داخل فروع الشركة فى مصر ، وفى مراكز عملها بالوطن العربى ، وبين مبعوثيها فى كل من أوروبا وأمريكا ، وذلك لتوسيع مجال الإفادة من هذه الكتب فى تنوير شباب الأمة العربية والعالم الإسلامى بالثقافة الإسلامية الصحيحة ، مع تحصينهم من الدعاوى والغزوات الشيوعية والعلمانية والباطنية بكل أشكالها ، فى عملية غير مسبوقة فى هذا العصر لنشر المناعة الفكرية بلغة الدين ، ومنهج القرآن ، ضد الكثير من حمى وأوبئة الإلحاد والانحراف التى زاد انتشارها فى مجرى الصراعات وأدوات الترويج المستحدثة فى العصر الحاضر .

بهذا المنهج الإسلامى ، القرآنى ، العلمى ، المعاصر ، حققنا الكثير من النجاح الواسع فى المسابقات التى عقدناها ، والكتب القيمة التى أصدرناها ، وكان الرجل الصالح والكاتب الإسلامى الأستاذ أحمد موسى سالم وراء عوامل هذا النجاح فى جانبه الدينى والعلمى ، بجهده المبذول فى صمت وصدق ، كما كانت شركتنا الأصيلة وراء العوامل الأخرى والضرورية لهذا النجاح فى جانبه الإدارى والمالى ، فهى لم تبخل بأى نفقة من أجل إصدار وطبع هذه الكتب القيمة فى أثوابها الفاخرة ، والجذابة ،

كما أنها لم تضن بحوافزها المتعددة والثمينة ومنها الحج والعمرة على أوائل الناجحين فى هذه المسابقات . .

لقد تحقق هذا النجاح الواسع ، والصاعد ، لهذه الكتب التى أصدرناها فى الضوء ، وعلى مرأى ومسمع من علماء الأزهر الشريف ، ومن أساتذة الجامعات ، ومن كافة الدعاة وعامة المثقفين . . وكانت صور هذا النجاح الذى حققناه بفضل الله فى شبه الإجماع عليه من القراء ، وكما تحدثت به جميع الرسائل التى نشرنا الكثير منها فى خواتيم هذه الكتب ـ كانت هذه الصور من النجاح ظاهرة فيما وفقنا الله إليه من التزامنا الصادق بما يأتى :

١ ـ الإضاءة بالصدق والحق والبرهان العلمى على حلول القضايا الفكرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية المعاصرة ، وفق مايقضى به الدين الحق ، والإسلام الخالص .

٢ ـ الكشف والمواجهة للخرافات والتأويلات التى تعوق الصحوة إلى مسار الدين الحق ، والتى تزايدت باستفحال العجمة اللغوية ليس بين العامة وحدهم ، ولكن مع الأسف بين بعض أدعياء العلم ،والمنهج العلمى ، من ضحايا الفكر الشيوعى ، والنوع الهدام من الاستشراق الأوروبى المعادى للإسلام .

٣ ـ هذه المناقشة الواثقة والمتفائلة للمختلفين معنا فى الرأى من هؤلاء الشيوعيين وغيرهم بالبرهان العلمى غير المسبوق ، ليس من أجل فرض

الرأى الصحيح عليهم ، ولكن من أجل فرض احترام هذا الرأى الصحيح ، بسند برهانه العلمى — إذا لم يقبلوه . .

٤ — استهداف الحماية والتحصين لشباب مصر والوطن العربى والعالم الإسلامى ، وهم ذخر المستقبل ، وعدته ، ورجاؤه ، من مخاطر الضياع عن هويتهم الإسلامية ، ومن ظواهر الانهيار والهذيان بحمى المذاهب والأوبئة الفكرية المستوردة فى الظاهر والباطن بكل أشكالها . .

إننى أكتفى بذلك .. وأنا أُشهد الله تعالى أننا قد ابتغينا وجه الله الكريم فى كل ما بذلناه من الجهد ، وما اعتصمنا به من الصدق ، وما حرصنا عليه فى كل ما أصدرناه من هذه الكتب « مع القرآن الكريم » من « أمانة الاجتهاد » فى كل ما كتبه العلماء المخلصون المجتهدون .. وعلى الله قصد السبيل .. وإليه يرجع الأمر كله .. والحمد لله رب العالمين .

عبد الفتاح عساكر

محتويات بحوث العدد الثامن

القسم الأول

الموضوع — الصفحة

القسم الثانى

الموضوع | الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب

٣١٠٣ / ١٩٨١



بحوث العدد الثامن

- القرآن الكريم وأهل البيت
- القرآن الكريم وبنات شعيب
- القرآن الكريم والروح
- القرآن الكريم والسعادة
- القرآن الكريم والقرن الخامس عشر الهجري

